الموسوعة الثقافية المدرسية
٧
لطلاب المرحلة الثانوية

ماذا تعرف عن قدوتك محمد

صلى الله عليه وآله وسلم

إعداد
عبدالعزيز الفقيري

الطبعة الأولى

موقع الموسوعة الثقافية المدرسية
www.alukah.net

ماذا تعرف عن قدوتك
محمد ﷺ ؟

تأليف

أبو عبد الله

ح أبو عبد الله، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
أبو عبد الله
ماذا تعرف عن قدوتك محمد صلى الله عليه وسلم./ أبو
عبد الله - تيماء، ١٤٣٥هـ
٣٤٦ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٠-٣-٥٦٠٣-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١- السيرة النبوية أ. العنوان
ديوي ٢٣٩ ٦١٦٧/ ١٤٣٥
رقم الإيداع: ٦١٦٧/ ١٤٣٥
ردمك: ٠-٣-٥٦٠٣-٠١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

حقوق الطبع والنشر والتصوير لكل مسلم، بكل وسيلة مباحة دون أخذ إذن خطي من المؤلف ويسعدني تعديل وحذف ما خالف الكتاب والسنة إن وُجد سهوًا

التصحيح والمراجعة
محمد فهمي
سحر الشريف
سمية الورداني
علي فرحات حلوة
مصطفى حسن
يوسف محمد أبو القاسم
مصطفى حسن حسن
أحمد هارون
أبو القاسم عبدالرحمن
أيوب محمد فضل
عبدالله مختار

مستشار الموسوعة
د. حسن الشريف
رئيس مجلس إدارة
دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع
عضو إتحاد الناشرين المصريين

الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

www.alukah.net

أجمل هدية من يديك

أخي القارئ الكريم:

هذا الكتاب هو من أجلك، وقد بذل فيه الكثير من الجهد؛ ولكن كما قال الإمام الشافعي (أبى الله أن يتم إلا كتابه) فالخطأ والزلل في صنائع البشر وجهودهم وارِد بمقتضى الجبلة البشرية؛ إذ لا عصمة لأحد بعد الأنبياء.

ولهذا .. قد تجد في هذا الكتاب أخطاء إملائية، أو نحوية، أو غيرها، فلا تتردد في إبلاغنا بها، وإرسالها إلينا.

وبما أن الكتاب أُلف لك ومن أجل أن تنتفع به، فإننا ندعوك أن تستشعر - وأنت تقرأه – أنه لك .. فرحمك الله يا من أهديت إلينا عيوبنا.

لإرسال ملاحظاتك عن طريق عناوين المؤلف في آخر الكتاب.

جزاك الله خيرًا على كل حرف كتبته .. وستكون – بإذن الله – شريكنا في الأجر والنفع.

الألوكة
www.alukah.net

المحتوى

المقدمة	٩
بين يدي الكتاب من نبع هديك تُستقى الأنوارُ	١٣
الوقفة الأولى: في ذكر النسب الشريف وطهارة أصله ﷺ	٢١
الوقفة الثانية: الأخلاق الكريمة للنبي الكريم ﷺ	٢٧
الوقفة الثالثة: النبي ﷺ بين الثبات على الحق والرحمة	٩١
المحور الأول: دار الأرقم بن أبي الأرقم	٩١
المحور الثاني: هجرة المسلمين إلى الحبشة	٩٥
المحور الثالث: حصار المسلمين في شعب بني هاشم	١٠٠
المحور الرابع: رحلة النبي ﷺ إلى الطائف	١٠٤
الوقفة الرابعة: مع هدي النبي ﷺ	١١١
الوقفة الخامسة: كيف يمضي النبي ﷺ يومه؟	١٥١
الوقفة السادسة: دروس من السيرة النبوية	١٦٥
الوقفة السابعة: مشكلات عالجها النبي ﷺ	٢٠١
الوقفة الثامنة: الرسول ﷺ في معاملته لغيره	٢١٥
الوقفة التاسعة: أمثلة تطبيقية من حياة النبي ﷺ	٢٣٩

الوقفة العاشرة: من وصايا الرسول ﷺ ٢٦١

الوقفة الحادية عشر: مواقف وعبر مع النبي ﷺ ٣٢٣

الوقفة الثانية عشر: كتب تحدثت عن السيرة النبوية ... ٣٣٥

الخاتمة ٣٤١

الألوكة
www.alukah.net

المقدمة

«الحمد لله الذي شرح صدور أهل الإسلام للهدى، ونكث في قلوب أهل الطغيان فلا تعي الحكمة أبدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهًا أحدًا، فردًا صمدًا.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ما أعظمه عبدًا وسيدًا، وأكرمه أصلاً ومحتدًا، وأبهره صدرًا وموردًا، وأطهره مضجعًا ومولدًا.

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه غيوث الندى، وليوثِ العِدى، صلاةً وسلامًا دائمين من اليوم إلي أن يُبعث الناس غدًا» [١].

ثم أما بعد:

الحديث عن السيرة النبوية العطرة شي عظيم؛ لأن صاحبها هو رسول كريم عظيم ﷺ :

* (زكاه الله في عقله فقال سبحانه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ٢].

* وزكاه الله في صدقه فقال سبحانه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣].

* وزكاه الله في بصره فقال سبحانه: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧].

---

(١) الحمد من كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني - فتح الباري شرح صحيح البخاري.

* وزكاه الله في فؤاده فقال سبحانه: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم: ١١].

* وزكاه في صدره فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١].

* وزكاه الله في ذكره فقال سبحانه: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤].

* وزكاه الله في طهره فقال سبحانه: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ [الشرح: ٢].

* وزكاه الله في حلمه فقال سبحانه: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

* وزكاه الله في علمه فقال سبحانه: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٥].

* وزكاه الله في خلقه فقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

* وزكاه الله في كل شيء فقال سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأقسم الله بحياته فقال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].

ثم أخبر عن منزلته في الملآ الأعلى عند رب العالمين وعند الملائكة المقربين فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ثم أمر أهل الأرض من المؤمنين بالصلاة والسلام عليه ليجتمع له الثناء من أهل السماء وأهل الأرض فقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٥٦])[١].

وها نحن نبحر معكم في هذا الكتاب الخاص بسيرة رسولنا الكريم ﷺ، وحياته، وأخلاقه.

وقد قطفنا أزهار الكتاب من كتب، وموسوعات، ومواقع، تحدثت عن السيرة العطرة، فاللهم لا تحرم الجميع الأجر، والفائدة، إنك سميع مجيب.

(١) مابين القوسين من كتاب: المشتاقون إلى رسول الله ﷺ - تأليف/ زيد الشمري.

الألوكة
www.alukah.net

بين يدي الكتاب

من نبع هديك تُستقى الأنوارُ [١]

من نبع هديك تُستقى الأنوارُ
وإلى ضيائك تنتمي الأقمار
ربُّ العباد حباك أعظم نعمة
دينًا يعز بعزه الأخيار
حُفِظَّت بك الأخلاق بعد ضياعها
وتسامقت في روضها الأشجار
وبعثت للثقلين بعثة سيدٍ
صدقت به وبدينه الأخبار
أصغت إليك الجن وانبهرت بما
تتلو، وعمَّ قلوبها استبشار
يا خير من وطئ الثرى وتشرفت
بمسيره الكثبان والأحجار
يا من تتوق إلى محاسن وجهه
شمس ويفرح أن يراه نهار
بأبي وأمي أنت، حين تشرفت
بك هجرة وتشرف الأنصار
أنشأت مدرسة النبوة فاستقى
من علمها ويقينها الأبرار

---

(١) شعر: عبد الرحمن صالح العشماوي.

هي للعلوم قديمها وحديثها
ولمنهج الدين الحنيف منار
لله درك مرشدًا ومعلما
شرفت به وبعلمه الآثار
ربيت فيها من رجالك ثلة
بالحق طافوا في البلاد وداروا
قوم إذا دعت المطامع أغلقوا
فمها وإن دعت المكارم طاروا
إن واجهوا ظلمًا رموه بعدلهم
وإذا رأوا ليل الضلال أناروا
قد كنت قرآنًا يسير أمامهم
وبك اقتدوا فأضاءت الأفكار
عمروا القلوب كما عمرت، فما مضوا
إلا وأفئدة العباد عمار
لو أطلق الكون الفسيح لسانه
لسرت إليك بمدحه الأشعار
لو قيل: من خير العباد لرددت
أصوات من سمعوا: هو المختار
لم لا تكون؟ وأنت أفضل مرسل
وأعز من رسموا الطريق وساروا

ما أنت إلا الشمس يملأ نورها
آفاقنا، مهما أثير غبار
ما أنت إلا أحمد المحمود ففي
كل الأمور، بذاك يشهد غار
والكعبة الغراء تشهد مثلما
شهد المقام وركنها والدار
يا خير من صلى وصام وخير من
قاد الحجيج وخير من يُستشارُ
سقطت مكانة شاتم، وجزاؤه
إن لم يثب مما جناه النار
لكأنني بخطاه تأكل بعضها
وهنا، وقد ثقلت بها الأوزار
ما نال منك منافق أو كافر
بل منه نالت ذلة وصغار
حلقت في الأفق البعيد، فلا يد
وصلت إليك ولا فهم مهذار
وسكنت في الفردوس سكنى من به
وبدينه يتكفل القهار
أعلاك ربك همة ومكانة
فلك السمو وللحسود بوار

إنـــا لــيــؤلمــنــا تـــطـــاول كـــافــر
مـــلأت مـــشـــارب نـــفـــســه الأقـــــذار
ويـــزيـــدنـــا ألمًـــــا تخـــــاذل أمـــة
يـشـكـو انــدحــار غـثـائـهـا المـلـيـار
وقـفـت عــلى بــاب الخــضــوع، أمامها
وهـــنُ الــقــلــوب وخلفها الكفار
يـــا لـيـتـهـا صــانــت محـــارم دارهـــا
مـــن قـــبـــل أن يـــتـــحـــرك الإعـــصـــار
يـــا خـيـر مـــن وطـــيء الــثــرى، في عصرنا
جـيـش الـــرذيـــلـــة والهـــــوى جـــــرار
في عـــصـــرنـــا احـــتـــدم المحيط ولم يزل
مـــتـــخـــبـــطًـــا في مـــوجـــة الـــبـــحـــار
جمحت عقول الناس، طاش بها الهوى
ومـــــن الهــــوى تـــتـــســـرب الأخـــطـــار
أنـــت الــبــشــيــر لهـــم، وأنـــــت نذيرهم
نـــعـــم الـــبـــشـــارة مـــنـــك والإنـــــذار
لـكـنـهـم بهـــوى الــنــفــوس تـشـربـوا
فــأصــابهــم غبش الــظــنــون وحــــاروا
صبغوا الحــضــارة بالرذيلة، فالتقى
بـــالـــذئـــب فــيــهــا الــثــعــلــب المـــكـــار

مـا بـاهلـم سـكـتـوا عـلى سفهائهم
حـتـى تمـادى الـشر والأشرار
عـجـبًـا لهــذا الحـقـد يجـري مثلما
يجري (صديد) في القلوب «وقار»
يـا عـصر إلحـاد الـعـقـول، لقد جرى
بـك في طـريـق المـوبـقـات قـطـار
قـربـت خـطـاك مـن الـنـهـايـة، فانتبه
فـلـربـما تـتـحـطـم الأســـوار
إني أقـــول، ولـلـدمـوع حـكـايـة
عـن مـثـلـهـا تـتـحـدث الأمـطـار
إنــا لـنـعـلـم أن قـدر نـبـيـنـا
أسـمـى، وأن الـشـانـئـين صغار
لـكـنـه ألم المـحـب يـزيـده
شرفًـــا، وفـيـه لمـن يحـب فـخـار
يشقي غـفـاة الـقـوم مـوت قلوبهم
ويـــذوق طـعـم الـراحـة الأغـيـار

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة الأولى

في ذكر النسب الشريف
وطهارة أصله ﷺ

www.alukah.net

الوقفة الأولى
في ذكر النسب الشريف وطهارة أصله ﷺ (١)

نسبه ﷺ:

هو أبو القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد، بن عدنان.

هذا هو المتفق عليه في نسبه ﷺ.

واتفقوا أيضًا على أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام.

أسماؤه ﷺ:

عن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقبُ الذي ليس بعده أحد»(٢).

وعن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»(٣).

---

(١) من كتاب: «٤٠» مجلسًا في صحبة الحبيب ﷺ- د/ عادل بن علي الشدي- البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ- سلسلة رحمة للعالمين (٥).

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

طهارة أصله ﷺ:

وهذا مما لا يحتاج على دليل، فإنه ﷺ المصطفى من بني هاشم وسلالة قريش، فهو أشرف العرب نسبًا، وهو من مكة التي من أحب البلاد إلى الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد اعترف أبو سفيان - وذلك قبل إسلامه - بعلو نسب النبي ﷺ وشرفه وذلك حينما سأله هرقل فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب.

فقال هرقل: وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.[(١)]

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[(٢)].

ومن طهارة نسبه ﷺ أن الله تعالى قد صان والديه من زلة الزنا، فولد من نكاح صحيح ولم يولد من سِفاح[(٣)]، كما قال ﷺ: «خرجت من نِكاح، ولم أخرج من سِفاحٍ، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء»[(٤)].

وقال ﷺ: «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح»[(٥)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) السفاح: الزنا.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط وحسنه الألباني.

(٥) رواه ابن سعد وحسنه الألباني.

الألوكة
www.alukah.net

وروى ابن سعد وابن عساكر عن الكلبي – رحمه الله – قال: كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم، فما وجدت فيهن سفاحًا، ولا شيئًا من أمر الجاهلية.

قوله: «خمسمائة أم»، يريد الجدات وجدات الجدات من قبل أبيه وأمه.

قال الناظم:

مـــن عـــهـــد أدم لم يـــزل تحـــمـــي له
في نسلها الأصـــلاب والأرحـــام
حـــتـــى تـــنـــقـــل في نـــكـــاح طـــاهـــر
مـــا ضـــم مجـــتـــمـــعـــين فـــيـــه حـــرام
فـــبـــدا كـــبـــدر الـــتـــم لـــيـــلـــة وضـــعـــه
مـــا شـــان مـــطـــلـــعـــه المـــنـــير قـــتـــام
شـــكـــرًا لمـــهـــديـــه إلـــيـــنـــا نـــعـــمـــة
لـــيـــســـت تحـــيـــط بـكنـهـهـا الأوهـــام

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة الثانية

الأخلاق الكريمة للنبي الكريم ﷺ

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة الثانية
الأخلاق الكريمة للنبي الكريم ﷺ [(١)]

أولاً: رفقه ﷺ:

لازم الرفق محمدًا ﷺ في مختلف أحواله: في الغضب والرضا، في السعادة والحزن، وحتى في وقت الآلام والمضار.

فيوم تشتد به الخطوب ويدميه قومه يدعو لهم: «اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون»[(٢)].

ويوم يطلب منه بعضهم أن يدعو على من آذاه، فإذا به يقول: « إني لم أبعث لعانًا»[(٣)]،. فغلبت رحمته غضبه، وغلب رفقه شدته.

لقد أدرك محمد ﷺ أن اللفظ القاسي يورد الفعل القاسي، وصاحب القلب القاسي إنما هو سبب نفور الناس وتحاشيهم القرب منه والتفاعل معه.

والمتأمل في القرآن، يجد أنه قد عظم مقام الرفق وأمر به، بل قد نبه محمدًا ﷺ إليه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

كما حث القرآن على اعتماد الرفق خيارًا مبدئيًا في نهج الدعوة إلى

---

(١) من الموسوعة الميسرة في سيرة نبي الرحمة ﷺ- إشراف أ.د/ عادل بن علي الشدي- ود/ أحمد بن عثمان المزيد- تحرير/ خالد السيد روشه- ود/ محمد الدويش. رابطة العالم الإسلامي- المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته- ط الأولى ١٤٣١هـ.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٩).

الإسلام، وعده ركنًا وأساسًا مهمًا يقوم عليه العمل الرسالي للفكر والعقيدة الإسلامية، كما وجه الله تعالى محمدًا ﷺ بقوله: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨].

أي: ألن لهم جانبًا وأرفق بهم، والعرب تقول: فلان خافض الجناح إذا كان وقورًا حليمًا، وهي دعوة إلى لطف الرعاية، وحسن المعاملة، ورقة الجانب في صورة محسوسة على طريقة القرآن في التعبير.

وأمر الله تعالى به كذلك في التعامل مع المخالفين، فقال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [المزمل: ١٠].

والهجر الجميل: أن لا تتعرض لخصمك بشيء، وإن تعرَّض لك تجاهلت؛ فقد أمره بالصبر على ما يسمعه من الأقوال البذيئة من خصومه، صبرًا لا عتاب فيه على أحد، ولا تكبر، أو دفاع عن الذات، بل تركهم إلى الله مع الهجر الجميل الذي لا يترك في نفوسهم أذى يحول بينهم وبينه مستقبلاً، فلا يقبلوا عليه ولا يسمعوا هديه، بل كان هجرًا جميلاً لم يقطع خيوط المودة، ولم يهدم جسور التواصل.

ويذكر الله تعالى ما بين الرفق والتعامل الحسن، وبين الفظاظة والإساءة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ [فصلت: ٣٤].

فالمعنى ها هنا: أن اصبر على الأذى، وأكظم الغيظ الذي تبتلى به، واحلم عمن أساء إليك، وتعامل مع مصدر آلامك تعامل العطوف الكريم برفق ولطف يمس قلوبهم القاسية، فيحولها من قسوتها وجفوتها عليك

الألوكة
www.alukah.net

إلى محبة لك، وإن اعتماد منهجية الرفق مع الأعداء إلى الحد الذي يجعل الفرد الواحد أمام أعداء دعوته ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، فإنه بذلك يستقطب مجامع قلوبهم إليه حتى تصير آذانًا صاغية لهديه وإرشاده، فيستنفذها مما هي فيه.

كما بينت الآيات أن الرفق هو دأب الأنبياء، فإن الله تعالى لما أرسل نبيه موسى وأخاه – عليهم السلام – إلى فرعون الطاغية قال لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

وتصل الآيات إلى غاية الرفق وعظم اللين والسهولة في حال إبراهيم – عليه السلام – ، حين دعا أباه إلى الإسلام فصرخ به وقال كما حكاه الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]. فرد إبراهيم بكل رفق ولين قائلاً: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]. فكان الأنبياء – عليهم السلام – يصلون بالرفق واللين إلى ما لا يصل إليه غيرهم كما بينت الآيات.

رؤية محمد ﷺ لخلق الرفق:

لقد نظر محمد ﷺ إلى الرفق على أنه خلق أساس في تكوين شخصية المسلم، فعلم أمته أن الله يحب صاحب الرفق، ويحب السلوك الرفيق كله، فيقول: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»(١).

وعلمهم أن الرفق يزين الأمور فقال: إن الرفق لا يكون في شيء إلا

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).

زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[١].

وكان كثيرًا ما يدعو لأصحاب الرفق فيقول: «اللهم من رفق بأمتي فأرفق به»[٢]. وجعل الرفق نوعًا من النعم الغالية التي إذا دخلت على أهل بيت فليعلموا أن الله قد أردا بهم خيرًا، فقال: «إذا أراد الله عز وجل بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم الرفق»[٣].

ونتائج استعمال الرفق أفضل بكثير مما سواه، فيخاطب محمد ﷺ زوجه عائشة – رضي الله عنها – قائلاً: «يا عائشة! إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»[٤].

على الجانب الآخر، فإن المرء الذي حرم الرفق فإنه قد فقد شيئًاعزيزًا وقيمة غالية، فيقول: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»[٥].

بل حرص محمد ﷺ على أن يعلم رسله والدعاة الذين كان يرسلهم إلى البلاد ليوصلوا رسالته هذا الخلق النبيل، ويؤكد على التزامه، فهو يوصي معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري لما أرسلهما إلى اليمن قائلاً: «يسَّرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا»[٦]..

ويؤكد محمد ﷺ على أن هذا الخلق جدير بأن يباعد صاحبه عن النار

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٨١٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٩٠٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٣).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٢٩).

(٦) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).

الألوكة
www.alukah.net

فيقول: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار يحرم كل قريب هين ليِّن سَهُل»[(١)].

عندما يعم الرفق الحياة:

أكد محمد ﷺ على الرفق والسهولة في جميع التعاملات مهما عظمت، ومهما كان المتعامل معه، تحكي زوجته عائشة - رضي الله عنها- موقفًا مع بعض خصومه فتقول: دخل رهط من اليهود على النبي محمد ﷺ فقالوا: السام عليكم (يعني الموت عليكم).

قالت عائشة: ففهمتها، فقلت، وعليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[(٢)].

ولما دخل أعرابي المسجد وبال فيه، قام الصحابة إليه ليمنعوه، فمنعهم محمد ﷺ وقال: «لا تعجلوا عليه»، حتى إذا أنهى بوله وقام ليذهب، دعاه وقال: «إن المساجد لم تبن لهذا، وإنما بنيت للصلاة والذكر والتسبيح».

ثم ذكر محمد ﷺ في ذلك مثالاً بديعًا لأصحابه فقال: «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي، كمثل رجل شردت عليه ناقته فقام الناس يشتدون خلفها وهي تشتد هاربة، والرجل يصيح: خلوا إليَّ ناقتي. حتى إذا تفرقوا عنه عمد إلى شيء من خشاش الأرض، ثم جعله في ثوبه ورفعه إليها، ودعاها فلم يزل بها حتى جاءته».

ويروي معاوية بن الحكم قال: لما قدمت على رسول الله محمد ﷺ علمت أمورًا من أمور الإسلام، فكان فيما علمت أن قال لي: « إذا عطست

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).

فاحمد الله، وإذا عطس العاطس فحمد الله فقل: يرحمك الله». قال: فبينما أنا قائم مع رسول الله في الصلاة إذ عطس رجل فحمد الله، فقلت: يرحمك الله، رافعًا بها صوتي، فرماني الناس بأبصارهم حتى احتملني ذلك، فقلت: ما لكم تنظرون إليّ بأعين شزر؟! قال: فسبحوا، فلما قضى رسول الله الصلاة قال: «من المتكلم؟!». قيل: هذا الأعرابي، قال: فدعاني رسول الله فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما نهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح وقراءة القرآن»[١].

ثانيًا: تواضعه ﷺ:

لم يكن محمد ﷺ مع أصحابه رجلاً عاديًا، ولم يكن كسائر الناس، فهو رجل يأتيهم بالوحي من السماء، وهو زعيم يأمر فيطاع، وينهى فيستجاب له.

وهو مع ذلك ينتمي إلى أسرة قرشية ذات شرف ومكانة ومنزلة عالية.

كان محط اهتمام أصحابه ورعايتهم وإجلالهم، إذا تحدث استمعوا له وأنصتوا، وإذا أمرهم تسابقوا لتنفيذ أمره.

إن الرجل العادي حين يكون في مثل هذا الموقف، فإن هذا قد يقوده إلى أن يضع لنفسه هالة، ويقوده إلى أن يتعالى على الناس فهو يعلم ما لا يعلمون، ويملك مالا يملكون، ويقوده إلى أن يعيش حياته الخاصة بصورة تتلاءم مع هذه المنزلة والمكانة.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

الألوكة
www.alukah.net

لكن محمدًا ﷺ كان بخلاف ذلك كله، كان متواضعًا بعيدًا عن الأنفة والكبر، لم يكن يصنع حول نفسه هالة ومكانة، بل كان يسعى إلى أن يعيش كما يعيش غيره.

نلمس التواضع في حياة محمد ﷺ الشخصية: في بيته، في ملبسه، في فراشه، وفي طعامه.

لم يكن يبحث عن الفرش الوثيرة الفارهة، والتي كانت تعني شيئًا لدى من يمنحون لأنفسهم هالة.

يصور لنا خادمة أنس بن مالك - رضي الله عنه - شيئًا من ذلك، فيروي أن جدته مليكة دعت رسول الله ﷺ لطعام صنعته، فأكل منه، ثم قال: «قوموا فأصلي لكم» قال أنس بن مالك: فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس فنضحته بماء، فقام عليه رسول الله ﷺ وصففت أنا واليتيم وراءه والعجوز من ورائنا، فصلى لنا رسول الله ﷺ ركعتين ثم انصرف.

كما يروي لنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - موقفًا أثّرا في نفسه حتى أبكاه، يقول وهو يصف حاله عند دخوله على محمد ﷺ: «.... وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظًا مصبوبًا وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت».

وهو حين يزور أحدًا من أصحابه لا يستنكف عما يقدم له، مهما كان شأنه، وقد عرف ذلك أصحابه فلم يكونوا بحاجة لأن يتكلفوا له، فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: إن النبي ﷺ ذُكِرَ لَهُ صَوْمِي، فدخل

عليَّ فألقيت وسادة من أدم حشوها ليف، فجلس على الأرض وصارت الوسادة بيني وبينه، فقال لي: أما يكفيك من كل شهر ثلاثة أيام؟ قلت: يا رسول الله، قال: «خمسًا». قلت: يا رسول الله قال: «سبعًا». قلت: يا رسول الله. قال: تسعًا. قلت: يا رسول الله. قال: «إحدى عشرة». قلت يا رسول الله. قال: «لا صوم فوق صوم داود شطر الدهر صيام يوم وإفطار يوم»[(١)].

وإذا كانت هذه حاله في فراشه وأثاثه، فحاله في لبسه ليست بعيدة عن ذلك.

ماذا كان يلبس محمد ﷺ؟

عن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة كساء وغزارًا غليظًا. فقالت: «قبض روح النبي ﷺ في هذين»[(٢)].

وحين يكون هذا شأنه ﷺ في فراشه ولباسه، فهو كذلك في ركوبه؛ إذ كانت المراكب لها شأنها عند العرب، وكان الأكابر لا يركبون كما يركب سائر الناس.

أما محمد ﷺ فلم يكن كذلك، كان يركب كما يركب عامة الناس وبسطاؤهم، فعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ ركب على حمار على إكافٍ عليه قطيفة فدكية، وأردف أسامة وراءه[(٣)].

وطعامه وشرابه كذلك، كان فيه بعيدًا عن مظاهر الكبر والتعالي،

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٠)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨١٨)، ومسلم (٢٠٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٦٤)، ومسلم (١٧٩٨).

الألوكة
www.alukah.net

يحدث ﷺ هو عن نفسه فيقول: «آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد فإنما أنا عبد»[(١)].

وتروي لنا كتب السيرة موقفًا يتجلى فيه تواضع محمد ﷺ لدرجة أن من حوله لم يعرفوه، فعن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ قالت: في قصة الهجرة فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوفٍ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتًا فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك[(٢)].

مع الناس ﷺ:

تواضع محمد ﷺ لم يكن قاصرًا على حياته الشخصية، بل كان جليًا واضحًا في تعامله مع الآخرين، كان يخالطهم ويعيش معهم السراء والضراء، كان يواسيهم في القليل والكثير، وكان يتبسط معهم.

يحدثنا عن ذلك أحد أصحابه المقربين منه، وأحد من تولوا الخلافة بعده، فعن عثمان - رضي الله عنه - قال: إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناسًا يعلمونني به، عسى أن لا يكون أحدهم رآه قط[(٣)].

---

(١) رواه أبو يعلى وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٦٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥٠٦).

إن عثمان - رضي الله عنه - ينكر على أولئك الذين يرسمون صورة من خيالهم عن محمد ﷺ وهم لم يروه، ويحدثنا عن واقع عايشه معه في السفر والإقامة، في حلو الحياة ومرها.

ويتجلى تواضع محمد ﷺ في تعامله مع الناس في اعتنائه بالضعفاء، فالضعفاء يهمشون كثيرًا، والضعفاء لا يؤبه بهم، ولا يلقى لهم بال، بينما كان محمد ﷺ يوجه لهم عنايةً واهتمامًا خاصًا، فعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: « ابغوني في ضعفائكم، فإنما ترزقون - أو تنصرون - بضعفائكم »[(١)].

وهذا التواضع من محمد ﷺ مع هذه الفئة من الضعفاء لم يكن مجرد تبسط في التعامل معهم، بل كان يعني بقضاء حاجاتهم ومشكلاتهم، فعن عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يُكثر الذكر، ويُقل اللغو، ويُطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأبى أن يمشي مع الأرملة، أو المسكين فيقضي حاجته[(٢)].

ومن تواضع محمد ﷺ في تعامله مع الناس تبسطه في التعامل مع الصبية وصغار السن، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - : أنه مر على صبيان فسلم عليهم، وقال: كان النبي ﷺ يفعله[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٤)، والترمذي (١٧٠٢).

(٢) أخرجه النسائي (١٤١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨).

الألوكة
www.alukah.net

مع أهل بيته ﷺ:

كما يتجلى تواضع محمد ﷺ في تعامله مع أهل بيته، فهو يعيش في بيته ومع أهله معيشة المتواضعين، وتصور لنا زوجه عائشة - رضي الله عنها - حياته في بيته فقالت: «كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام على الصلاة»[(١)].

وفي رواية أخرى تفصل تفصيلاً يجلي هذا الواقع، قالت: «كان بشرًا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»[(٢)].

في مهنته وعمله ﷺ:

من تواضع محمد ﷺ ما يتصل بمهنته وعمله، فقد كان لا يستنكف أن يعمل في مهنة من المهن التي يعمل بها قومه، فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: كنا مع النبي ﷺ بمر الظهران، ونحن نجني الكباث، فقال النبي ﷺ: «عليكم بالأسود منه». قال: فقلنا يا ر سول الله: «كأنك رعيت الغنم» قال: «نعم، وهل من نبي إلا وقد رعاها أو نحو هذا من القول»[(٣)].

نهيه عن الإطراء ﷺ:

قد يكون التواضع لدى بعض الناس مجرد أمر اعتاده نتيجة حياة اتسمت باليسر، وعدم وجود ما يدفع على علو النفس.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٦٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٦)، ومسلم (٢٠٥٠).

أما محمد ﷺ، فكان تواضعه أمرًا مقصودًا يسعى إليه، ويستنكف عما سواه.

وقد شدد ﷺ على التحذير من أمراض القلوب، وخاصة من تسلل صفة الكبر المذمومة على القلب، فهو القائل: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[(١)].

كما نهى أصحابه كذلك عن تبجيله كالملوك والقيام له فقال: « من أحب أن يمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»[(٢)].

ويقول أنس - رضي الله عنه - : «لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ، كانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون، من كراهته لذلك»[(٣)].

وكان ﷺ ينهى الناس عن إطرائه والمديح له، وينهى أن يقع أتباعه فيما وقع فيه بعض غلاة النصارى من مبالغة تتجاوز القدر المشروع، فعن عمر - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»[(٤)].

وينكر محمد ﷺ على أصحابه أن يفضلوه على غيره دون علم أو برهان، ولا يمنعه من الإنصاف والعدل كون من وقع عليه الخطأ من غير أتباعه، وكون من أخطأ من أنصاره وأتباعه، فيتجرد من ذاته، ويتجرد من التعالي والبغي، فينهى صاحبه عما فعل، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه

(١) رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥).

(٣) رواه الترمذي وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، وأحمد، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

- قال: بينما رسول الله ﷺ جالس جاء يهودي فقال: «يا أبا القاسم ضَرب وجهي رجل من أصحابك» فقال: «من؟». قال: «رجل من الأنصار». قال: «ادعوه». فقال: «أضربته؟». قال: سمعته بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر. قلت: أي خبيث على محمد ﷺ، فأخذتني غضبة ضربت وجهه. فقال النبي ﷺ: «لا تخيروا بين الأنبياء»[(١)].

وحين دعاه أحد أصحابه بوصف فيه تفضيل له على غيره، أنكر عليه ذلك، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: «يا خير البرية». فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم عليه السلام»[(٢)].

المؤرخون يشهدون بتواضع محمد ﷺ :

شهد العديد من المؤرخين الذين درسوا سيرة محمد ﷺ بتواضعه؛ إذ يقول المستشرق الاسكتلندي «وليام مونتجومري وات»: «إن محمدًا اكتسب احترام الناس وثقتهم عن طريق أعماله التي بنيت على أساس ديني، وكذلك خصال تمتع بها كالشجاعة والحزم والنزاهة.. إلى جانب أنه كان يتمتع بأخلاقيات تأخذ مجامع القلوب، منحته محبتهم وأمنت إخلاصهم».

وقال المؤرخ البريطاني (إدوارد جيبون)، في كتابه الشهير (انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية): «إن الوعي الأخلاقي الطيب لمحمد نبذ خيلاء السيادة، فقد تعامل مع المهمات المنزلية اليسيرة التي تكون داخل الأسرة، فقد كان يوقد النار، ويكنس الأرض، ويحلب الشاة، ويرتق بيده حذاءه وجلبابه».

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦٩).

من هم أصحابه ﷺ؟

الصحابة هم: أصحاب النبي محمد ﷺ الذين صاحبوه وجالسوه وسمعوا منه وأخذوا عنه هدي الإسلام وسنته، فنصروه وعزروه وجاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله - عز وجل - .

الصحابي: هو من اجتمع بالنبي ﷺ مؤمنًا و مات على الإسلام وإن لم تطل صحبته له، و إن لم يرو عنه شيئًا(١).

متى يعرف كونه صحابيًا؟

الصحابي يعرف كونه صحابيًا بالتواتر، أو الاستفاضة، أو الشهرة، أو بإخبار بعض الصحابة، أو بعض ثقات التابعين، أو بإخباره عن نفسه بأنه صحابي وكانت دعواه ممكنة.

كم عدد صحابة النبي ﷺ؟

ليس هناك إحصاء دقيق لعدد الصحابة؛ لكن هناك أقوال لأهل العلم يستفاد منها أنهم يزيدون على مائة ألف صحابي، وأشهر هذه الأقوال قول لأبي زرعة الرازى: «توفي رسول الله ﷺ ومن رآه و سمع منه زيادة على مائة ألف إنسان من رجل وامرأة كلهم قد روى عنه سماعًا أو رؤية»(٢).

يشارك أصحابه الأعمال والمهمات ﷺ:

لم يكن من دأب محمد ﷺ وهو يعايش الواقع مع صحابته أن يكتفي بإصدار أوامره إليهم، وقد كان قادرًا على ذلك، لكن كان يعايشهم

---

(١) المصدر/ فتح المغيث - للسخاوى - رحمه الله - ، والباعث الحثيث - لابن كثير - رحمه الله - .

(٢) (المصدر/ الإصابة في تمييز الصحابة)

الألوكة
www.alukah.net

ويشاركهم بكل أريحية وتبسط، فحين قدم المدينة كان من أول أعماله أن قام ببناء مسجده بالتعاون مع أصحابه، فشاركهم في بناء المسجد، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قدم النبي ﷺ المدينة، فنزل أعلى المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام النبي ﷺ فيهم أربع عشرة ليلة، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون والنبي ﷺ معهم وهو يقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»(١).

وفي غزوة الخندق حين غزته قريش، ومن تحالف معها من قبائل العرب، حمل التراب في أثناء حفر الخندق، وقام بنقله مع صحابته بلا كلل أو تأفف، وكان قادرًا على أن ينأى بنفسه عن ذلك العمل، ويكفيه أصحابه المهمة.

ولذا تركت مشاركته أثرها عليهم فكانوا ينشدون:

لئن قعدنا والنبي يعمل

لذاك منا العمل المضلل

ثالثًا: رحمته ﷺ:

لقد كانت الرحمة معلمًا مهمًا من معالم شخصية محمد ﷺ، وقد جاء في القرآن بأن الله تبارك وتعالى أرسله رحمة للناس، فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولم تكن الرحمة سمة محدودة أو هامشية من سمات محمد ﷺ، بل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤).

لقد بلغت قدرًا من الأهمية، لدرجة أنه سمى بذلك ﷺ، فعن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»(١).

وحين نتأمل سيرته وحياته ﷺ نجد الرحمة بارزة في مواقفه كلها وفي تعامله مع الناس جميعًا.

لم تكن الرحمة منه ﷺ قاصرة على مجرد استجابة عاطفية لموقف مؤثر فحسب، فهذه سجية إنسانية قلما يخلو منها بشر، حتى القساة الغلاظ قد تبدو منهم الرحمة في بعض المواقف المؤثرة.

ويشهد له من عرف سيرته ودرسها بذلك، يقول المستشرق الألماني: (برتلي سانت هيلر): إن في شخصية محمد «صفتين هما من أجل الصفات التي تحملها النفس البشرية وهما: العدالة، والرحمة».

رحمته ﷺ بكبار السن:

نادرًا ما يدون في تاريخ الأمم وضع كبار السن داخل المجتمع، كما أنه قليلاً ما يلتفت إلى حقوقهم خلال فترات الصراع والحرب، وإن كان الحال في تاريخ الأمة الإسلامية يختلف، فهو يحفل بالعديد من الشواهد على اهتمام رسول الإسلام ورحمته بالمسنين والشيوخ الطاعنين في العمر، فيروى عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن محمدًا ﷺ قال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩١٩).

الألوكة
www.alukah.net

وفي عتاب النبي ﷺ للصحابي الجليل «معاذ بن جبل» في إطالته للصلاة، بينما كان يقف إمامًا لجمع من المصلين، ما يدل على رحمته ورأفته ﷺ بالكبير والضعيف، فنجده يقول: «يا معاذ أفتان أنت؟ أو أفاتن أنت ثلاث مرات، فلولا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير، والضعيف وذو الحاجة»(١).

أما عندما تدور رحى الحرب، فإن الإسلام يحرم على أتباعه التعرض للنساء والشيوخ، والأطفال، وهو ما يميز الشريعة الغراء التي لا تبحث عن نصر زائف أو استعراض غير متكافئ للقوة.

وبينما يفجع اليوم المتابع للتقارير الإخبارية والنشرات التي تنقل وقائع الحروب الدائرة حول العالم، من فيض الانتهاكات التي تتعرض لها حقوق الإنسان من قتل للمدنيين الأبرياء، والشيوخ العجائز، وذبح للأطفال، وهتك لأعراض النساء، فإن التاريخ لابد وأن يسجل لرسول الإسلام ﷺ دعوته لأصحابه وقادة جيوشه بعدم قتل الشيوخ والأطفال والصغار والنساء والرهبان في صوامعهم، والمرضى والجرحى، ومن لا يتبين أنه مشارك في الحرب.

وعن رحمته ﷺ في تعامله مع كبار السن، فإن المواقف تتعدد، ونذكر منها على سبيل المثال: موقفه من أبي قحافة والد صاحبه أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - يوم أن دخل في الإسلام وكان شيخًا طاعنًا في السن، حيث أتى به أبو بكر - بعدما فتح ﷺ مكة - ليبايع النبي، فلما رآه ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟ قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت. فأجلسه بين يديه، ثم مسح

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥).

صدره، ثم قال له: أسلم، فأسلم»[١].

رحمته ﷺ بالنساء:

بينما كانت عصور القهر والظلام تسلب المرأة كل حق لها، بل في حقبة كانت تجرى مناقشات حول كون المرأة إنسانًا أم لا، فقد منحت الشريعة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ المرأة الحق في كل ما لغيرها من الرجال سواء في الميراث والتصرف فيما تملكه، واختيار الزوج، واستقلال ذمتها المالية، كما كفل لها الإسلام دستورًا يحميها سواء كانت طفلة أم شابة، أو سيدة متزوجة، أم مطلقة أم أرملة، أم عجوز مسنة.

ووصى محمد ﷺ برعاية النساء والرفق بهن فمن ذلك أنه قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[٢]. كما قال ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرًا» متفق عليه[٣].

ويضرب لنا محمد مثالاً آخر على رحمته بأهل بيته، فبينما نراه يحمل السيدة عائشة، وهي تشاهد الأحباش وهم يلعبون بالرماح، نراه يكرم صاحبات السيدة خديجة، ويرسل إليهن الهدايا حتى بعد وفاتها.

وكما أوصى محمد ﷺ بحسن معاملة النساء، فقد حذر بشدة من عواقب تضييع حقوقهن والاعتداء عليهن واستغلال ضعفهن فقال: «اللهم إني أحرج حق الضعيفين، اليتيم والمرأة»[٤]. وهو ما يعني أن الرسول ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٤١٦).

(٢) رواه الترمذي وصححه.

(٣) أخرجه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٨)، وأحمد (٩٣٧٤).

الألوكة
www.alukah.net

يلحق الإثم بمن يتجنى على حقوق النساء والأطفال.

والباحث عن رحمته ﷺ بالمرأة لا يمكنه ألا يقف عند رحمته بالأرامل، وحثه على الاهتمام بشؤونهن ورعايتهن، عن عبد الله بن أبي أوفى – رضي الله عنه – قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة»(١).

وقد شدد محمد ﷺ على أهمية السعي على الأرامل والمساكين، مؤكدًا أن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فله أجر المجاهد في سبيل الله، حيث يقول: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار»(٢).

ولم يكن مفهوم الرحمة بالمرأة عند محمد ﷺ يقتصر على حماية حقوقها والحث على رعايتها، بل كان يفيض ليشمل عدم إيذائها نفسيًا، فعن أبي قتادة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه»(٣).

رحمته ﷺ بالصغار:

كان للصغار مكانة خاصة عند النبي ﷺ، حيث كان يوليهم عناية واهتمامًا يندر أن يوجد من مثل محمد ﷺ في مهامه ومشاغله.

---

(١) أخرجه النسائي (١٤١٤).

(٢) رواه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري(٧٠٧)، ومسلم (٤٧٠).

والحديث عن تعامل محمد ﷺ كغيره من البشر يرق لما يصيب الصغار ويرحمهم، فعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابنًا لي قبض فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكلٌ عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب».

فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال. فرُفِعَ إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع قال: حسبته أنه قال كأنها شن ففاضت عيناه. فقال سعد: «يا رسول الله ما هذا؟» فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»(١).

لقد كانت رحمته ﷺ بالصغار مشاعر حقيقية تقود محمدًا ﷺ إلى البكاء والتأثر، لكنه مع ذلك لا يطلق العنان لكل ما يشعر به، فلا يقول إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى.

ولم تكن رحمة محمد ﷺ بالصغار قاصرة على حالات المصائب، بل كانت شعورًا لا يفارقه، فعن أسامة بن زيدٍ - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما، ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»(٢).

وعن قتادة قال: خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلى فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٩٦)، ومسلم (٥٤٣).

الألوكة
www.alukah.net

زجره ﷺ من لا يرحم:

إن بعض الأخلاق والسمات جبلة في النفوس فمنهم من يكون رحيمًا عطوفًا، ومنهم من يكون كريمًا سخيًا، ومنهم من يكون شجاعًا.

والرحمة عند محمد ﷺ لم تكن مجرد سمة وخلق جُبل عليه فحسب، بل كان يعلم الناس الرحمة، ويدعوهم إليها، وينكر على أولئك الذين لا تبدو منهم الرحمة لمن يستحقها، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: «إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا» فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم»(١).

وفي موقف آخر يصف محمد ﷺ من فقد الرحمة بالصغار بأنه قد نزعت الرحمة من قلبه، فعن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: جاء رجل أعرابي إلى النبي ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»(٢).

وكان ﷺ يأمر أمته بالرحمة أمرًا عامًا، ويبين أن أولئك الذين يتخلقون بالرحمة يستحقون رحمة الله تبارك وتعالى، فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - يبلغ به النبي ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء»(٣).

وعن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤).

يرحم الله من لا يرحم الناس»[(١)].

رحمته ﷺ بالجاهل:

من المواقف التي تتجلى فيها الرحمة، رحمته بالرجل الجاهل: فإن الجاهل كثيرًا ما يتصرف تصرفات لا تليق، وقد تقود الناس للتعامل الفظ والغليظ معه، يروي لنا أبو هريرة - رضي الله عنه - هذا الموقف فيقول: قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: «اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا»، فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: «لقد حجرت واسعًا يريد رحمة الله»[(٢)].

وبعد الصلاة اتجه هذا الأعرابي إلى ناحية المسجد، والمسجد له مكانته عند المسلمين، فهو دار العبادة، وهو المكان الذي يجتمعون فيه لتلاوة القرآن وتعلم العلم، فأخذ يبول، فاستنكر أصحاب محمد ﷺ هذا الأمر، وانتهروا الرجل، فنهاهم محمد ﷺ، وأمرهم أن يدعوه حتى يكمل حاجته.

ثم دعاه ﷺ برفق وعلمه.

يصف لنا هذا الأعرابي موقفه ﷺ بقوله: فقام إليَّ بأبي وأمي، فلم يؤنب ولم يسب، فقال: «إن هذا المسجد لا يبال فيه وإنما بُني لذكر الله وللصلاة» ثم أمر بسجل من ماء فأفرغ عليه[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٥٢٩).

الألوكة
www.alukah.net

تأكيده ﷺ على رحمة الضعاف:

ويؤكد محمد ﷺ على شأن الرحمة بالصغار، وأن أولئك الذين لا يملكون في قلوبهم الرحمة لمن يستحقها هم على غير سنته وطريقته، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال: رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا»(١).

رحمته ﷺ في أدائه للعبادة:

لقد كان محمد ﷺ يراعي الرفق بأمته وهو يؤدي العبادة، بل أهم العبادات العملية، ألا وهي الصلاة، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»(٢).

رحمته ﷺ بترك الأفضل:

كما أنه ﷺ كان يترك بعض الأعمال الفاضلة رحمة بأمته، فقد أخبر ﷺ أن الوقت الأفضل لصلاة العشاء هو تأخيرها إلى آخر وقتها، لكن نظرًا لأن الناس كانوا ينامون مبكرين، ويشق عليهم أن يتأخروا لانتظار الصلاة؛ فإنه ﷺ كان يبكر في أدائها أول وقتها: مراعاة لعدم المشقة عليهم، ولو ترك هذا العمل الفاضل، وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: أعتم النبي ﷺ ذات ليلة حتى ذهب عامة الليل وحتى نام أهل المسجد، ثم خرج فصلى، فقال:

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩١٩)، وأحمد (٦٦٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٩)، ومسلم (٤٧٠).

«إنه لوقتها، لولا أن أشق على أمتي»[(١)].

ومن رحمته ﷺ بأمته فيما يتعلق بالتشريع، أنه كان يخشى أن يفرض عليهم أمرًا لا يستطيعون المحافظة عليه، كان محمد ﷺ يحافظ على صلاة التطوع بالليل، وفي رمضان يزداد اجتهادًا في الصلاة، وكان يصلي لوحده ﷺ، فصلى مرة في المسجد، وصلى معه أصحابه، وحين تكرر الأمر خشي ﷺ إن هو داوم على ذلك أن يفرضه الله عليهم، فصار يصلي في بيته.

فعن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد فصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال: «أما بعد فإنه لم يخف عليَّ مكانكم ولكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها»[(٢)].

الرحمة بالمخالفين:

لم تقف رحمة محمد ﷺ على أتباعه الذين استجابوا لدعوته وناصروه فصاروا من أصحابه، بل إنها امتدت إلى المخالفين له، والذين كانوا يؤذونه ويقفون عائقًا أمام دعوته، بل يحاربونه، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قيل يا رسول الله ادع على المشركين.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦)، ومسلم (٦٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٩٢٤)، ومسلم (٧٦١).

الألوكة
www.alukah.net

قال: «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمةً»[١].

وحين كان ﷺ في مكة فآذاه قومه خرج إلى الطائف يدعوهم، فلم يستجيبوا له.

في مثل هذا الموقف قد يميل الرجل إلى أخذ ردة فعل ممن لم يستجب له، لكن رحمة محمد ﷺ قد وسعت أولئك.

فعن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ، حدثت أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحدٍ؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلالٍ، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب».

ومع تلك المعاناة التي عاناها محمد ﷺ مع أهل مكة والطائف، إلا أنه لم يستعجل ربه عذابهم وإهلاكهم، ولم يدع عليهم، بل قال قولته المشهورة: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٩).

(٢) الراوي: عائشة (رضي الله عنها) - خلاصة الدرجة: صحيح - المحدث: البخاري - المصدر: الجامع الصحيح.

رحمته ﷺ بالحيوانات:

إن من في قلبه مثل هذا العطف والرحمة ليس بغريب عليه أن يرحم الحيوان الضعيف الذي لا يستطيع النطق ليعبر عن ألمه، أو عن خوفه وجزعه، فنرى محمدًا ﷺ ينهى عن قتل الحيوان من أجل اللهو واللعب.

وأوصى كذلك بالرفق بالحيوان، حتى عند ذبحه، فتراه يقول لمن أضجع شاة وهو يحد شفرته: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها»(١).

وحكى لأصحابه كيف أن امرأة دخلت النار في هرة، وأن رجلاً غُفِرَ له في كلب فقال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»(٢).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال: «لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي» فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له. قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: في كل كبد رطبة أجر»(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٣١)، والطبراني في الكبير والأوسط.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣) رواه البخاري.

الألوكة
www.alukah.net

رابعًا: حياؤه ﷺ:

كان محمد ﷺ يوصف بالحياء، بل بشدة الحياء، حتى ضرب له المثل في ذلك.

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها(١).

وقد وصفه الله تعالى في القرآن الكريم بالحياء، فقال في سورة الأحزاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]

وتروي لنا كتب السنة تفاصيل ذلك في القصة التالية:

عن أنس - رضي الله عنه - قال: بُنِيَ على النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيًا فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعو فقلت: «يا نبي الله ما أجد أحدًا أدعوه» قال: «ارفعوا طعامكم» وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله» فقالت: «وعليك السلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك بارك الله لك». فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة من رهط

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

في البيت يتحدثون وكان النبي ﷺ شديد الحياء فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة فما أدري آخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخلة وأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت آية الحجاب»(١).

ويخبرنا محمد ﷺ أن الحياء ليس خاصًا به، بل إنه من السنن التي جاء بها رسل الله جميعًا، عن أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: الحياء، والتعطر، والسواك، والنكاح»(٢).

ويخبر عن حياء أخيه موسى - عليه السلام - بقوله: «إن موسى كان رجلاً حييًا ستيرًا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه»(٣).

ومن حياء محمد ﷺ أنه لم يكن يرضى أن تظهر عورته أمام الناس، وإنما وقع منه ذلك مرة وهو صغير، فلم يُر عريانًا بعدها، فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة، وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي، لو حللت إزارك فجعلت على منكبيك دون الحجارة. قال: فحله فجعله على منكبيه، فسقط مغشيًا عليه، فما رُي بعد ذلك عريانًا ﷺ(٤).

ومن حياء محمد ﷺ أنه يستحي ممن يتصفون بالحياء، فقد كان صاحبه عثمان - رضي الله عنه - شديد الحياء؛ لذا كان ﷺ يعامله بما يتناسب مع

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٩٣)، ومسلم (١٤٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٨٠)، وأحمد (٢٣٠٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٤)، ومسلم (٣٤٠).

الألوكة
www.alukah.net

حاله، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيته، كاشفًا عن فخذيه – أو ساقيه – فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال: «ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟». وفي رواية قال: «إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحالة أن لا يبلغ إليَّ في حاجته»(١).

الحياء في الحديث عما لا يحسن التصريح به:

وحين يبين محمد ﷺ لأتباعه أحكام الدين، فإن هناك ما يستحيا منه؛ لذا فهو يعبر عنه بلفظ يؤدي إلى المعنى، لكنه لا يتنافى مع الحياء، فعن عائشة: أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل ثم قال: «خذي فرصة من مسكٍ فتطهري بها».

قالت: وكيف أتطهر بها؟

فاستتر كذا ثم قال: «سبحان الله تطهري بها».

قالت عائشة – رضي الله عنها – : «فجذبت المرأة وقلت تتبعين بها أثر الدم»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) رواه النسائي.

يأمر أمته بالحياء:

والحياء ليس مجرد صفة جُبل عليها محمد ﷺ، بل هي صفة محمودة في شريعة الإسلام يثني عليها محمد ﷺ، ويأمر أصحابه بالتخلق بها، فيخبر أن الحياء من الإيمان فيقول: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»(١).

ولما كان بعض الناس يعيب صفة الحياء وينتقصها: فإن محمدًا ﷺ ينهى عن ذلك، ويخبر أنها صفة محمودة، فعن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه، فإن الحياء من الإيمان»(٢).

ويقارن محمد ﷺ بين الحياء وبين الفحش، فيجعل الحياء مقابلاً ونقيضًا له، ويجعله مما يزين الأمور، فيقول: «ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه»(٣).

مفهوم الحياء:

وربما يتساءل أحد هاهنا: أليس الحياء صفة ضعف وقصور؟

أليس الحياء يمنع الإنسان عن المطالبة بحقوقه؟

أليس الحياء يمنع الإنسان عن قول ما ينبغي له أن يقوله؟

فهل كان ذلك عند محمد ﷺ؟

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤)، ومسلم (٣٦).

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٧٤).

إن من يتأمل سيرة محمد ﷺ يرى أن الحياء الذي اتصف به ودعا إليه، ليس موقف الضعف والقصور، فهو لم يكن ناشئًا عن ضعف قدرة، أو قصور في التواصل، أو خجل، بل كان أمرًا يتخلق به، ويختاره عن وعي.

فالحياء لم يكن ليمنعه ﷺ من بيان أحكام الدين للناس حين يقتضي الأمر ذلك، فعن حصين المزني قال: قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على المنبر: أيها الناس، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقطع الصلاة إلا الحدث». لا أستحييكم مما لا يستحي منه رسول الله ﷺ[(١)].

وحين تسأله إحدى النساء عن أمر من أمور الدين مما يستحيا منه، تعتذر عن ذلك بأن الحياء لا يمنع من التفقه في أمور الدين، فيقرها ﷺ على هذا الأمر، فعن أم سلمة أن أم سليم قالت يا رسول الله: إن الله لا يستحي من الحق، هل على المرأة غُسل إذا احتلمت؟ قال: «نعم إذا رأت الماء» فضحكت أم سلمة. فقالت: أتحتلم المرأة؟ فقال النبي ﷺ: «فبم شبه الولد»[(٢)].

لقد عني محمد ﷺ بأن يربي الناس تربية متوازنة، فهو يعودهم أن يطالبوا بحقوقهم المشروعة، ولا يرى في ذلك ما يتعارض مع الحياء، ومع ذلك يؤكد على قيمة الحياء حين تكون محمودة.

إن الحياء يمنع الإنسان عن إتيان الأفعال الشائنة غير اللائقة، ويقود الإنسان على أن يهذب ألفاظه فيبتعد عما يخدش الحياء، أو عن التصريح بما لا يليق التصريح به، وهو يمنع من المجاهرة في المجامع العامة بما يلفت أنظار الناس ويستنكرونه.

---

(١) أخرجه أحمد (١١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩١)، ومسلم (٣١٣).

ويعبر محمد ﷺ عن هذا المعنى، وأن من لم يردعه الحياء يمكن أن يفعل كل ما يشاء فيقول: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[١].

الحياء من الله تعالى:

كما يبين محمد ﷺ أن الحياء ليس فقط هو في التعامل مع الناس، بل في تعامل الإنسان مع ربه - عز وجل - عليه أن يستحي منه.

والحياء من الله يجعل المسلم يراقب ربه ويخشاه، ويبتعد عن معصيته، سواء أكان أمام الناس، أم كان لوحده، فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء».

قال قلنا: يا رسول الله! إنا نستحيي والحمد لله. قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[٢].

وسأله رجل من أصحابه أن يوصيه فأوصاه بالحياء من الله عز وجل وقال له: «أوصيك أن تستحي من الله عز وجل، كما تستحي من رجلا من صالحي القوم»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨)، وأحمد (٣٦٦٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في الزهد، والبيهقي في الشعب.

الألوكة
www.alukah.net

خامسًا: صبره ﷺ:

ظل محمد ﷺ يدعو إلى رسالته، سرًا وجهارًا، لا يصرفه عن ذلك صارف طوال سني حياته الثلاثة والستين، وتعرض خلالها لأصناف كثيرة من الآلام والمشاق والمحن، وهو في كل ذلك صابر ثابت يريد أن يواصل الطريق إلى نهايته.

فقد استمر في أول عهده يتتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، يدعو من لقيه من: حر وعبد، وقوي وضعيف، وغني وفقير، على الإيمان به والتصديق برسالته، والدخول في عهده.

وبرغم مشاعر الغضب المتفجرة في مكة ضده وضد دعوته، فإن ذلك لم يخفه أو يقعده، بل ظل يدعو ويؤهل العناصر الأولى لحمل رسالته معه، وقد كان يجتمع بالمسلمين في بيوتهم بعيدًا عن أعين قريش حتى تكونت جماعة من المؤمنين الأوائل قوية في إيمانها برسالتها.

لقد صبر على إلحاق أصناف الأذى به وبأصحابه، بعدما قرر المشركون استئصال دعوته، وظلت قريش عشرة أعوام تعد المسلمين متمردين عصاه، فاستباحت دماءهم وأموالهم، وأثارت عليهم حربًا إعلامية من السخرية والاستهزاء والتكذيب والتشويه، واتهموا محمدًا بالجنون، والسحر، والكذب والكهانة، ومحمد ﷺ في كل ذلك ثابت صابر يرجو من ربه النصرة وينتظره.

حتى أنه جاءه يومًا أبو جهل ليعتدي عليه، ويريد أن يطأ على رقبته، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ يعني أنه يصلي أمامهم، قال: قيل: نعم. فقال: واللات والعزى،

لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب. قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته. قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتراجع.

ويروي ابن مسعود - رضي الله عنه - موقفًا يتجاوز فيه قومه كل قيم الأدب واللباقة، فيقول: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم - وهو عقبة بن أبي معيط - فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرة، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم(١).

ومن أشد ما صنع به المشركون ﷺ ما رواه عروة بن الزبير، قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه. فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر، فأخذ بمنكبه، ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟»(٢).

وقد اشتد أذى المشركين لمحمد ﷺ ولأصحابه، حتى جاء بعضهم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٨).

إليه يستنصره، ودعونا نترك صاحبه يحكي الموقف: فعن خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال ﷺ: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»(١).

وظل الأذى بمحمد ﷺ وأصحابه حتى حبسهم قريش والقبائل من مواليها في شعب أبي طالب لمدة طالت، فبلغت قرابة الثلاث سنين، واجمعوا على أن يتعاقدوا على بني هاشم، وبني عبد المطلب، وبني عبد مناف، وأن لا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ولا يكلموهم، ولا يجالسوهم، حتى يسلموا إليهم محمدًا ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة، وبقوا محصورين محبوسين، حتى بلغهم الجهد، ومات أبو طالب بعد ذلك بستة أشهر، وماتت خديجة بعده بعدة أيام، واشتد البلاء على محمد ﷺ بموتهما، وتجرأ عليه السفهاء وآذوه أشد إيذاء.

ثم خرج إلى الطائف لعله يجد في ثقيف حسن الإصغاء لدعوته والانتصار لها، وكان معه زيد بن حارثة، وكان في طريقه كلما مر على قبيلة دعاهم إلى الإسلام، فلم تجبه واحدة منها.

عندما وصل إلى الطائف عمد على رؤسائها فجلس إليهم، ودعاهم إلى الإسلام، فردوا عليه ردًا قبيحًا، وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم، فلما أراد الخروج تبعه هؤلاء السفهاء واجتمعوا عليه صفين يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء، وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، ورجع محمد ﷺ من الطائف إلى مكة محزونًا[(١)].

وظل محمد ﷺ يدعو الناس في مواسم الحج والأسواق، فعن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه، قال: أخبرني رجل يقال له، ربيعة بن عباد، من بني الديل، وكان جاهليًا، قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا».

والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه، أحول، ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ وقالوا لي: هذا عمه أبو لهب[(٢)].

كما صبر محمد ﷺ على الجراح والألم في كثير من المواقف بعد هجرته إلى المدينة وبداية المواجهات مع الخصوم، فعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أنه سئل عن جرح النبي ﷺ يوم أحد فقال: جرح وجه النبي ﷺ وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة - رضي الله عنها - تغسل الدم، وعلي يمسك، فلما رأت أن الدم لا يرتد إلا كثرة أخذت حصيرًا فأحرقته حتى صار رمادًا، ثم ألزقته فاستمسك الدم[(٣)].

---

(١) انظر زاد المعاد (٣/ ٣١).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠).

وبرغم ذلك الأذى والجراح، يحكي ﷺ لأصحابه عن قيمة عليا من الصفح والعفو، فعن عبد الله بن مسعود قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[(١)].

سادسًا: كرمه وجوده ﷺ:

الكرم خصلة حميدة وصفة جميلة كانت محل الثناء عند العرب، وكان صاحبها محل مدحهم وإعجابهم.

الكرم يعني: سخاء الإنسان وبذله للمال لمن يحتاجه من الآخرين، واعتناءه بإكرام الضيف والإحسان إليه.

وفي مقابل الكرم البخل والشح، وهو من أسوأ الأخلاق لدى العرب، حتى كانوا يسمون البخيل فاحشًا، من شدة كرههم لهذه الخصلة.

يقول عنترة أحد شعراء العرب قبل الإسلام:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدد

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر البخل بلفظ الفحشاء، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقد أثنى القرآن الكريم على صفة الكرم في قصة نبي الله إبراهيم، وذكر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

القرآن قصته مع ضيفه في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الذاريات].

عاش محمد ﷺ في مجتمع يحب الكرم والكرماء ويثني عليهم، لكن قد فاقهم في ذلك، بل شهد له من عاصره أنه أسخى الناس وأجودهم، فعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان(١).

لقد عرف التاريخ قديمًا وحديثًا عددًا من الأثرياء والأغنياء الذين ينفقون بسخاء على المحتاجين وعلى المشروعات الاجتماعية والخيرية.

والكرم خلق جميل وسمة محمودة، مهما كانت حال الكريم المنفق، لكنه حين يكون ثريًا غنيًا، فمن السهل أن ينفق الكثير من ماله دون أن يشعر بأن هناك ما ينقصه.

أما من يكون فقيرًا، وينفق مما يحتاج إليه، فهذا غاية الكرم والجود.

ومحمد ﷺ لم يكن ثريًا غنيًا، ولم يكن كرمه نتيجة امتلاكه للأموال الهائلة، بل كان ينفق مما يحتاج إليه، ويصور لنا هذا الموقف جانبًا من ذلك:

عن سهل بن سعدٍ – رضي الله عنه – قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة فقالت يا رسول الله: أكسوك هذه. فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال يا رسول الله: ما أحسن هذه فاكسنيها، فقال: «نعم»، فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه، قالوا: ما أحسنت

---

(١) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

الألوكة
www.alukah.net

حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئًا فيمنعه. فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أكفن فيها[(١)].

ولم يكن محمد ﷺ وهو يتصف بالكرم والسخاء ينتظر من الناس الاعتراف بالإحسان ورد الجميل، بل كان سخيًا كريمًا رغم ما عاناه من جهلة الأعراب وجفاتهم، فعن محمد بن جبير قال: أخبرني جبير بن مطعم أنه بينا هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقبلاً من حنين، علقت رسول الله ﷺ الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرةٍ فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العضاه نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا»[(٢)].

وكرم محمد ﷺ لم يكن قاصرًا على أصحابه القريبين منه، أو على من يرجو منهم رد الجميل، بل عم كرمه الآخرين، حتى شهد له بذلك من كانوا أعداءً له.

فحين دخل محمد ﷺ مكة، عفا عن أهلها جميعًا رغم ما فعلوه من عداوة له وإيذاء، إلا ستة منهم كانت لهم سوابق من الأذى له وللمسلمين.

والذين بلغوا هذه المنزلة من العداوة له والإيذاء، سيكونون أقل إنصافًا في حقه، ويزداد الأمر بعد إهدار دمائهم، وكان من بين هؤلاء عكرمة بن أبي جهل – رضي الله عنه –.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢١).

فقد خرج عكرمة – رضي الله عنه – هاربًا من مكة، ثم ركب سفينة يريد البعد عن جزيرة العرب كلها، فأصابتهم في السفينة عاصفٌ، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئًا – وكان من عادة العرب أنهم يدعون آلهتهم في حال الرخاء، فإذا جاء وقت الشدة دعوا الله وحده، وأخلصوا له الدعاء – فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عليَّ عهدًا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا ﷺ حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفوًّا كريمًا فجاء فأسلم(١).

إن هذه الشهادة بالكرم والعفو من عكرمة لمحمد ﷺ وهو لا يزال في مرحلة العداوة، دليل آخر على أن كرم محمد ﷺ قد استفاض واشتهر، وأنه صار سمة وشعارًا يدركه ويعترف به حتى غير الموالين له، فعن المقداد قال: أقبلت أنا وصاحبان لي، وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد، فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله ﷺ فليس أحد منهم يقبلنا، فأتينا النبي ﷺ فانطلق بنا إلى أهله فإذا ثلاثة أعنزٍ، فقال النبي ﷺ: «احتلبوا هذا اللبن بيننا». قال: فكنا نحتلب فيشرب كل إنسانٍ منا نصيبه، ونرفع للنبي ﷺ نصيبه، قال: فيجيء من الليل فيسلم تسليمًا لا يوقظ نائمًا ويُسمع اليقظان. قال: ثم يأتي المسجد فيصلي ثم يأتي شرابه فيشرب. فأتاني الشيطان ذات ليلةٍ وقد شربت نصيبي، فقال: محمدٌ يأتي الأنصار فيتحفونه ويصيب عندهم ما به حاجةٌ إلى هذه الجرعة فأتيتها فشربتها، فلما أن وغلت في بطني، وعلمت أنه ليس إليها سبيلٌ قال: ندّمني الشيطان، فقال: ويحك ما صنعت أشربت شراب محمدٍ فيجيء فلا يجده فيدعو عليك فتهلك فتذهب دنياك وآخرتك،

---

(١) أخرجه النسائي (٤٠٦٧).

الألوكة
www.alukah.net

وعليّ شملةٌ إذا وضعتها على قدمي خرج رأسي وإذا وضعتها على رأسي خرج قدماي وجعل لا يجيئني النوم، وأما صاحباي فناما ولم يصنعا ما صنعت، قال فجاء النبي ﷺ فسلم كما كان يسلم، ثم أتى المسجد فصلى، ثم أتى شرابه فكشف عنه فلم يجد فيه شيئًا فرفع رأسه إلى السماء، فقلت: الآن يدعو عليّ فأهلك. فقال: «اللهم أطعم من أطعمني واسق من أسقاني»، قال: فعمدت إلى الشملة فشددتها عليّ وأخذت الشفرة فانطلقت إلى الأعنز أيها أسمن فأذبحها لرسول الله ﷺ فإذ هي حافلةٌ، وإذا هن حفلٌ كلهن فعمدت إلى إناءٍ لآل محمدٍ ﷺ ما كانوا يطمعون أن يحتلبوا فيه قال: فحلبت فيه حتى علته رغوةٌ فجئت إلى رسول الله ﷺ فقال: «أشربتم شرابكم الليلة؟» قال: قلت يا رسول الله! اشرب فشرب، ثم ناولني فقلت يا رسول الله اشرب، فشرب ثم ناولني، فلما عرفت أن النبي ﷺ قد روي، وأصبت دعوته ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض. قال: فقال النبي ﷺ: «إحدى سوآتك يا مقداد!». فقلت يا رسول الله كان من أمري كذا وكذا، وفعلت كذا فقال النبي ﷺ: «ما هذه إلا رحمة من الله، أفلا كنت آذنتني فنوقظ صاحبينا فيصيبان منها». قال: فقلت والذي بعثك بالحق ما أبالي إذا أصبتها وأصبتها معك من أصابها من الناس(١).

يوصي أصحابه بالكرم ﷺ:

والكرم عند محمد ﷺ لا يقف عند مجرد تحليه به وتخلقه به، بل يدعو أتباعه إلى ذلك، ويؤكد لهم هذا المعنى، ويخبر أنه سبب لمحبة الله – عز وجل –، فعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كريم يحب الكرم ومعالي

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٥).

الأخلاق، ويبغض سفسافها»[(١)].

وتعلو أهمية الكرم لدى محمد ﷺ فيربطه بالإيمان بالله واليوم الآخر، مما يجعله ليس أدبًا من الآداب الفاضلة أو خلقًا من الأخلاق الحسنة المحمودة فحسب، فعن أبي شريح العدوي قال: سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي ﷺ فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته. قال: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[(٢)].

والكرم كغيره من الخصال والسمات الحسنة التي قد يتصف بها الإنسان وهو يريد الثناء من الناس ومديحهم، ومن هنا يؤكد محمد ﷺ في توجيهه لأصحابه على أهمية أن يريد الإنسان بكرمه وإحسانه وجه الله وحده لا ثناء الناس.

ولهذا يبين ﷺ لأتباعه أن من ينفق لأجل أن يمدحه الناس ويثنون عليه بالكرم يعذب يوم القيامة ولا ينجيه ذلك، فيذكر أن من أول من يقضى عليه يوم القيامة: «ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»[(٣)].

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤٨).

(٢) أخرجه البخاري(٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

الألوكة
www.alukah.net

وهذا يقود المرء إلى الطمأنينة في عمله، وألا يتأثر كثيرًا بردود أفعال الآخرين.

كما أنه يقود إلى أن لا يجد الإنسان مِنَّة فيما ينفقه ويبذله، بل إن الله تعالى يؤكد في القرآن الكريم على أن من شرط الإنفاق المقبول أن يسلم من المِنَّةِ على المنفق عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

بل يجعل القرآن الكريم قول الإنسان للمعروف واعتذاره الجميل خيرًا من الإنفاق المصحوب بالمن والأذى، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة].

سابعًا: عدله ﷺ:

العدل قيمة ضرورية للسعادة، وقاعدة أساس، ومحور أساس في بناء استقامة المجتمعات، وضامن قوي لنهضتها واستقرارها وتقدمها.

ولقد أكد محمد ﷺ في رسالته على العدل بوصفه مفهومًا تطبيقيًا، وعمل على إرساء قواعده بين الناس حتى ارتبطت بها جميع مناحي ما جاء به من تشريعات ونظم، فلا يوجد نظام في الإسلام إلا وللعدل فيه مطلب، فهو مرتبط بنظام الإدارة والحكم، والقضاء، وأداء الشهادة، وكتابة العهود

والمواثيق، بل إنه مرتبط أيضًا بنظام الأسرة والتربية، والاقتصاد والاجتماع، والسلوك، والتفكير، يقول سبحانه في القرآن: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

يقول العالم الإسلامي ابن القيم تعليقًا على تلك الآيات: «إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسماوات، فإذا ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه».

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

فالعدل المأمور به هنا هو الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب والغنى والفقر، والقوة والضعف، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع، ويوجد بجوار العدل الإحسان، يلطف من حدة العدل الصارم الجازم، ويحسن إقامة العدل، ويدع الباب مفتوحًا لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثارًا لود القلوب، وشفاءً لغل الصدور، ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحًا، أو يكسب فضلًا[(١)].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

---

(١) في ظلال القرآن الكريم: (١٤/ ٢١٩٠).

الألوكة
www.alukah.net

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[المائدة: ٨].

فالأمة الإسلامية برؤية الرسالة المحمدية مكلفة بتحقيق العدل في الأرض، وأن تبني حياتها كلها على أصول العدل؛ حتى تستطيع أن تحيا حياةً حرةً كريمة، ويحظى كل فرد في ظلها بحريته، وينال جزاء سعيه، ويحصل على فائدة عمله وكدّه.

العدل في رؤية محمد ﷺ وتطبيقه:

لقد أمر محمد ﷺ بالعدل، وحث عليه، وتضمنته رسالة الإسلام التي أقامت بنيانه وأسسته أحسن تأسيس، فكان من أعظم مقاصدها إعطاء كل ذي حق حقه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، من غير تفرقة بين المستحقين، وقد عده قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح العباد والبلاد، وأن الله قد وضع العدل لتوزع به الأنصبة والحقوق، وتقدّر به الأعمال والأشخاص؛ إذ هو الميزان المستقيم، الذي لا تميل كفته، ولا يختل وزنه، كما عده من أهم دعائم السعادة التي ينشدها البشر في حياتهم، وهي أن يطمئنوا على حقوقهم وممتلكاتهم، وأن يستقر العدل فيما بينهم.

وأدرك محمد ﷺ أن العدل مشعر للناس بالاطمئنان والاستقرار، وحافز كبير لهم على الإقبال على العمل والإنتاج، فيترتب على ذلك: نماء العمران واتساعه، وكثرة الخيرات وزيادة الأموال والأرزاق، فأكد تنفيذه بصورة علمية في كل موطئ قدم في دولته الإسلامية الوليدة.

وقد رَغَّب محمد ﷺ في العدل، فقال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر أولهم فقال: «الإمام العادل»(١).

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن - عز وجل - وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»(٢).

مواقف من عدل محمد ﷺ :

عن عائشة قالت: إن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟.

فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حبُّ رسول الله ﷺ فأتى بها إلى رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟». فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله! فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله، فقال: «أما بعد، أيها الناس: إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، ثم أقسم محمد ﷺ أن ابنته فاطمة لو فعلت ذلك لاستحقت العقوبة»(٣).

إن القيم لا تتجزأ، والعدل الذي يرفع محمد ﷺ لواءه لا يمكنه أن يتعطل لأجل امرأة من عائلة غنية أو مشهورة، إنه ها هنا يعلن أن العدل

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٠٤)، ومسلم (١٦٨٨).

الألوكة
www.alukah.net

سيف مسلط على كل مرتكن على اسمه أو نسبه أو ماله أو قوته، ولن يحيف حتى مع ابنته.

وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال وهو على المنبر: أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنتُ رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنتُ رواحة عطيةً فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله! قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟». قال: لا. قال: «فاتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم». قال: فرجع فرد عطيته. وفي رواية: أن النبي ﷺ قال: «ألك ولد سواه؟». قال: نعم. قال: فأراه قال: «لا تشهدني على جور» وفي لفظ: «لا أشهد على جور» وفي لفظ: إني نحلت ابني هذا غلامًا، فقال: «أكل ولدك نحلته مثله؟». قال: لا. قال: «فأرجعه» وفي لفظ لمسلم: «أليس تريد منهم البر مثل ما تريد من ذا؟» قال: بلى. قال: «فأني لا أشهد»[1]. لقد أبى ﷺ أن يشهد وأمره بالعدل بين بنيه إقامة للعدل في الأسرة ومحافظة على كيانها.

ثامنًا: شجاعته ﷺ:

عاش محمد ﷺ في بيئة كانت الشجاعة فيها تمثل قيمة من القيم المهمة، وكان الرجال يمدحون بهذه الصفة ويفتخرون بها، بل كان الوصف بالجبن من أسوأ أوصاف الذم والمعيبة.

واتصف محمد ﷺ بالشجاعة، بل بلغ فيها الغاية حتى وصف من قبل أصحابه بأنه أشجع الناس.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس، ولقد فزع أهل المدينة فكان النبي ﷺ سبقهم على فرسٍ، وقال: «وجدناه بحرًا»(١).

وكذا وصفه بهذا الوصف صاحبه عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – فقال: ما رأيت أحدًا أنجد ولا أجود ولا أشجع، ولا أضوأ وأوضأ من رسول الله ﷺ(٢).

وقال لأصحابه متحدثًا عن نفسه: «.... ثم لا تجدونني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا»(٣).

ويصور لنا هذا الموقف تميز محمد ﷺ في شجاعته، وهو مصداق لما وصفه به أنس – رضي الله عنه – فعن علي – رضي الله عنه – قال: لقد رأيتنا يوم بدر، ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأسًا(٤).

ويبين لنا علي – رضي الله عنه – أن هذه سمة محمد ﷺ في مواجهته للعدو، فيقول: كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه(٥).

ومع موقف آخر في سيرته ﷺ تتجلى فيه الشجاعة، وذلك في غزوة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٠).

(٢) أخرجه الدارمي (٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٢١).

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٦).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٤٩).

حنين، والتي كانت من أواخر غزواته، حيث انكشف المسلمون، وولى كثير منهم مدبرين، طفق محمد ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، ثم قال: «أي عباس، ناد أصحاب السَّمُرة» فقال عباس: - وكان رجلاً صيتًا - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟

قال: فو الله لكأن عَطفَتهم حين سمعوا صوتي عَطفَة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار. فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال ﷺ: «الآن حمي الوطيس»[(١)].

شجاعة وليست تهورًا:

كثير ممن يشتهرون بالشجاعة لا يسلمون من التهور والاندفاع، وتدفعهم ثقتهم بأنفسهم إلى المبالغة في التعامل مع المواقف؛ لحرصهم على أن يثني عليهم الناس ويشيدوا بهم مما قد يدفعهم إلى التجاوز والمجازفة.

أما محمد ﷺ فرغم شجاعته إلا أنه كان واقعيًا، فهو يأخذ بأساليب الاحتياط والسلامة البشرية، نرى ذلك في حادثة الهجرة من مكة إلى المدينة، فحين همَّ قومه بقتله، وتآمروا على ذلك، خرج ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجرًا، وهناك بنى دولته وكيانه.

وتروي لنا كتب السيرة تفاصيل دقيقة عن حادثة الهجرة، وكيف أنه أخذ بأسباب السلامة والنجاة، وتمثل ذلك فيما يلي:

- أنه جاء على صاحبه أبي بكر - رضي الله عنه - في وقت الظهيرة، وجاء متقنعًا.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٥).

• حين جلس مع أبي بكر، وأراد تحديثه بأمر الهجرة، كانت عند أبي بكر ابنتاه الصغيرتان، فأمر بإخراجهما: تكتمًا على خبر هجرته.

• لم يبت تلك الليلة في فراشه ﷺ.

• خرج هو وصاحبه أبو بكر واختبأ في الغار ثلاثة أيام حتى يهدأ عنهما الطلب.

• كان عبد الله بن أبي بكر يبيت في مكة، ثم يأتي لهما بالأخبار المستجدة.

• كان راعي الغنم عامر بن فهيرة يأتي بالغنم فتمحو آثار عبد الله بن أبي بكر، ويشربان من حليبهما.

• خرج من الغار بعد ثلاثة أيام، واختار طريقًا آخر إلى المدينة غير الطريق التي يسلكها الناس.

• لم يخبر أصحابه في مكة عن هجرته وتفاصيلها.

كما نلحظ ذلك أيضًا في عدد من غزواته، فقد كان يأخذ استعداده وأهبته، فتروي لنا كتب السيرة أنه ﷺ كان يعتني بحماية نفسه في المعارك، فعن السائب بن يزيد عن رجل قد سماه أن رسول الله ﷺ ظاهر يوم أُحد بين درعين أو لبس درعين[(١)].

وفي إحدى معارك المسلمين مع الروم حين أخذ قيادة جيش المسلمين خالد بن الوليد - رضي الله عنه -، وكان جيش المسلمين أقل قدرة على مقاومة جيش الروم، وعندها انحاز خالد - رضي الله عنه - بالجيش إلى المدينة، وترك

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٠)، وأحمد (١٥٢٩٥).

الألوكة
www.alukah.net

مواجهة الروم، فأثنى عليه ﷺ، وأخبر أن الله فتح على يديه.

وهو تأييد للمسلك الواقعي الذي لا يندفع وراء شعارات الشجاعة فحسب، ويتجاهل التحديات التي تواجه الجيش.

الشجاعة الأدبية:

لم تكن شجاعة محمد ﷺ قاصرة على ميدان الحرب والشجاعة البدنية، بل كان يملك شجاعة أدبية كانت مطلبًا ضروريًا لمهمته في رسالته لقومه.

وتمثلت شجاعته الأدبية في جرأته على قول الحق، ومواجهة تكذيب قومه وإعراضهم.

حين بدأ محمد ﷺ دعوته لقومه، وكان في حماية عمه أبي طالب ورعايته، فوالده توفي وهو حمل في بطن أمه، وتوفيت والدته وهو لا زال صغيرًا .. شعر قومه بالانزعاج مما يدعوهم إليهم وساوموا عمه أبا طالب، وسألوه أن يأخذ على يده ويمنعه.

التقى أبو طالب بمحمد ﷺ مبديًا له ما قاله قومه، فماذا كان رد محمد ﷺ؟

عن عقيل بن أبي طالب، قال: جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا، فانهه عنا، فقال: يا عقيل انطلق فأتني بمحمد. فانطلقت إليه فاستخرجته من حفش أو كبس - يقول: بيت صغير - ، فلما أتاهم قال أبو طالب: إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم فانته عن أذاهم. فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء ، فقال: «أترون هذه الشمس؟» قالوا: نعم، قال: «فما أنا بأقدر على

أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة». فقال أبو طالب: والله ما كذَّبنا ابن أخي قط فارجعوا[1].

كما تتمثل الشجاعة الأدبية لدى محمد ﷺ في أمر مهم، وهو أنه قد عاتبه ربه في القرآن الكريم في أمور اجتهد فيها فلم يُصب فكان يتلو هذه الآيات على الناس، ولم يكتم شيئًا منها.

ومن ذلك سورة عبس، والتي جاء فيها: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [عبس].

وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ويروي صاحبه أنس بن مالك - رضي الله عنه - قصة نزول هذه الآيات فيقول: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتق الله وامسك عليك زوجك». قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه[2].

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ» عن أبي كريب، عن يونس.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، ومسلم (١٧٧).

الألوكة
www.alukah.net

ومن شجاعة محمد ﷺ الأدبية أنه حين يُسأل عن شيء لا يدري عنه فإنه يقول: «لا أدري». وهو أمر له شأنه حين يصدر من رجل بمثل منزلة محمد ﷺ.

فقد سئل ﷺ عن الروح فسكت فلم يقل شيئًا حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومن ذلك أنه جاءه رجل فسأله أي البقاع خير، فقال: «لا أدري».

ومنها ما رواه جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: مرضت فجاءني رسول الله ﷺ يعودني وأبو بكر وهما ماشيان، فأتاني وقد أغمي عليَّ، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم صب وضوءه عليَّ فأفقت فقلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ كيف أصنع في مالي؟ قال: فما أجابني بشيء حتى نزلت آية الميراث[١].

تاسعًا: حلمه ﷺ:

كان محمد ﷺ يواجه من أعدائه بأساليب موغلة في الاستفزاز والأذى قد تُخرج الإنسان عن طوره، لكنه مع ذلك كان مثالاً للحلم والصبر، فعن عائشة - رضي الله عنها - قال: استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك. فقلت: بل عليكم السام واللعنة. فقال:«يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله». قلت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «قلت وعليكم»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٠٩)، ومسلم (١٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٨)، ومسلم (٦٣٩٥).

إن هؤلاء كانوا يستخفون بلفظ السلام الذي هو دين الإسلام، وكانوا يجعلون التحية شتيمة ولعنة، ويسوقونها بلفظ الاستفزاز، بل ينكر على عائشة - رضي الله عنها - مقولتها، ويدعوها إلى مزيد من الرفق والإحسان، فتظن أنه لم يسمع تلك المقولة فيجيبها بأنه قد سمع.

ولم يكن حلم محمد ﷺ مقتصرًا على أعدائه، بل يسع أتباعه من باب أولى، وهم جمهور واسع، وفيهم من العامة والأعراب من يكون طبعه الجفاء والغلظة فيتصرف مع رسول الله ﷺ بما لا يليق، لكنه كان يحلم ويصبر عما يبدر منهم، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ فهم به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً». ثم قال: «أعطوه سنًّا مثل سِنه». قالوا: يا رسول الله، إلا أمثل من سنه فقال: «أعطوه، فإن من خيركم أحسنكم قضاء»[(١)].

لقد جمع محمد ﷺ في هذا الموقف بين الحلم والصبر على جفاء الرجل وغلظته، وبين الإحسان، فأعطاه أكثر من حقه.

والجفاء من بعض الأتباع قد لا يقف عند أولئك الذين يطالبون بحق ثابت لهم، بل إنك تجد من يسألون ويستكثرون قد يتعاملون معه بجفاء وغلظة، ومع ذلك يتسع صدره للحلم عليهم، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بردُ نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذةً شديدةً حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر

(١) أخرجه البخاري (٢٣٠٥)، ومسلم (١٦٠١).

الألوكة
www.alukah.net

لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء(١).

لقد جمع هذا الرجل بين الإيذاء البدني والنفسي، فهو حين يسأله يقول له: «مر لي من مال الله». أي: أنك حين تعطيني فلست بصاحب فضل ولا معروف، فأنت إنما تعطي من مال الله.

وحلم محمد ﷺ يسع أولئك الذين يؤذونه ويمتد الأذى منهم إلى الأذى البدني، فيذكر ﷺ نفسه بما كان يصيب الأنبياء من قبله مما يزيده حلمًا.

عن عبد الله قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء ضربة قومه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون(٢).

يغضب لكنه يحلم ﷺ:

والحلم عند محمد ﷺ ليس مصدره أنه لا يغضب مطلقًا، فهو بشر كسائر البشر يغضب حين يكون الموقف يثير الغضب، لكن حلمه كان يحجزه عن أن يستجيب لداعي الغضب، فعن عبد الله – رضي الله عنه – قال: لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب، فآثرهم يومئذ في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله. فقلت: والله لأخبرن النبي ﷺ فأتيته فأخبرته. فقال: «فمن يعدل

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٠٥)، ومسلم (١٦٠١).

إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[(١)].

وقد ورد في بعض روايات هذا الخبر: فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[(٢)].

ومن هنا يؤكد محمد ﷺ على أتباعه هذا المعنى، ويؤكد عليهم أن قيمة الإنسان وقوته تتمثل في انتصاره على الاستجابة لدوافع الغضب، ويبين حال ذلك يستحق الثناء والإشادة فيقول سائلاً أصحابه: «ما الصرعة؟».

قالوا: الصريع. قال ﷺ: «الصرعة كل الصرعة، الصرعة كل الصرعة، الصرعة كل الصرعة، الرجل الذي يغضب فيشتد غضبه، ويحمر وجهه، ويقشعر شعره، فيصرعه غضبه»[(٣)].

وعن أنس - رضي الله عنه - أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إلى آخر الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح».

فبلغ ذلك اليهود فقالوا ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا فلا نجامعهن، فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٦٠٥).

الألوكة
www.alukah.net

وجد عليهما فخرجا فاستقبلهما هديه من لبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما[١].

حلمه مع أهل بيته ﷺ:

ومما يتجلى فيه الحلم لدى محمد ﷺ: تعامله مع أهل بيته، فهو بشر كسائر الناس يعيش حياتهم ومشكلاتهم، ويتعامل مع زوجاته وهن بشر قد يبدو من غيرهن من النساء، ومع ذلك كان حلمه يسع ذلك كله ﷺ.

وتروي لنا إحداهن وهي عائشة - رضي الله عنها - نموذجًا من حلمه في تعامله مع أهل بيته، فعن رجل من بني سواءة قال سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: أما تقرأ القرآن ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

قال قلت: حدثيني عن ذاك. قالت: «صنعت له طعامًا وصنعت له حفصة طعامًا فقلت لجاريتي اذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعته قبل فاطرحي الطعام». قالت: «فجاءت بالطعام قالت فألقته الجارية فوقعت القصعة فانكسرت وكان نطعًا». قالت: فجمعه رسول الله ﷺ وقال: «اقتصوا أو اقتصي ظرفًا مكان ظرفك فما قال شيئًا»[٢].

عاشرًا: وفاؤه ﷺ بالعهد:

كان محمد ﷺ يفي بعهده، ولم يُعرف عنه في حياته أنه نقض عهدًا قطعه على نفسه.

وقد أكد القرآن على رعاية العهود التي يبرمها المسلمون مع المخالفين

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٧٩)، ومسلم (٢٣٣٣).

هم، فجاء في سورة التوبة قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤].

وذم القرآن الذين ينقضون العهود مع الآخرين: ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٦].

وحتى حين يصل الأمر بمحمد ﷺ أن يخاف الخيانة من قوم، وتبدر له منهم مؤشرات على ذلك، فهذا لا يبرر له نقض العهد، ويوجب عليه أن يشعرهم بذلك، كما جاء في سورة الأنفال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[الأنفال: ٥٨].

والوفاء بالعهد والالتزامات لدى محمد ﷺ تبدأ من الالتزامات المحدودة المتعلقة بالتعامل مع الآخرين، كما تبدو في هذا الموقف:

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ابتاع رسول الله ﷺ من رجل من الأعراب جزورًا، أو جزائر بوسق من تمر الذخيرة - وتمر الذخيرة: العجوة - فرجع رسول الله ﷺ إلى بيته فالتمس له التمر فلم يجده، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال له: «يا عبد الله، إنا قد ابتعنا منك جزورًا - أو جزائر - بوسق من تمر الذخيرة، فالتمسناه فلم نجده».

فقال الأعرابي: واغدراه!

قال: فنهمه الناس، وقالوا: قاتلك الله، أَتَغْدِرُ رسول الله ﷺ؟!

قالت: فقال رسول الله ﷺ: «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً».

ثم عاد له رسول الله ﷺ فقال: «يا عبد الله، إنا ابتعنا منك جزائرك،

الألوكة
www.alukah.net

ونحن نظن أن عندنا ما سمينا لك فالتمسناه فلم نجده».

فقال الأعرابي: واغدراه! فنهنهه الناس، وقالوا: قاتلك الله، أَتَغْدِرُ رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً».

فرد ذلك رسول الله ﷺ مرتين أو ثلاثًا فلما رآه لا يفقه عنه، قال لرجل من أصحابه: «اذهب إلى خولة بنت حكيم بن أمية، فقل لها: إن كان عندك وسق من تمر الذخيرة فأسلفينا حتى نؤديه إليك إن شاء الله».

فذهب إليها الرجل، ثم رجع الرجل قال: قالت: نعم هو عندي يا رسول الله فابعث إليَّ من يقبضه. فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به فأوفه الذي له».

قال: فذهب به فأوفاه الذي له، فمر الأعرابي برسول الله ﷺ، وهو جالس في أصحابه فقال: «جزاك الله خيرًا، فقد أوفيت وأطبت».

فقال رسول الله ﷺ: «أولئك خيار عباد الله [يوم القيامة] عند الله الموفون المطيبون»[(١)].

لقد راعى محمد ﷺ طبيعة هذا الرجل، وتفهم إصراره على حقه، وأن هذا الإصرار قد قاده إلى قدر من الجفاء والغلظة في التعامل مع محمد ﷺ، فأوفاه، واحتمل جفاءه، ولما رأى أنه لم يع عدم قدرة محمد ﷺ سعى إلى حل الأمر والمشكلة.

ويلتزم محمد ﷺ الوفاء مع المخالفين حتى وهو يتعامل مع أتباعه

---

(١) رواه الإمام أحمد، والبزار، وإسناد أحمد صحيح.

والمستجيبين له: فلا يقبل منهم أن يخلّ بعهد التزم به، عن أبي رافع قال: بعثتني قريش إلى رسول الله ﷺ، فلما رأيت رسول الله ﷺ ألقي في قلبي الإسلام. فقلت: يا رسول الله! إني والله لا أرجع إليهم أبدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس الْبُرُدَ، ولكن ارْجِعْ، فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع».

قال: فذهبت ثم أتيت النبي ﷺ فأسلمت[(١)].

كان بإمكان محمد ﷺ أن يقبل بقاء هذا الرجل لديه، وهو لو فعل ذلك لم ينقض عهدًا، فالرجل هو الذي اختار بنفسه هذا القرار، لكنه لم يفعل ذلك بل تركه ليعود عما أراد من تلقاء نفسه بعد انتهاء مهمته.

وحين أتى محمد ﷺ إلى مكة يريد العمرة، صدته قريش ودار بينه وبينهم مفاوضات لأجل الصلح، وقال حينها (والرواية في البخاري): «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» وكان مما شرطوه عليه: أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا.

فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليَّ.

فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعدُ».

قال: فوالله إذًا لن أصالحك على شيء أبدًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٤٥).

الألوكة
www.alukah.net

قال النبي ﷺ: «فأجزه لي».

قال: ما أنا بمجيزه لك.

قال: «بلى فأفعل».

قال: ما أنا بفاعل.

فرده إليهم محمد ﷺ.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا.

فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا.

فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت.

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه.

فأمكنه منه فضربه حتى برد.

وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو.

فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرًا».

فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي وإني لمقتول.

فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم. ومع ذلك لم يستقبله محمد ﷺ؛ وفاءً لهم بما اشترطوا عليه في صلح الحديبية.

وحتى يكون محمد ﷺ في موطن القتال، ويحتاج إلى الرجال المقاتلين، فإنه لا يفعل ذلك على حساب العهود التي التزمها مع عدوه، يروي لنا أحد أصحاب محمد ﷺ هذا الموقف، وهو حذيفة بن اليمان، فيقول: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبو حسيل، قال: فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرِفَنَّ على المدينة. ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: «انصرفا نفِي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم».

شهادة أعدائه بوفائه ﷺ:

دلائل وفاء محمد ﷺ بالعهود لا تنتهي عند المواقف والأحداث التي كان يفي فيها بما التزمه، بل قد شهد له أعداؤه بأنه يفي بالعهود ولا يغدر، فحين لقي هرقل أبا سفيان - وكان أبو سفيان لازال على عداوته لمحمد ﷺ - سأل هرقل أبا سفيان عن محمد ﷺ عددًا من الأسئلة، كان مما سأله فيه قوله: فهل يغدر؟

قال أبو سفيان: قلت لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: «ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه، - أي: لم أتمكن من كلمة تعطيه صورة سيئة عن محمد ﷺ غير هذه الكلمة -».

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة الثالثة

النبي ﷺ بين الثبات على الحق والرحمة

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة الثالثة

النبي ﷺ بين الثبات على الحق والرحمة [١]

المحور الأول: دار الأرقم بن أبي الأرقم

- تعريف بدار الأرقم بن أبي الأرقم:

دار اجتمع فيها المسلمون لمدة ثلاث سنوات من السنة الثالثة إلى السنة السادسة من بعثة النبي ﷺ، بعد أن اشتد إيذاء الكفار وتأثرت روح المسلمين المعنوية من شدة ما لا قوة من تعذيب واضطهاد.

- المغزى من الاجتماع بدار الأرقم بن أبي الأرقم:

- ثلة من الأولين جمعهم النبي ﷺ لتزكية إيمانهم بالله - عز وجل - وحثهم على التشبث بالصبر عند الإيذاء.

- صعوبة كشف قريش لاجتماعات المسلمين، حيث إن الأرقم بن الأرقم لم يتجاوز ربيعه السابع عشر.

- توسط المنزل لقبيلة الأرقم بن الأرقم مما يصرف قريش عن مهاجمته إن هي اكتشفته.

---

(١) من كتاب: على خطى الحبيب (الجزء الثاني) سلسلة في ظلال السيرة النبوية- عمرو خالد- أريج للنشر والتوزيع- ط الأولى ١٤٢٧هـ. بتصرف.

- سبل قريش التفاوضية:

عن عقيل بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: جاءت قريشٌ إلى أبي طالبٍ فقالوا أرأيتَ أحمدَ يُؤذينا في نادِينا وفي مسجدِنا فانهَهُ عن أذَانا فقال يا عَقيلُ ائتِني بمحمدٍ فذهبتُ فأتيتُه به فقال يا ابنَ أخي إنَّ بني عمِّك زعموا أنك تُؤذِيهم في ناديهم وفي مسجدِهم فانتَهِ عن ذلك قال فلحَظ رسولُ الله ﷺ ببصرِه وفي روايةٍ فحلقَ رسولُ الله ﷺ ببصرِه فقال ما أنا بأقدرُ على أن أدعَ لكم ذلك على أن تُشعلوا لي منها شُعلةً يعني الشَّمسَ قال فقال أبو طالبٍ ما كذب ابنُ أخي فارجِعوا. حسنه الألباني.

- درس كبير في آداب الحوار: اسمع لغيرك يسمع لك.

وقد يتساءل أحد فيقول: لماذا لم يقبل النبي ﷺ العروض ثم يستفيد منها في دعوته؟

لأن الغاية لا تبرر الوسيلة، وسياسة النبي ﷺ نظيفة.

- ثم ساومت قريش النبي ﷺ على أن يعبدوا الله يومًا ويعبدُ آلهتهم يومًا فأنزل تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

- ثم طلبت قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد الفقراء فيؤمنوا به فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

- ثم سألت قريش رسول الله ﷺ معجزات خارقة فأبى وقال: «ما أنا بالذي يسأل ربه ذلك» فأنزل تعالى قوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء].

- فشل قريش:

وبعد كل المحاولات فشلت قريش في نهجها التفاوضي كما فشل من قبل ذلك إيذائها للمسلمين.

* * * *

المحور الثاني: هجرة المسلمين إلى الحبشة

- الأوضاع العامة وأحوال الرسول ﷺ وأصحابه:

عرفت هذه المرحلة معاناة الرسول ﷺ وأصحابه، فقد كان كفار قريش يلزمون رسول الله ﷺ حتى إذا أراد أن يحدث أحدًا بما جاء به من الحق، اعترضوا طريقة ومنعوه من تبليغ الرسالة، أما الصحابة، فكانوا يعانون يوميًا من الإيذاء الجسدي الشديد.

والغريب في الأمر أن سادة قريش مثل الأخنس، وأبي جهل - وهم الأكثر كفرًا وتجبرًا - عند فراغهم من تعذيب المسلمين كانوا يجتمعون عند بيته ﷺ في جوف الليل، دون موعد أو معرفة أحدهم بالآخر لعلمهم أنه يقوم الليل، ويتلو القرآن جهرًا فكانت قلوبهم وسمعهم تتأثر من ذكر الله، وكانوا يتعاهدون ألا يرجعوا فيرجعون الغد.

- الكفار تأثروا بعظمة القرآن، فأين نحن من خشوع قلوبنا وجوارحنا له؟

وتستمر الأوضاع على حالها، بل وتزيد شدة وتعقيدًا؛ إذ يئس الصحابة من الوضع واشتكوا لرسول الله ﷺ فكان الحل الحكيم هو الهجرة.

- الهجرة إلى الحبشة:

نتيجة للأوضاع القاسية التي عاشها المسلمون، أمر الرسول ﷺ الصحابة بالهجرة فرارًا بدينهم من الظلم والطغيان فكانت أول هجرة في تاريخ الإسلام إلى الحبشة.

لأن قريشًا هي سيدة القبائل العربية، فلن يختلف الوضع في غيرها من القبائل، بخلاف الحبشة، ففيها حاكم لا يُظلم عنده أحد.

وهاجر فيمن هاجر: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف وأم حبيبة بنت أبي سفيان وغيرهم، وكان مجموع من هاجر مائة مهاجر، وهذه النوعية من المهاجرين أراد بها ﷺ بعث رسائل إلى:

- حاكم الحبشة النجاشي: أنه ﷺ لم يرسل له فقراء بل أرسل مهاجرين من سادة قريش.

- قريش: إيذاؤها لن يمنع من تبليغ الرسالة.

- الفقراء الذين هاجروا: أنه ﷺ لم يتخل عنهم فمن المهاجرين ابنته رقية وابن عمه جعفر.

«والواقع أن المهاجرين مكثوا في الحبشة حوالي خمس عشرة سنة متتالية، ولم يعودوا إلا بعد أن اطمأنُّوا إلى زوال خطر استئصال الدعوة»[(١)]، حتى إذا وقعت المدينة يكون للمسلمين منفذ آخر، وفي أثناء أجواء استعداد الصحابة للرحيل نزلت سورة مريم والكهف.

- سورة مريم تُعرف بالدين المسيحي، فكان لابد من ذلك حتى يمثل الإسلام أحسن تمثيل في البلاد المسيحية الحبشة.

- سورة الكهف فهي تتحدث عن هجرة أهل الكهف، ذي القرنين، وموسى الذين فروا بدينهم من الظلم ومن أجل الرسالة حتى يبين الله تعالى للمهاجرين أنهم ليسوا أول من يهاجر من أجل نصر الرسالة.

(١) ما بين الشرطتين من كلام د. راغب السرجاني - حفظه الله - .

الألوكة
www.alukah.net

وهاجر المسلمون إلى أرض الحبشة تاركين وطنهم ومنازلهم وأموالهم، وتجارتهم في سبيل الرسالة، فكانت ضربة قاسية لكفار قريش الذين لم يستسلموا، بل بعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة محملين بالهدايا إلى النجاشي حاكم الحبشة يسألونه عودة أصحاب محمد بحجة أنهم فتنوا في القبيلة وفروا منها، فأعرض الملك، أن يسلمهم حتى يسمع منهم فاستدعاهم وسألهم.

النجاشي: ما الذي جاء بكم؟

فتقدم جعفر بن أبي طالب للرد بصفته ابن عم الحبيب ﷺ وجده عبدالمطلب الذي وقف أمام أبرهة.

النجاشي: أعرض عليَّ الإسلام.

جعفر بن أبي طالب: «أيها الملك كنا قومًا نعيش في الجاهلية، يأكل القوي منا الضعيف، نسيء الجوار، ونقطع الأرحام، فجاءنا رجل نعرف نسبه وصدقه وخلقه وأمانته، فأمرنا بالإسلام وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الأرحام وحسن الجوار، فعدى علينا قومه فظلمونا وقهرونا وعذبونا، فقال لنا نبينا: اخرجوا إلى أرض الحبشة فإنها أرض صدق، وإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، فخرجنا إلى أرضك واخترناك على من سواك».

- لنحلل مقالة جعفر:

الفقرة الأولى: «أيها الملك كنا قومًا نعيش في الجاهلية، يأكل القوي منا الضعيف، نسيء الجوار ونقطع الأرحام» أول فقرة عدد له مساوئ الجاهلية، واختار المساوئ التي يتفق عليها كل البشر.

الفقرة الثانية: «فجاءنا رجل نعرف نسبه وصدقه، وخلقه وأمانته» فعرفه بكلمات موجزة بالحبيب ﷺ.

الفقرة الثالثة: «أمرنا بالإسلام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الأرحام وحسن الجوار» فعدد له جعفر كل الأشياء الحسنة التي يتفق عليها جميع الناس.

الفقرة الرابعة: «فعدى علينا قومنا فظلمونا وقهرونا وعذبونا».

الفقرة الأخيرة: «فقال لنا نبينا اخرجوا إلى أرض الحبشة فإنها أرض صدق، وإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، فخرجنا إلى أرضك واخترناك على من سواك» رد فيه صون لكرامة المسلم وعزته، إنهم اختاروه عمن سواه وفي الوقت نفسه فيه مجاملة للنجاشي.

واسترسل النجاشي قائلاً: هل لك مما جاء به نبيك من شيء؟

جعفر: نعم القرآن.

النجاشي: اقرأ لنا منه شيئًا.

فقرأ عليه جعفر بذكائه أول سورة مريم، فلما انتهى رد النجاشي: «والله لا أسلمكم أبدًا، ابقوا في بلادي حيث شئتم فوالله لا يظلمنكم أحد وأنا على هذه الأرض» وتوجه إلى عمرو بن العاص قائلاً: «أنا لا أقبل رشوة في مُلك ملكني الله إياه».

فعاش المسلمون في أرض الحبشة وهم يعملون غير متكلين على غيرهم، وتخصصوا في المصنوعات الجلدية التي يحبها أهل الحبشة فأحبوهم.

في هذه الفي أثناء تسري إشاعة أن قريشًا أسلمت، فعاد رُبعهم ليعذبوا عذابًا شديدًا.. وحدث ذلك أن ذات مرة وقف الحبيب ﷺ أمام الكعبة

وبصوت عال قرأ سورة النجم فسكت الجميع إلى أن وقف إلى آخر السورة: ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾ [النجم: ٦٢]، فسجد الجميع من تأثرهم بالقرآن فقالوا: إن قريشًا أسلمت وعندما سألوا قريشًا لماذا سجدتم؟ قالت إن محمدًا تكلم عن آلهتنا وقال اسجدوا لها، فعاد ممن عاد عثمان بن مظعون إلى مكة وكان بجوار أبي الوليد، فكان يرى الصحابة يضربون ويهانون وهو بجوار أبي الوليد، فذهب إلى أبي الوليد، وقال له وجدت جوارًا أفضل وأعظم من جوارك! قال: ومن هو؟ قال: جوار الله، فذهب إلى الكعبة وكان هناك شاعر يشعر فقاطعه مرتين فقال الشاعر لقريش: أتكذبون الشعار؟ فقالوا: دعه فإنه بجوار أبي الوليد، قال: لقد تركت جواره فضرب وضرب وضرب، وقال: الحمد لله الذي أوذيت كما أوذي أصحاب رسول الله، فضحك أبو الوليد، وقال: ما هذا الجوار انظر إلى عينيك، فقال له عثمان: الله إن عيني الأخرى تشتاق لما فُعِلَ بأختها فقال الحبيب ﷺ: أين عثمان فمسح الحبيب ﷺ في عينيه فبرئتا.

وأما النجاشي فقد أسلم وصلى عليه ﷺ صلاة الغائب حين توفي وقال لهم: «قوموا وصلوا مات أصحمة عبد يحبه الله ورسوله».

- الدروس المستفادة:

١- التخطيط الهادف.

٢- النصيحة.

٣- عظمة القرآن.

٤- لا يدوم مال ولا ملك، بل العمل الصالح.

٥- جوار الله أفضل وأعظم من جوار أي شخص.

المحور الثالث: حصار المسلمين في شعب بني هاشم

بعد إصدار رسول الله ﷺ لأصحابه أمر الهجرة إلى الحبشة، ونتيجة لفشل قريش في استعادتهم من النجاشي، زاد كفر ومقت المشركين لرسول الله ﷺ، فلم يستسلموا فكان حلمهم الوحيد هو قتل رسول الله ﷺ، فكثرت اجتماعات كفار قريش في دار الندوة لمناقشة خطتهم، وذلك دون استدعاء عم رسول الله ﷺ أبي طالب الذي أحس بحركة قريش فعلم بما ينوون فعله.

أسرع أبو طالب يجمع شباب القبيلة، فأمر كل واحد بأخذ حديدة والجلوس وراء كل رجل من كبار قريش في مجمعهم، فقال أبو طالب لقريش: يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا فنادى الشباب أن يخرجوا الحديدة وقال: والله لو قُتِلَ محمد لنقاتلكم فسكتت قريش وانكسرت.

وكانت خطة عم الحبيب ﷺ تجميع القبائل لحماية رسول الله ﷺ وجعله بينهم، ومن القبيلة من هم مسلمون وغير مسلمين قبلوا حمايته، فاستغلت قريش ذلك الحصن وأعلنت حربًا جديدة فقرروا محاصرة المسلمين اقتصاديًا واجتماعيًا في شعب أبي طالب:

- اقتصاديًا: لا نبيع ولا يباع لهم.
- اجتماعيًا: لا نتزوج منهم ولا نزوجهم.

فكتبت قريش صحيفة بذلك وعلقتها في جوف الكعبة، فكان الحصار على المسلمين وغير المسلمين.

وعانى شعب أبي طالب طيلة فترة الحصار من الجوع الشديد، فمن فرط قلة الطعام كانوا يأكلون أوراق الشجر حتى أصبحت مخرجاتهم

كمخرجات البعير، وتقيحت أفواههم وتألم أبناؤهم، وكان هدف الحصار إما تسليم محمد ﷺ أو تنازله عن فكرته، لكن لم يتنازل أحد حتى الكفار حتى أنه من كثرة الجوع يقول سعد بن أبي وقاص: «في ليلة ذهبت أتبول وإذا بي أسمع طقطقة بولي ففرحت، فبعد أن انتهيت تحسست فإذا هي جلدة، تركتها في النار لترطب وأكلتها فإذا هي قاسية فشربت معها ماء».

فيا لها من معاناة، بل والأكثر من ذلك ثبات المشركين من بني هاشم حمايةً لرسول الله ﷺ.

وتتجمد الدعوة طيلة الحصار الذي دام ثلاث سنوات، ويتوقف عدد المسلمين غير أن ذلك لم يزدهم إلا ثباتًا وتمسكًا بالرسالة.

ومع انقطاع الطعام والشراب على شعب أبي طالب بما فيهم رسول الله ﷺ؛ كان الكفار يهربون لهم ما يسد رمقهم، ومنهم عمر العامري الذي كان، رغم أنه على غير دينهم، يضع الطعام على البعير ويضربها لتوصله للقبيلة، فعلمت قريش بأمره، وقالت له: أتبعت دين محمد؟ قال: لا، فقالت قريش: ولم تفعل ذلك؟ فقال عمر: من أجل صلة الرحم، فقالت قريش: لا تفعل ذلك، ومرت ثلاثة أيام فعاد وأمسكت به قريش مرة أخرى، فأقسم ثم عاد لفعلته فضرب ثم عاد فضرب حتى جاء أبو سفيان، وقال: «دعوه رجل يصل رحمه لا تفسدوا كل أخلاقنا؟».

وتعب الصحابة: ألف وثمانون يومًا وهم محاصرون دون أمل في مكة، كانت قريش تفك عنهم الحصار في موسم الحج حتى لا يفتضح أمرهم بين القبائل.

- ثلاث سنوات:

ثلاث سنوات.. هي استمرارية وترسيخ للرسالة، فالحق غالٍ والثبات ضرورة لتجاوز المحن.

هؤلاء الذين ثبتوا في الشعب هم الذين ثبتوا في غزوة حنين فالفكرة ثبتت بالعقل والصبر.

ويئست قريش أمام هذا الثبات العظيم والتمسك القوي بالرسالة، فقرر شباب منهم تمزيق الصحيفة، فنزل جبريل على الحبيب ﷺ ليخبره أن الله أرسل الأرضة على الصحيفة فأكلتها إلا «باسمك اللهم» فذهب علي ابن أبي طالب ليخبر قريش ما أخبره رسول الله ﷺ فكانت آية من آيات الله التي شهدها المشركون واسترسلوا في الكفر رغم ذلك.

وانتهى الحصار الذي دام ثلاث سنوات، وأنهك الصحابة وغيرهم بما فيهم عم الرسول ﷺ وأم المؤمنين السيدة خديجة - رضي الله عنها - اللذان لم يستطيعا مقاومة المرض لشدته، وكبر سنهما.

فمات أبو طالب الذي كان عضدًا وحصنًا لرسول الله ﷺ احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكفار والسفهاء، وفي السنة نفسها توفيت السيدة خديجة - رضي الله عنها - التي كانت وزير صدق لرسول الله ﷺ على الإسلام، آزرته على إبلاغ الرسالة وواسته بنفسها ومالها، وقاسمته الأذى والهموم، حيث إن الحبيب ﷺ قال: «آمنت بي حين كفر بي الناس وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني بمالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرم ولد غيرها».

واشتد البلاء والحزن على الحبيب ﷺ بعد وفاة عمه وزوجته، ولا يصح تسمية هذا العام بعام الحزن، ولم تثبت عن الرسول ﷺ.

- الدروس المستفادة:

١ - العبودية الشديدة لله تعالى.

٢ - الإخلاص وسيلة لتحقيق النهضة من أجل نصرة دين الله.

٣- الدعاء بالإعانة على الثبات.

٤ - الثبات على الحق.

المحور الرابع: رحلة النبي ﷺ إلى الطائف

- وفاة أبي طالب والسيدة خديجة:

في السنة العاشرة للدعوة وبعد الحصار وكل أنواع الأذى الذي لحق بالمسلمين في مكة، توفي أبو طالب عم الحبيب ﷺ الذي رباه وصد عنه كيد كفار قريش وحماه منهم، فحزن الحبيب ﷺ لوفاته حزنًا كبيرًا، وبعد أقل من شهر توفيت السيدة خديجة التي كانت تثبته ﷺ وشكلت سندًا ومعينًا له على الدعوة إلى الله، فحزن لوفاتها حزنًا شديدًا حتى قال له الصحابة: خفف عليك يا رسول الله.

وكان ﷺ إذا ذبح شاة يجعل أول ما يخرج منها نصيبًا لصاحبات خديجة تكريمًا لها.

ولا يصح تسمية هذا العام بعام الحزن، ولم تثبت عن الرسول ﷺ.

- رحلة الطائف:

لما اشتد أذى قريش للحبيب ﷺ، ونضجت فكرة قتله لديهم بعد ذلك: حتى قال: «والله ما أوذيت كما أوذيت بعد ممات أبي طالب» بدأ يفكر في الرحيل إلى مكان آخر من أجل نشر الإسلام وحماية نفسه من بطش قريش، فكانت الطائف التي تبعد عن مكة بحوالي مائة كيلو متر وجهته لكونها أقوى بلد بعد قريش، فقصدها ﷺ بصحبة زيد بن حارثة، مشيًا على الأقدام بدل ركوب الراحلة حتى لا تشك قريش في رحلته التي استغرقت أربعة أيام.

ولكن أهل الطائف لَم يكونوا أشرفَ مِن سادة قريش، فقد ردُّوه ردًّا

عنيفًا، وكيف تقبل ثقيف دعوته، وعندهم صنَمُهم المعبود المقدَّس (اللات)، الذي تزوره العرَبُ أيام الصيف الحارِّ في الطائف فتستفيد ثقيف منهم؟ أمَّا لو دخَلوا في دين الإسلام، فلن يَزورهم أحد، وسيُحرَمون من الأرباح الطائلة، فكيف تقبل ثقيف دعوتَه؟ كيف يَقْبلون دعوته وهو يدعوهم إلى مبدأ المُساواة بين العبيد والسَّادة، وإزالة تجارة الرِّبا؟ أهل الطائف عرفوا أن دين الإسلام سيَضرب مصالحهم الماديَّة؛ لذلك ردُّوا رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - ردًّا عنيفًا.

وتأمَّلْ معي كم من المسلمين اليوم مَن يُفكِّر كتفكير أهل الطائف، بعضهم يجلس ويحدِّث الناس عن أخلاق الإسلام وعن الحلال والحرام، ويُردِّد العبارة المنتشرة بين الناس، وهي (عز الله الشرع)، ولكن (عز الله الشرع) إذا كان الشَّرع لا يمنعني شهواتي، (عز الله الشرع) إذا كان الشرع يجعلني ألبس وأركَب وآكُل وأبني بلا ضوابط، (عزَّ الله الشرع) إذا كان الشرع مع ما أريد وأهوى، ولكن يَضرب بالشرع عُرْض الحائط إذا تعارض مع شهواته، وما تهواه نفسه من متع الدنيا الفانية .. نعم عندنا الكثير مَن يفكِّرون كتفكير أهل الطائف.

فردوا عليه ردًّا منكرًا، وسَخِروا منه واستهزؤوا به، قال له أحدهم: هو يَمْرُط (أي: أُمَزِّق) ثيابَ الكعبة إنْ كان الله أرسلَك، وقال الآخَر: أمَا وجَدَ الله أحدًا يرسله غيرك؟ وقال الثَّالث: والله لا أكلِّمك أبدًا، لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول لأنتَ أعظمُ خطرًا من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنتَ تكذب على الله (وحاشا رسول الله من الكذب وهو الصادق الأمين) ما

ينبغي لي أن أكلِّمك!»[(١)].

وكانت رحلة الحبيب ﷺ من أصعب المواقف التي تعرض لها، لكن الله سيكرمه بما هو أعظم وأطيب من الطائف بنزول سيدنا جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال الذي قال له: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين (الجبلين) فقال ﷺ: «لا عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله».

وبعد كل العناء الذي لقيه الحبيب ﷺ في ذلك اليوم، لم يتخل عن قيام الليل ليكرمه الله تعالى مرة أخرى بأن أرسل طائفة من الجن يستمعون لتلاوته القرآن فآمنوا به: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف].

عند عودتهما إلى مكة، طلب الحبيب ﷺ من زيد أن يذهب إلى إحدى الأسر ليطلب الحماية منها، فوافق مطعم بن عدى على ذلك، ودخل الحبيب إلى مكة وطاف بالكعبة قبل أن يعود إلى بيته.

الحبيب ﷺ أراد الإنس والله أراد الجن.

الحبيب ﷺ أراد الطائف والله أراد المدينة.

وتعلم المصطفى ﷺ أمورًا لم يدركها من قبل، واكتشف عوالم جديدة

---

(١) ما بين الشرطتين بتصرف من كلام أ/ محمد جمعة الحلبوسي، في موقع الألوكة على الشبكة العنكبوتية.

في هذه الرحلة.

- الدروس المستفادة

١- الإصرار على الرسالة.

٢- التوكل على الله تعالى.

٣- قيام الليل.

٤- الثبات على الرسالة.

www.alukah.net

الوقفة الرابعة

مع هدي النبي ﷺ

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة الرابعة

مع هدي النبي ﷺ [١]

(١) هدي النبي ﷺ في رمضان:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - :

وكان هدي رسول الله فيه ﷺ - أي في رمضان - أكمل الهدي، وأعظم تحصيل للمقصود، وأسهله على النفوس.

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسعة رمضانات.

وفرض أولاً على وجه التخيير بينه وبين أن يطعم عن كل يوم مسكينًا، ثم نقل من ذلك التخيير إلى تحتم الصوم.

وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة، إذا لم يطيقا الصيام، فإنهما يفطران، ويطعمان عن كل يوم مسكينًا.

ورخص للمريض والمسافر أن يفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك، فإن خافتا على ولديهما، زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم، فإن فطرهما لم يكن لخوف مرض، وإنما كان مع الصحة، فجبر بإطعام المسكين، كفطر الصحيح في أول الإسلام.

---

(١) من كتاب: «٤٠» مجلسًا في صحبة الحبيب ﷺ - د/ عادل بن علي الشدي - البرنامج العالمي للتعرف بني الرحمة ﷺ - سلسلة رحمته للعالمين (٥).

- الإكثار من أنواع العبادة:

كان من هديه ﷺ في شهر رمضان: الإكثار من أنواع العبادات، فكان جبريل - عليه السلام - يدارسه القرآن في رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، يكثر فيه من الصدقة والإحسان، وتلاوة القرآن، والصلاة، والذكر والاعتكاف.

وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص به غيره من الشهور، حتى أنه كان ليواصل فيه أحيانًا، ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة، وكان ينهي أصحابه عن الوصال، فيقولون له: إنك تواصل، فيقول:«لست كهيئتكم، إني أبيت»، وفي رواية: «إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني»(١).

وقد نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمةً للأمة، وأذن فيه على السحر.

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل، فليواصل إلى السحر» فهذا أعدل الوصال وأسهله على الصائم، وهو في الحقيقة بمنزلة عشائه، إلا أنه تأخر، فالصائم له في اليوم والليلة أكلة، فإن أكلها في السحر كان قد نقلها من أول الليل إلى آخره.

- هديه ﷺ في ثبوت الشهر:

كان من هديه ﷺ أن لا يدخل في صوم إلا برؤية محققة، أو بشهادة شاهد واحد، كما صام بشهادة ابن عمر، وصام مرة بشهادة أعرابي، واعتمد على خبرهما، ولم يكلفهما لفظ الشهادة، فإن كان ذلك إخبارًا فقد اكتفى في رمضان بخبر الواحد، وإن كان شهادة، فلم يكلف الشاهد لفظ الشهادة، فإن

(١) متفق عليه.

لم تكن رؤية ولا شهادة، أكمل عدة شعبان ثلاثين يومًا.

وكان إذا حال ليلة الثلاثين - دون منظره - غيم أو سحابة، أكمل عدة شعبان ثلاثين يومًا، ثم صام.

ولم يكن يصوم يوم الإغمام، ولا أمر به، بل أمر بأن تكمل عدة شعبان ثلاثين إذا غم، وكان يفعل ذلك، فهذا فعله، وهذا أمره، ولا يناقض هذا قوله: «فإن غم عليكم فاقدروه له»(١).

فإن القدر هو الحساب المقدرُ، والمراد به: إكمال عدة الشهر إذا غم، كما قال في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «فأكملوا عدة شعبان».

- هديه في الخروج من الشهر:

كان من هديه ﷺ: أمر الناس بالصوم بشهادة الرجل الواحد والمسلم وخروجهم منه بشهادة اثنين.

وكان من هديه: إذا شهد الشاهدان برؤية الهلال بعد خروج وقت العيد أن يفطر، ويأمرهم بالفطر، ويصلي العيد من الغد في وقتها.

- هدي النبي ﷺ عند الفطر في رمضان(٢):

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - :

كان ﷺ يعجل الفطر، ويحض عليه، ويتسحر، ويحث على السحور، ويؤخره، ويرغب في تأخيره.

وكان يحض على الفطر بالتمر، فإن لم يجد فعلى الماء، هذا من كمال شفقته

---

(١) متفق عليه.

(٢) «المشرع هو ربنا - عز وجل - ورسوله الله يبلغ لنا شرع ربنا؛ فالحمد لله على تيسيره لنا، ورحمته بنا».

على أمته، ونصحهم، فإن إعطاء الطبيعة الشيء الحلو مع خلو المعدة أدعى إلى قبوله، وانتفاع القوى به، ولاسيما القوة الباصرة، فإنها تقوى به.

وحلاوة المدينة التمر، ومرباهم عليه، وهو عندهم قوت وأُدم، ورطبة فاكهة.

وأما الماء: فإن الكبد يحصل له بالصوم نوع يبس، فإذا رطبت بالماء، كمل انتفاعها بالغذاء بعده، ولهذا كان الأولى بالظمآن الجائع أن يبدأ قبل الأكل بشرب قليل من الماء، ثم يأكل بعده.

هذا مع ما في التمر والماء من الخاصية التي لها تأثير في صلاح القلب، لا يعلمها إلا أطباء القلوب.

* مع النبي ﷺ في فطره:

- وكان يفطر قبل أن يصلي.

- وكان فطره على رطبات - إن وجدها - فإن لم يجدها فعلى تمرات، فإن لم يجد، فعلى حسوات من ماءٍ.

- وروي عنه أنه كان يقول إذا أفطر: «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى»(١).

ويذكر عنه ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما تُرد»(٢).

وصح عنه أنه قال: «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر من هاهنا، فقد أفطر الصائم»(٣).

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) متفق عليه.

الألوكة
www.alukah.net

وفسر بأنه قد أفطر حكمًا، وإن لم ينوه، وبأنه قد دخل وقت فطره، كأصبح وأمسى.

- آداب الصائم:

ونهى ﷺ الصائم عن الرفث والصخب، والسباب، وجواب السباب، فأمره أن يقول لمن سابه: «إني صائمٌ»[١].

فقيل: يقول بلسانه وهو أظهر.

وقيل: بقلبه، تذكيرًا لنفسه بالصوم.

وقيل: يقوله في الفرض بلسانه، وفي التطوع في نفسه، لأنه أبعد عن الرياء.

- هديه ﷺ في السفر في رمضان:

وسافر رسول الله ﷺ في رمضان، فصام وأفطر، وخير الصحابة بين الأمرين.

وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا من عدوهم، ليتقووا على قتاله.

وأما إذا تجرد السفر عن الجهاد فكان رسول الله ﷺ يقول في الفطر: هي رخصة، فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه.

وسافر رسول الله ﷺ في أعظم الغزوات وأجلها: في غزوة بدر، وفي غزوة الفتح.

ولم يكن من هديه ﷺ تقدير مسافة السفر التي يفطر فيها الصائم بحد، ولا صح عنه في ذلك شيء.

---

(١) متفق عليه.

وكان الصحابة حين ينشؤون السفر يفطرون من غير اعتبار مجاوزة البيوت، ويخبرون أن ذلك سنته وهديه ﷺ، كما قال عبيد بن جبر: ركبت مع أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله ﷺ في سفينة من الفسطاط في رمضان، فلم يجاوز البيوت حتى دعا بالسفرة وقال: اقترب. قلت: ألست ترى البيوت؟ قال أبو بصرة: أترغب عن سنة رسول الله ﷺ؟.[١]

وقال محمد بن كعب: أتيت أنس بن مالك في رمضان، وهو يريد سفرًا، وقد رحلت له راحلته، وقد لبس ثياب السفر، فدعا بطعام فأكل، فقلت له: سنة؟ قال: سنة. ثم ركب. قال الترمذي: حديث حسن.

وهذه الآثار صريحة، في أن من أنشأ السفر في في أثناء يوم من رمضان، فله الفطر فيه.

- هديه ﷺ فيمن أكل أو شرب ناسيًا:

وكان من هديه ﷺ إسقاط القضاء عمن أكل وشرب ناسيًا، وأن الله سبحانه هو الذي أطعمه وسقاه، فليس هذا الأكل والشرب يضاف إليه، فيفطر به، فإنما يفطر بما فعله، وهذا بمنزلة أكله وشربه في نومه؛ إذ لا تكليف بفعل النائم، ولا بفعل الناسي.

- مفطرات الصائم:

والذي صح عنه ﷺ أن الذي يفطر به الصائم: الأكل والشرب[٢]، والحجامة، والقيء.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود.

(٢) يدخل في ذلك ما كان يشبههما كالإبر المغذية.

والقرآن دال على أن الجماع مفطر، كالأكل والشرب، ولا يعرف فيه خلاف، ولا يصح عنه ﷺ في الكحل شيء وصح عنه أنه كان يستاك وهو صائم.

- وذكر الإمام أحمد عنه أنه كان يصب الماء على رأسه وهو صائم.

- وكان يتمضمض ويستنشق وهو صائم، ومنع الصائم من المبالغة في الاستنشاق.

- ولا يصح عنه أنه احتجم وهو صائم، قاله الإمام أحمد.

- ولا صح عنه أنه نهى عن السواك في أول النهار ولا آخره.

- هديه ﷺ في الاعتكاف:

كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله - عز وجل -، وتركه مره فقضاه في شوال.

واعتكف مرة في العشر الأول، ثم الأوسط، ثم العشر الأخير، يلتمس ليلة القدر، ثم تبين له أنها في العشر الأواخر، فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه - عز وجل -.

- وكان يأمر بخباء، فيضرب له في المسجد يخلو فيه بربه عز وجل.

- وكان إذ أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله.

- وكان ﷺ يعتكف كل سنةٍ عشرة أيام، فلما كان في العام الذي قبض فيه، اعتكف عشرين يومًا.

- وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة، فلما كان ذلك العام - الذي قبض فيه - عارضة به مرتين.

– وكان ﷺ إذا اعتكف دخل قبته وحده.

– وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان.

– وكان يخرج رأسه من المسجد على بيت عائشة، فترجله، وتغسله وهو في المسجد، وهي حائض.

– وكانت بعض أزواجه تزوره وهو معتكف، فإذا قامت تذهب، قام معها يقلبها، وكان ذلك ليلاً.

– ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكف، لا بقبلة ولا غيرها.

– وكان إذا اعتكف طرح له فراشه، ووضع له سريره في معتكفه.

– واعتكف مرة في قبة تركية، وجعل على سدتها حصيرًا، كل ذلك تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله الجُهَّالُ من اتخاذ المعتكف موضع عشرة، ومجلبةُ للزائرين، وأخذهم بأطراف الحديث بينهم، فهذا لون والاعتكاف النبوي لون آخر والله الموفق.

(٢) النبي ﷺ والمرأة:

لقد دأب أعداء الإسلام على القول بأن الإسلام ظلم المرأة وقهرها، ومنعها حقوقها، وجعلها خادمة للرجل ووسيلة لمتعته.

غير أن هذا الزيف يدحضه ما أُثر عن النبي ﷺ في تكريم المرأة ورفع شأنها، والأخذ بمشورتها، والرفق بها، وإنصافها في كافة المواقف، وإعطائها كامل حقوقها مما لم تكن تحلم به قبل ذلك.

فقد كان بعض العرب وغيرهم من بعض الرجال بالديانات والأعراق الأخرى قبل الإسلام يكرهون البنات، ويعدونهن عارًا، حتى أن بعض العرب

الجاهليين اشتهر بدفن الإناث وهن أحياء، وقد صور القرآن ذلك بقوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل].

وكانت المرأة في الجاهلية إذا مات عنها زوجها، ورثها أبناؤها وأقاربه، فإن شاؤوا زوجوها من أحدهم، وإن شاؤوا حرموها من الزواج وحبسوها حتى الموت، فأبطل الإسلام ذلك كله بما شرعه من أحكام عادلة تضمن حقوق المرأة والرجل على حد سواء.

فقد أخبر النبي ﷺ عن مساواة المرأة للرجل في الإنسانية، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما النساء شقائق الرجال»[(١)].

فليس هناك – في الإسلام – صراع بين جنس الرجل وجنس المرأة كما يصور أعداء الإسلام، بل هي الإخوة والتكامل بين الجنسين.

وقد قرر القرآن الكريم قضية المساواة في الإيمان والعمل والجزاء فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وأخبر النبي ﷺ بمحبته للمرأة فقال عليه الصلاة والسلام: «حُبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[(١)].

فإذا كان النبي ﷺ يحب النساء فكيف يظلمهن؟ وكيف يحقرهن؟ وكيف يقهرهن؟.

وكما أبطل الله تعالى عادة كراهية البنات ودفنهن أحياء، فقد أبطل النبي ﷺ تلك العادة القبيحة، ورغب في تربية البنات والإحسان إليهن، فقال عليه الصلاة والسلام: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو - وضم بين أصابعه -»[(٢)]. وذلك إشارة إلى علو منزلته، وقربه من النبي ﷺ، لا لشيء إلا لرعايته بناته وحفاظه عليهن حتى يصلن إلى سن البلوغ والتكليف.

وقال ﷺ: «من كان له ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، أو بنتان، أو أختان، فأحسن صحبتهن، واتقى الله فيهن، فله الجنة»[(٣)].

ولقد حرص النبي ﷺ على تعليم المرأة فجعل لهن يومًا يجتمعن فيه، فيأتيهن ويعلمهن مما علمه الله[(٤)].

ولم يجعل النبي ﷺ المرأة حبيسة البيت كما يزعمون، بل أباح لها الخروج من البيت لقضاء حوائجها وزيارة أقاربها، وعيادة المرضى، وأباح لها أن تبيع وتشتري في السوق مع التزامها بحيائها وحجابها الشرعي، وعدم مخالطتها

(١) رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذي وصححه الألباني.

(٤) رواه مسلم.

الألوكة
www.alukah.net

للرجال.

وكذلك أباح لها الخروج إلى المساجد، بل نهى عن منعها فقال ﷺ: «لا تمنعوا نساءكم المساجد»[(١)].

وأوصى ﷺ بالمرأة فقال: «استوصوا بالنساء خيرًا»[(٢)].

وهذا يقتضي حسن عشرتهن، واحترام حقوقهن، ورعاية مشاعرهن وعدم إيذائهن بأي نوع من الأذى.

ولقد رغب النبي ﷺ الأزواج في النفقة على الزوجات، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعله في فِي امرأتك»[(٣)].

بل إن النبي ﷺ جعل النفقة على الأسرة من أفضل نفقات الرجل، فقال ﷺ: «أفضل دينار: دينار ينفقه الرجل على عياله»[(٤)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل إذا سقى امرأته من الماء، أُجر»[(٥)].

وقد سمع هذا الحديث العرباض بن سارية - رضي الله عنه -، فسارع إلى الماء ثم أتى زوجته فسقاها، وحدثها بما سمع من رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أحمد وحسنه الألباني.

هكذا عَلَّم النبي ﷺ أصحابه حسن عشرة النساء، والعطف عليهن، والشفقة بهن، وإيصال أنواع الخير لهن، والنفقة عليهن بالمعروف.

وبين النبي ﷺ أن حسن عشرة النساء دليل على نبل نفس الرجل وكريم طباعه، فقال عليه الصلاة والسلام: «خياركم خياركم لنسائهم»[(١)]، ونهى النبي ﷺ عن بغض الرجل زوجته، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يفرك مؤمن مؤمنة - أي لا يبغضها - إن كره منها خلقًا، رضي منها آخرَ»[(٢)].

وهكذا كان النبي ﷺ يأمر الرجال بالبحث عن الإيجابيات والسلوكيات الحميدة في المرأة، والتغافل عن الهفوات والسلبيات؛ لأن البحث في السلوك السلبي والوقوف عنده طويلاً يؤدي إلى النفور والبغض بين الزوجين.

ونهى النبي ﷺ عن ضرب النساء، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تضربوا إماء الله»[(٣)].

وتوعد الذين يؤذون النساء فقال ﷺ: «اللهم إني أحرجُ حقَّ الضعيفين: اليتيم والمرأة»[(٤)]. والمعنى أن من ظلم هذين الصنفين لا يحله الله، بل هو معرض للحرج والعقوبة في الدنيا والآخرة.

ونهى النبي ﷺ الرجال عن إفشاء أسرار الزوجات، وكذلك الزوجات منهيات عن إفشاء أسرار أزواجهن فقال عليه الصلاة والسلام: «إن من أشر

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) رواه أحمد وابن ماجه.

الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها»[(١)].

ومن تكريم النبي ﷺ للمرأة، أنه نهى الأزواج عن سوء الظن بالزوجات، وتلمس عثراتهن، فعن جابر - رضي الله عنه - قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً، يتخونهم، أو يلتمس عثراتهم»[(٢)].

أما سلوك رسول الله ﷺ مع أزواجه، فقد كان في غاية الرقة واللطف.

فعن الأسود قال: سألت عائشة - رضي الله عنها - : ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله - أي يساعدها في مهنتها - فإذا حضرت الصلاة، قام إلى الصلاة[(٣)].

وكان ﷺ يترضى أزواجه، ويلاطفهن بالحديث، ومن ذلك قوله ﷺ لعائشة - رضي الله عنها - : «إني لأعرف غضبك ورضاك» قالت: كيف تعرف يا رسول الله؟ قال: «إنك إذا كنت راضية قلت: بلى ورب محمد، وإن كنت ساخطة قلت: لا ورب إبراهيم». فقالت: أجل والله يا رسول الله إني لا أهجر إلا اسمك[(٤)]. أي: أن حبك في قلبي ثابت لا يتغير!.

ولم ينس النبي ﷺ زوجته خديجة - رضي الله عنها - حتى بعد وفاتها، فعن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بالهديه قال: «اذهبوا بها إلى فلانة، فإنها

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.
(٤) متفق عليه.

كانت صديقة لخديجة»[١]. فهذا احترام النبي ﷺ للمرأة، فأين أنتم من ذلك يا دعاة تحرير المرأة؟!

(٣) هديه ﷺ في الصلاة [٢][٣]:

أ- هديه في الاستفتاح والقراءة:

١- كان إذا قام إلى الصلاة قال: «الله أكبر»، ولم يقل شيئًا قبلها، ولا تلفظ بالنية البتة.

٢- وكان يرفع يديه معها ممدوتي الأصابع مستقبلاً بهما القبلة إلى فروع أذنيه - وإلى منكبيه -، ثم يضع اليمنى على ظهر اليسرى.

٣- وكان يستفتح تارة بـ: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد، اللهم نقني من الذنوب كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس»[٤].

وتارة يقول: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين»[٥].

٤- وكان يقول بعد الاستفتاح: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) من كتاب: هدي محمد ﷺ في عباداته ومعاملاته وأخلاقه - د/ أحمد بن عثمان المزيد.

(٣) زاد المعاد(١/ ١٩٤).

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه الترمذي.

الألوكة
www.alukah.net

يقرأ الفاتحة.

٥- وكان له سكتتان: سكتة بين التكبيرة والقراءة، واختلف في الثانية، فروي أنها بعد الفاتحة وروي أنها قبل الركوع.

٦- فإذا فرغ من قراءة الفاتحة أخذ في سورة غيرها، وكان يطيلها تارة، ويخففها لعارض من سفر أو غيره، ويتوسط فيها غالبًا.

٧- وكان يقرأ في الفجر بنحو ستين آية إلى مائة، وصلاها بسورة «ق»، وصلاها بسورة «الروم»، وصلاها بسورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾، وصلاها بسورة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ في الركعتين كلتيهما، وصلاها بـ «المعوذتين»، وكان في السفر، وصلاها فاستفتح سورة «المؤمنون» حتى إذا بلغ ذكر موسى وهارون في الركعة الأولى أخذته سَعْلَةٌ فركع.

٨- وكان يصليها يوم الجمعة بـ ﴿الٓمٓ﴾ السجدة، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾.

٩- وأما الظهر فكان يطيل قراءتها أحيانًا، وأما العصر فعلى النصف من قراءة الظهر إذا طالت، وبقدرها إذا قصرت.

١٠- وأما المغرب فصلاها مرة بـ «الطور»، ومرة بـ «المرسلات».

١١- وأما العشاء فقرأ فيها بـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، ووقت لمعاذ فيها بـ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، و ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، ونحوها، وأنكر عليه قراءته فيها بـ «البقرة».

١٢- وكان من هديه قراءة السورة كاملة، وربما قرأها في الركعتين،

وربما قرأ أول السورة، وأما قراءة أواخر السورة وأوساطها، فلم يحفظ عنه.

وأما قراءة السورتين في ركعة فكان يفعله في النافلة، وأما قراءة سورة واحدة في الركعتين معًا فقلما كان يفعله، وكان لا يعين سورة في الصلاة بعينها لا يقرأ إلا بها، إلا في الجمعة والعيدين.

١٣- وقنت في الفجر بعد الركوع شهرًا ثم ترك، وكان قنوته لعارض، فلما زال تركه، فكان هديه القنوت في النوازل خاصة، ولم يكن يخصه بالفجر.

ب: هديه ﷺ في كيفية الصلاة [(١)]:

١- كان يطيل الركعة الأولى على الثانية من كل صلاة.

٢- وكان إذا فرغ من القراءة سكت بقدر ما يترادُّ إليه نفسه ثم رفع يديه وكبر راكعًا، ووضع كفيه على ركبتيه كالقابض عليهما، ووتر يديه فنحاهما على جنبيه، وبسط ظهره ومده واعتدل فلم ينصب رأسه ولم يخفضه، بل حيال ظهره.

٣- وكان يقول «سبحان ربي العظيم»[(٢)] ، وتارة يقول في ذلك: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»[(٣)]، وكان يقول أيضًا: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح»[(٤)].

٤- وكان ركوعه المعتاد عشر تسبيحات، وسجوده كذلك، وتارة

---

(١) زاد المعاد (١/ ٢٠٨).

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

يجعل الركوع والسجود بقدر القيام، ولكن كان يفعله أحيانًا في صلاة الليل وحده، فهديه الغالب في الصلاة تعديل الصلاة وتناسبها.

٥- وكان يرفع رأسه قائلاً: «سمع الله لمن حمده»[(١)]، ويرفع يديه ويقيم صلبه، وكذلك إذا رفع رأسه من السجود، وقال: «لا تجزئ صلاة لا يقيم فيها الرجل صلبه في الركوع والسجود»[(٢)]، فإذا استوى قال: «ربنا ولك الحمد»، وربما قال: «ربنا لك الحمد»، وربما قال: « اللهم ربنا ولك الحمد».

٦- وكان يطيل هذا الركن بقدر الركوع، ويقول فيه، «اللهم ربنا ولك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[(٣)].

٧- ثم كان يكبر ويخرُّ ساجدًا، ولا يرفع يديه، وكان يضع ركبتيه ثم يديه بعدهما، ثم جبهته وأنفه، وكان يسجد على جبهته وأنفه دون كور العمامة، وكان يسجد على الأرض كثيرًا، وعلى الماء والطين، وعلى الخمرة[(٤)] المتخذة من خوص النخل، وعلى الحصير المتخذ منه، وعلى الفروة المدبوغة.

٨- وكان إذا سجد مكن جبهته وأنفه من الأرض، ونحى يديه عن جنبيه، وجافاهما حتى يُرى بياض إبطيه.

٩- وكان يضع يده حذو منكبيه وأذنيه ويعتدل في سجوده، ويستقبل

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) الخمرة: حصيرة صغيرة من السعف.

بأطراف أصابع رجليه القبلة، ويبسط كفيه وأصابعه، ولا يفرج بينهما ولا يقبضهما.

١٠- وكان يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»(١)، ويقول: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح»(٢).

١١- ثم يرفع رأسه مكبرًا غير رافع يديه، ثم يجلس مفترشًا يفرش اليسرى ويجلس عليها، وينصب اليمنى، ويضع يديه على فخذية، ويجعل مرفقيه على فخذيه، وطرف يده على ركبته، ويقبض اثنتين من أصابعه ويحلق حلقة، ثم يرفع إصبعه يدعو بها ويحركها، ثم يقول: «اللهم اغفر لي، وارحمني، واجبرني، واهدني، وارزقني»(٣).

١٢- وكان هديه ﷺ إطالة هذا الركن بقدر السجود.

١٣- ثم ينهض على صدور قدميه، معتمدًا على فخذيه، فإذا نهض افتتح القراءة، ولم يسكت كما يسكت عند الاستفتاح، ثم يصلي الثانية كالأولى إلا في أربعة أشياء: السكوت، والاستفتاح، وتكبيرة الإحرام، وتطويلها فكان يطيل الركعة الأولى على الثانية، وربما كان يطيلها حتى لا يسمع وقع قدم.

١٤- فإذا جلس للتشهد وضع يده اليسرى على فخذه الأيسر، ويده اليمنى على فخذه الأيمن، وأشار بالسبابة، وكان لا ينصبها نصبًا، ولا ينيمها، بل يحنيها شيئًا يسيرًا ويحركها، ويقبض الخنصر والبنصر، ويحلق الوسطى مع الإبهام، ويرفع السبابة يدعو بها ويرمي ببصره إليها.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

١٥- وكان يتشهد دائمًا في هذه الجلسة ويعلم أصحابه أن يقولوا: «التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»[(١)]. وكان يخففه جدًا كأنه يصلي على الرضف - وهي الحجارة المحماة - ثم كان ينهض مكبرًا على صدور قدميه وعلى ركبتيه معتمدًا على فخذيه، وكان يرفع يده في هذا الموضع، ثم يقرأ الفاتحة وحدها وربما قرأ في الركعتين الأخرتينِ بشيء فوق الفاتحة.

١٦- وكان ﷺ إذا جلس في التشهد الأخير، جلس متوركًا[(٢)]، وكان يفضي بوركه إلى الأرض، ويخرج قدمه من ناحية واحدة[(٣)].

ويجعل اليسرى تحت فخذه وساقه وينصب اليمنى، وربما فرشها أحيانًا.

ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، وضم أصابعه الثلاثة ونصب السبابة.

وكان يدعو في صلاته فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم[(٤)]»[(٥)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) التورك: تورك في الصلاة: وضع وركه اليمنى على رجله اليمنى منصوبة، مصوبًا أطراف أصابعها إلى القبلة، وألصق وركه اليسرى بالأرض مخرجًا لرجله اليسرى من جهة يمينه.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) المغرم: الدين الذي يعجز عن أدائه.

(٥) رواه البخاري.

ثم كان يسلم عن يمينه: السلام عليكم ورحمة الله، وعن يساره كذلك.

١٧- وأمر المصلي أن يستتر ولو بسهم أو عصا، وكان يركز الحربة في السفر والبرية فيصلي إليها فتكون سترته وكان يعرض راحلته فيصلي إليها، وكان يأخذ الرحل فيعدله ويصلي إلى آخرته.

١٨- وكان إذا صلى إلى جدار جعل بينه وبينه قدر ممر الشاة، ولم يكن يتباعد منه، بل أمر بالقرب من السترة.

ج- هديه ﷺ في أفعاله في الصلاة [١]:

١- لم يكن من هديه الالتفات في الصلاة.

٢- ولم يكن من هديه تغميض عينيه في الصلاة.

٣- وكان إذا قام في الصلاة طأطأ رأسه، وكان يدخل في الصلاة يريد إطالتها فيسمع بكاء الصبي فيخففها مخافة أن يشق على أمه.

٤- وكان يصلي الفرض وهو حامل أمامة بنت ابنته على عاتقه، إذا قام حملها، وإذا ركع وسجد وضعها.

٥- وكان يصلي فيجيء الحسن والحسين فيركبا ظهره، فيطيل السجدة كراهية أن يلقيهما عن ظهره.

٦- وكان يصلي فتجيء عائشة فيمشي فيفتح لها الباب، ثم يرجع إلى مصلاه.

٧- وكان يرد السلام في الصلاة بالإشارة.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٢٤١).

الألوكة
www.alukah.net

٨- وكان ينفخ في صلاته، وكان يبكي فيها، وينحنح لحاجة.

٩- وكان يصلي حافيًا تارة، ومنتعلاً أخرى، وأمر بالصلاة في النعل مخالفةً لليهود.

١٠- وكان يصلي في الثوب الواحد تارة وفي الثوبين تارة وهو أكثر.

د- هديه ﷺ في أفعاله بعد الصلاة (١):

١- كان إذا سلم استغفر ثلاثًا، ثم قال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكـرام» (٢)، ولم يمكث مستقبل القبلة إلا مقدار ما يقول ذلك، بل يسرع الانتقال إلى المأمومين، وكان يتفل عن يمينه وعن يساره.

٢- وكان إذا صلى الفجر جلس في مصلاة حتى تطلع الشمس.

٣- وكان يقول دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد» (٣).

«ولا حول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» (٤).

---

(١) زاد المعاد (١/ ٢٨٥).

(٢) رواه الترمذي.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

٤- وندب أمته أن يقولوا دبر كل صلاة مكتوبة: «سبحان الله» ثلاثًا وثلاثين، و«الحمد لله» ثلاثًا وثلاثين، و«الله أكبر» ثلاثًا وثلاثين، وتمام المائة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

هـ - هديه ﷺ في التطوع وقيام الليل[1]:

١- كان يصلي عامة السنن والتطوع الذي لا سبب له في بيته، لاسيما سنة المغرب.

٢- وكان يحافظ على عشر ركعات في الحضر دائمًا: ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء في بيته، وركعتين قبل صلاة الفجر.

٣- وكانت محافظته على سنة الفجر أشد من جميع النوافل، ولم يكن يدعها هي والوتر، لا حضرًا ولا سفرًا، ولم ينقل أنه صلى في السفر راتبه غيرهما.

٤- وكان يضطجع بعد سنة الفجر على شقه الأيمن.

٥- وكان يصلي أحيانًا قبل الظهر أربعًا، ولما فاتته الركعتان بعد الظهر قضاها بعد العصر.

٦- وكان أكثر صلاته بالليل قائمًا، وربما يصلي قاعدًا، وربما يقرأ قاعدًا فإذا بقي يسير من قراءته قام فركع قائمًا.

٧- وكان يصلي ثماني ركعات، يسلم بعد كل ركعتين، ثم يوتر بخمس

---

(١) زاد المعاد (١/ ٣١١).

الألوكة
www.alukah.net

سردًا متواليات، لا يجلس إلا في آخرهن، أو يوتر بتسع ركعات يسرد منهن ثمانيًا لا يجلس إلا في الثامنة، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يصلي التاسعة، ثم يقعد فيتشهد ويسلم، ثم يصلي بعدها ركعتين بعد ما يسلم، أو يوتر بسبع كالتسع المذكورة ثم يصلي بعدها ركعتين جالسًا.

٨- وكان يوتر أول الليل ووسطه وآخره، وقال: «اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا»(١).

٩- وكان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسًا تارة، وتارة يقرأ فيهما جالسًا، فإذا أراد أن يركع قام فركع.

١٠- وكان إذا غلبه نوم أو وجع صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة.

١١- وقام ليلة بآية يتلوها ويرددها حتى الصباح.

١٢- وكان يُسرُّ بالقرآن في صلاة الليل تارة، ويجهر تارة، ويطيل القيام تارة، ويخففه تارة.

١٣- وكان يقرأ في الوتر بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ، ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فإذا سلم قال: «سبحان الملك القدوس» ثلاث مرات، يمد صوته في الثالثة ويرفع(٢).

- هديه ﷺ في الجمعة(٣):

١- كان من هديه تعظيم يوم الجمعة وتشريفه وتخصيصه بخصائص؛ منها: الاغتسال في يومها، وأن يلبس فيه أحسن ثيابه، والإنصات للخطبة

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

(٣) زاد المعاد (١/ ٣٥٣).

وجوبًا، وكثرة الصلاة على النبي ﷺ.

٢- وكان يخرج إذا اجتمعوا فيسلم عليهم، ثم يصعد المنبر ويستقبلهم بوجهه ويسلم عليهم، ثم يجلس، ويأخذ بلال في الأذان، فإذا فرغ منه قام فخطب من غير فصل بين الأذان والخطبة، وكان يخطب معتمدًا على قوس أو عصا قبل أن يتخذ المنبر.

٣- وكان يخطب قائمًا، ثم يجلس جلسة خفيفة، ثم يقوم فيخطب الثانية.

٤- وكان يأمر بالدنو منه والإنصات، ويخبر الرجل إذا قال لصاحبه: أنصت، فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له.

٥- وكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش.

٦- وكان يقول في خطبته: «أما بعد» ويقصر الخطبة ويطيل الصلاة.

٧- وكان يعلم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه، ويأمرهم وينهاهم إذا عرض له أمرٌ أو نهي.

٨- وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض، أو لإجابة من يسأله، ثم يعود إلى خطبته فيتمها، وكان ربما نزل عن المنبر لحاجة ثم يعود، وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته، فإذا رأى منهم ذا فاقة أو حاجة، أمرهم بالصدقة وحضهم عليها.

٩- وكان يشير باصبعه السبابة في خطبته عند ذكر الله وكان إذا قحط المطر يستسقي في خطبته.

١٠- وكان إذا صلى الجمعة دخل منزله، فصلى ركعتين سنتها، وأمر من صلاها أن يصلي بعدها أربعًا.

- هديه ﷺ في العيدين [١]:

١- كان يصلي العيدين في المصلى، وكان يلبس أجمل ثيابه.

٢- وكان يأكل في عيد الفطر قبل خروجه تمرات، ويأكلهن وترًا، وأما في الأضحى فكان لا يطعم حتى يرجع من المصلى، فيأكل من أضحيته، وكان يؤخر صلاة عيد الفطر ويعجل الأضحى.

٣- وكان يخرج ماشيًا، والعنزة تحمل بين يديه، فإذا وصل نصبت ليصلي إليها.

٤- وكان إذا انتهى إلى المصلى أخذ في الصلاة بغير أذان ولا إقامة، ولا يقول: الصلاة جامعة، ولم يكن هو ولا أصحابه يصلون إذا انتهوا إلى المصلى شيئًا قبلها ولا بعدها.

٥- وكان يبدأ بالصلاة قبل الخطبة، يصلي ركعتين، يكبر في الأولى سبعًا متوالية بتكبيرة الإحرام، يسكت بين كل تكبيرتين سكتة يسيرة، ولم يحفظ عنه ذكر معين بين التكبيرات، فإذا أتم التكبير أخذ في القراءة، فإذا فرغ كبر وركع، ثم يكبر في الثانية خمسًا متوالية، ثم يأخذ في القراءة، فإذا انصرف خطب في الناس وهم جلوس على صفوفهم، فيعظهم ويأمرهم وينهاهم، وكان يقرأ بـ«ق» و«اقتربت» كاملتين، وتارة بـ «سبح» و«الغاشية».

٦- وكان يخطب على الأرض، ولم يكن هناك منبر.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٤٢٥).

٧- ورخص في عدم الجلوس للخطبة، وأن يجتزئوا بصلاة العيد عن الجمعة إذا وقع العيد يومها.

٨- وكان يخالف الطريق يوم العيد.

- هديه ﷺ في الكسوف [١]:

لما كسفت الشمس خرج إلى المسجد مسرعًا فزعًا يجر رداءه، فتقدم وصلى ركعتين، قرأ في الأولى بالفاتحة وسورة طويلة، وجهر بالقراءة، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع فأطال القيام، وهو دون القيام الأول، وقال لما رفع رأسه من الركوع: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» ثم أخذ في القراءة ثم ركع فأطال الركوع، وهو دون الركوع الأول، ثم رفع رأسه من الركوع، ثم سجد سجدة طويلة فأطال السجود، ثم فعل في الركعة الأخرى مثل ما فعل في الركعة الأولى، فكان في كل ركعة ركوعان وسجودان، ثم انصرف فخطب بهم خطبة بليغة.

وأمر في الكسوف بذكر الله والصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة والعتاقة.

- هديه ﷺ في الاستسقاء [٢]:

١- كان يستسقي على المنبر في أثناء الخطبة، وكان يستسقي في غير الجمعة، واستسقى وهو جالس في المسجد ورفع يديه ودعا الله عز وجل.

٢- وحُفِظَ من دعائه في الاستسقاء: «اللهم اسق عبادك وبهائمك

---

(١) زاد المعاد (١/ ٤٣٣).

(٢) زاد المعاد (١/ ٤٣٩).

الألوكة
www.alukah.net

وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت»(١) ، «اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا(٢) مريئًا(٣) مريعًا(٤) نافعًا غير ضار، عاجلاً غير آجل»(٥).

٣- وكان إذا رأى الغيم والريح عُرِفَ ذلك من وجهه، فأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سري عنه.

٤- وكان إذا رأى المطر قال: «اللهم صيبًا نافعًا»(٦)، ويحسر ثوبه حتى يصيبه من المطر، فسئل عن ذلك، فقال: «لأنه حديث عهد بربه»(٧).

٥- ولما كثر المطر سألوه الاستصحاء، فاستصحى لهم، وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الظراب(٨)، والآكام(٩)، والجبال، وبطون الأودية، ومنابت الشجر»(١٠).

- هديه ﷺ في صلاة الخوف(١١):

١- كان من هديه إذا كان العدو بينه وبين القبلة أن يصف المسلمين

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) مغيثًا: الغوث : العون والإنقاذ.

(٣) مريئًا: هنيئًا محمود العواقب.

(٤) مريعًا: حصبًا عزيرًا.

(٥) رواه أبو داود.

(٦) متفق عليه.

(٧) رواه الترمذي.

(٨) الظراب: هي الروابي الصغار، مفردها : ظِرب.

(٩) الآكام: مفردها أكمة، وهي الهضبة.

(١٠) متفق عليه.

(١١) زاد المعاد (١/ ٥١٠).

خلفه صفين، فيكبر ويكبروا جميعًا، ثم يركعوا ويرفعوا جميعًا، ثم يسجد أول الصف الذي يليه خاصة، ويقوم الصف المؤخر مواجه العدو، فإذا نهض لثانية سجد الصف المؤخر سجدتين، ثم قاموا فتقدموا إلى مكان الصف الأول، وتأخر الصف الأول مكانهم؛ لتحصل فضيلة الصف الأول للطائفتين، وليدرك الصف الثاني معه السجدتين في الثانية، فإذا ركع صنع الطائفتان كما صنعوا أول مرة، فإذا جلس للتشهد سجد الصف المؤخر سجدتين، ولحقوه في التشهد، فسلم بهم جميعًا.

٢- وإن كان في غير جهة القبلة، فإنه تارة يجعلهم فرقتين: فرقة بإزاء العدو، وفرقة تصلي معه، فتصلي معه إحدى الفرقتين ركعة، ثم تنصرف في صلاتها إلى مكان الفرقة الأخرى، وتجيء الأخرى إلى مكان هذه، فتصلي معه الركعة الثانية ثم يسلم، وتقضي كل طائفة ركعة بعد سلام الإمام.

٣- وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعة، ثم يقوم إلى الثانية، وتقضي هي ركعة وهو واقف، وتسلم قبل ركوعه، وتأتي الطائفة الأخرى فتصلي معه الركعة الثانية، فإذا جلس في التشهد قامت فقضت ركعة وهو ينتظرها في التشهد، فإذا تشهدت سلم بهم.

٤- وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعتين ويسلم بهم، وتأتي الأخرى فيصلي بهم ركعتين ويسلم بهم.

٥- وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعة، ثم تذهب ولا تقضي شيئًا، وتجيء الأخرى فيصلي بهم ركعة ولا تقضي شيئًا، فيكون له ركعتان، ولهم ركعة ركعة.

الألوكة
www.alukah.net

(٤) هديه ﷺ في الدعوة[(١)]:

١- وكان يدعو إلى الله ليلاً ونهارًا وسرًا وجهارًا، وأقام بمكة ثلاث سنين من أول نبوته يدعو إلى الله مستخفيًا، ولما أنزل عليه ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[الحجر: ٩٤]. صدع بأمر الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، فدعا إلى الله الكبير والصغير والحر والعبد، والذكر والأنثى، والجن والإنس.

٢- ولما اشتد على أصحابه العذاب بمكة أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة.

٣- وخرج إلى الطائف رجاء أن ينصروه، ودعاهم إلى الله، فلم ير مؤيدًا ولا ناصرًا، وآذوه أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينله من قومه، وأخرجوه إلى مكة، فدخلها في جوار مُطَعِم بن عدي.

٤- وظل يدعو عشر سنين جهرًا، يوافي المواسم كل عام، يتبع الحجاج في منازلهم، وفي المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز، حتى أنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبلية.

٥- ثم لقي عند العقبة ستة نفر كلهم من الخزرج، فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا ثم رجعوا إلى المدينة، فدعوا الناس إلى الإسلام ففشا فيها حتى لم يبق دار إلا وقد دخلها الإسلام.

٦- ولما كان العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلاً، فواعدهم بيعة العقبة، فبايعوه على السمع والطاعة والنفقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يقولوا في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، وأن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم ولهم الجنة، ثم انصرفوا إلى المدينة،

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٤،١١).

وبعث معهم ابن أم مكتوم، ومصعب بن عمير يعلمان القرآن، ويدعوان إلى الله، فأسلم على يديهما بشر كثير، منهم أسيد بن خضير، وسعد بن معاذ.

٧- ثم أذن ﷺ للمسلمين في الهجرة إلى المدينة، فبادر الناس، ثم تبعهم هو وصاحبه.

٨- وآخى بين المهاجرين والأنصار، وكانوا تسعين رجلاً.

أ- هديه ﷺ في الأمان والصلح ومعاملة الرسل[١]:

١- ثبت عنه ﷺ أنه قال: «ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم»[٢]، وقال: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواء»[٣].

٢- وقال: «من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله، فأنا بريء من القاتل»[٤].

٣- ولما قدم عليه رسولا مسيلمة، فتكلما بما قالا، قال: «لولا أن الرسل لا تقتل، لضربت أعناقكما» فجرت سنته أن لا يقتل رسول[٥].

٤- وكان لا يحبس الرسول عنده إذا اختار دينه، بل يرده.

٥- وكان إذا عاهد أعداؤه، واحدًا من أصحابه على عهد لا يضر بالمسلمين بغير رضاه أمضاه.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١١٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود والترمذي.

(٤) رواه ابن ماجه.

(٥) رواه أبو داود.

الألوكة
www.alukah.net

٦- وصالح قريشًا على وضع الحرب عشر سنين على أن من جاءه مسلمًا رده، ومن جاءهم من عنده لا يردونه، فنسخ الله ذلك في حق النساء، وأمر بامتحانهن، فمن علموا أنها مؤمنة لم ترد.

٧- وأمر المسلمين أن يردوا على من ارتدت امرأته مهرها إذا عاقبوا، بأن يجب عليهم رد مهر المهاجرة، فيردونه إلى من ارتدت امرأته.

٨- وكان لا يمنعهم أن يأخذوا من أتى إليه من الرجال، ولا يكرهه على العود، ولا يأمره به، وإذا قتل منهم أو أخذ مالاً وقد فضل عن يده، ولما يلحق بهم لم ينكر عليه ذلك، ولم يضمنه لهم.

٩- وصالح أهل خيبر لما ظهر عليهم على أن يجليهم منها، ولهم ما حملت ركابهم، ولرسول الله ﷺ الصفراء[(١)] والبيضاء[(٢)] والسلاح.

١٠- وصالحهم على الأرض على الشطر من كل ما يخرج منها، ولهم الشطر، وعلى أن يقرهم فيها ما شاء، وكان يبعث كل عام من يخرص عليهم الثمار، فينظر كم يجني منها، فيضمنهم نصيب المسلمين ويتصرفون فيها.

---

(١) الصفراء: الذهب.

(٢) البيضاء: الفضة.

ب- هديه ﷺ في دعوة الملوك وإرسال الرسل والكتب إليهم[١]:

١- لما رجع من الحديبية كتب إلى ملوك الأرض، وأرسل إليهم رسله، فكتب إلى ملك الروم، وبعث إليه، وهم بالإسلام وكاد ولم يفعل.

٢- وبعث إلى النجاشي، فأسلم.

٣- وبعث أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن، فأسلم عامة أهلها طوعًا من غير قتال.

ج- هديه ﷺ في معاملة المنافقين[٢]:

١- كان يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله، ويجاهدهم بالحجة، ويعرض عنهم، ويغلظ عليهم، ويبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم.

٢- وترك قتلهم، تأليفًا للقلوب، وقال: «لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[٣].

(٥) رفق النبي ﷺ بأمته[٤]:

كان النبي ﷺ رفيقًا بأمته، فلم يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، تيسيرًا على الأمة، ورغبة في رفع الحرج عنها؛ ولذلك قال ﷺ: «إن الله لم يبعثني مُعَنِّتا ولا مُتَعَنِّتًا، ولكن بعثني معلمًا مُيسرًا»[٥].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٤١).

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٤٣).

(٣) متفق عليه.

(٤) من كتاب: «٤٠» مجلسًا في صحبة الحبيب ﷺ - د/ عادل بن علي الشدي.

(٥) رواه مسلم.

وقال ﷺ: «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»[(١)].

وقال ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه»[(٢)].

وقد وصف الله تعالى نبيه ﷺ بالرأفة والرحمة فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن رفقه ﷺ بأمته أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: هلكت يا رسول الله!.

قال: «وما أهلكك؟».

قال: وقعت على امرأتي في رمضان.

قال: «هل تجد ما تعتق رقبة».

قال: لا.

قال: «هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟».

قال: لا.

قال: «هل تجد ما تطعم ستين مسكينًا».

قال: لا.

---

(١) رواه أبو أحمد وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم.

قال: ثم جلس فأتى النبي ﷺ بعرق[(١)] فيه تمر، فقال: «تصدق بهذا».

قال الرجل: أأفقر منا؟ فما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «اذهب فأطعمه أهلك»[(٢)].

* فانظر إلى رفق النبي ﷺ بهذا الرجل المخطئ الذي وقع على أهله في نهار رمضان، فإن النبي ﷺ ما زال يرفق به ويتدرج معه من العقوبة الأشد إلى العقوبة الأخف، حتى وصل به الحال إلى أن أعطاه ما يُكفر به خطئه، بل إنه سمح له بأن يأخذ هذه العطية ويطعمها أهله نظرًا لحاجته وفقره، فما أعظم هذا الرفق النبوي، وما أجمل هذه الرأفة المحمدية.

وهذا معاوية بن الحكم السلمي - رضي الله عنه - يقول: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وأثكل أُمِّياه! ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصَمِّتُونَنِي، لكني سكتُّ، فلما صلى النبي ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني[(٣)]، ولا ضربني ، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن»[(٤)].

قال النووي: «فيه ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق، الذي شهد الله تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته وشفقته عليه، وفيه التخلق

(١) العرق: الزنبيل أو القفة.

(٢) متفق عليه.

(٣) كهرني: نهرني.

(٤) رواه مسلم.

الألوكة
www.alukah.net

بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه، واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه».

ومن رفق النبي ﷺ بأمته أنه نهى عن الوصال في الصوم خشية أن يفرض على الناس.

ومن رفق النبي ﷺ بأمته أنه صلى قيام رمضان في المسجد ثلاث ليال أو أكثر، حتى اجتمع خلفه نفر كثير، ثم إنه ﷺ لم يخرج على الناس بعد ذلك خشية أن تفرض هذه الصلاة على الناس.

ومن رفق النبي ﷺ بأمته أنه دخل المسجد، فإذا حبل ممدود بين ساريتين. فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي ﷺ: «لا حُلُّوهُ، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر، فليقعد».

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه –، عن النبي ﷺ قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ مه مه.

فقال رسول الله ﷺ: «دعوه لا تزرموه»(١) فتركوه حتى بال.

ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله عز وجل وقراءة القرآن».

قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماءٍ فشنه عليه(٢).

ومن صور ذلك الرفق المحمدي أن فتى شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ائذن لي بالزنا!!

---

(١) لا تزرموه: أي لا تجعلوه يقطع بوله لئلا يتضرر.

(٢) متفق عليه.

فأقبل عليه القوم فزجروه، وقالوا: مه مه فقال النبي ﷺ: «ادنُه» فدنا منه قريبًا.

قال: «أتحبه لأمك؟».

قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، أفتحبه لابنتك؟».

قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم، أفتحبه لأختك؟».

قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم، أفتحبه لعمتك؟».

قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم، أفتحبه لخالتك؟».

قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». ثم وضع يديه عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

بهذا الأسلوب الرفيق استطاع النبي ﷺ أن يدخل إلى قلب هذا الشاب، ويجعله يستقبح ما طلبه من الإذن بالزنا، وكان ذلك سببًا في صلاح هذا الشاب واستقامته وعفته.

ومن رفق النبي ﷺ بأمته ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: بينما النبي ﷺ يخطب، إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر

---

(١) رواه أحمد.

الألوكة
www.alukah.net

أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه»[(١)].

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: أخبر النبي ﷺ أني أقول: والله لأصومن النهار، ولأقومن الليل ما عشت. فقال رسول الله ﷺ: «أنت الذي تقول ذلك؟» فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: «فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر».

وفي رواية: «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟» قلت: بلى يا رسول الله! قال «فلا تفعل، صم وأفطر، ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإن بحسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشرة أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر» قال عبد الله: فشددت، فشدَّد عَليَّ قلت: يا رسول الله! إني أجد قوة. قال: «صم صيام نبي الله داود، لا تزد عليه».

قلت: وما كان صيام داود؟ قال: «نصف الدهر» فكان عبد الله يقول بعد ما كبر: ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ[(٢)].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة الخامسة

كيف يمضي النبي ﷺ يومه ؟

www.alukah.net

الوقفة الخامسة
كيف يمضي النبي ﷺ يومه؟[١]

يمشي نبينا محمد ﷺ:

كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا مشى مشى بقوة وعزم، بعيدًا عن التوافر المتكلف الذي يتصنعه المتعاظمون، فينزع رجليه في خطوة كأنما يتقلع عن الأرض، ويتكفأ كأنما ينحدر من علو، يعرف من يراه أنه ليس بعاجز ولا كسلان، وإذا التفت التفت جميعًا، وكان إذا مشى معه أصحابه مشوا أمامه وحوله، وتركوا ظهره للملائكة، ولم يكونوا يتبعونه من خلفه، ولم يطأ عقبه رجلان.

وهذا من تواضعه صلى الله عليه وآله وسلم ألا يتقدم أصحابه ويدعهم يتبعونه من خلفه، كما يفعل الجبابرة، ولا يرضى لأصحابه مظاهر الذل أو الاستصغار، بل يمشي فيهم وبينهم.

وكان إذا مشى يتوكأ أحيانًا على عصا من سلم أو عَسِيب نخل، وربما جعل في يده عرجونًا أو محجنًا، وكانت هذه عادة العرب، إذ كثيرًا ما يعرض لهم ما يحتاجونها له.

وربما لقيته الجارية من خدم المدينة، فتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتذهب به حيث شاءت من المدينة في حاجتها، فيدور بها في حوائجها، ولا ينزع يده من يدها حتى ترجع.

---

(١) من كتاب: اليوم النبوي - د/ عبدالوهاب الطريري (بتصرف يسير جدًا).

وكان يبتسم لكل من يلقاه، قال جرير بن عبد الله – رضي الله عنه –: «ما لقيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا تبسم في وجهي».

ما أروع هذه الابتسامة المشعة المرحبة، التي تُشعر بالود والاختصاص؛ حتى ظن جرير – رضي الله عنه – أنه صلى الله عليه وآله وسلم إنما يفعل ذلك معه وله، فوقعت من نفسه هذا الموقع، مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم يفعل ذلك مع الناس كلهم، كما قال عبد الله بن الحارث بن جزء – رضي الله عنه –: «ما رأيت أحدًا كان أكثر تبسمًا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

وكان إذا مر بصبيان سلم عليهم، ومسح على وجوههم، قال جابر بن سمرة – رضي الله عنه –: «خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدي أحدهم واحدًا واحدًا، وأما أنا فمسح خدي، فوجدت ليده بردًا وريحًا، كأنما أخرجها من جونة عطار، فكان الخد الذي مسحه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحسن من الخد الآخر».

وكان يزور الأنصار، فإذا جاء إلى دور الأنصار جاءه صبيان الأنصار، فيدورون حوله، فيدعو لهم، ويمسح رؤوسهم، ويسلم عليهم.

ومرة مر بدور النجار، فتلقاه جواري الأنصار، وجعلن يضربن بالدفوف ويتغنين ويقلن: «نحن جوارٍ من بني النجار .. يا حبذا محمدُ من جارِ».

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يعلم الله أن قلبي يحبكن»(١).

ومر في المسجد يومًا، وعصبة من النساء قعود، فألوى بيده إليهن

(١) رواه البيهقي، ورواه ابن ماجه، عن هشام بن عمار، عن عيسى بن يونس به.

الألوكة
www.alukah.net

بالسلام.

وكان إذا لقي الرجل من أصحابه بدأه بالسلام وصافحه ودعا له، وكان إذا صافح أحدًا لا ينزع يده من يده، حتى يكون هو الذي ينزع، وإذا لقي الرجل فكلمه، لم يصرف وجهه، حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه.

وكان يقف لمن يستوقفه في الطريق، وربما استوقفته الجارية والمرأة، فيقف لها، حدث عدي بن حاتم الطائي - رضي الله عنه - عن أول لقياه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «بينا أنا أمشي معه، إذ نادته امرأة وغلام معها: يا رسول الله، إن لنا إليك حاجة. فخلوا به قائمًا معهما حتى أويت له من طول القيام، قلت في نفسي: أشهد أنك بريء من ديني ودين النعمان بن المنذر، وأنك لو كنت ملكًا لم يقم معه صبي وامرأة طول ما أرى. فقذف الله في قلبي له حبًا»(١).

وكان يمشي بعفوية وتدفق، بعيدًا عن التزمت والتواقر المتكلف، فقد مرَّ مرَّة في طريقه بشاب يسلخ شاةً، ولم يكن يحسن السلخ، فقال له: «تنح حتى أريك، فإني لا أراك تُحسن تسلخ». فأدخل رسول الله ﷺ يده بين الجلد واللحم، فدحس بها حتى توارت إلى الإبط، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هكذا يا غلام فاسلخ». ثم انطلق ولم يتوضأ، ولم يمس ماء. (أي: أن سلخ الشاة لا ينقض الوضوء)(٢).

وبذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يقيم جسور التواصل بين الأجيال، وذلك بالاندماج معهم في أحوالهم، وحضوره في تفاصيل حياتهم.

---

(١) ينظر: «الأحاديث الطوال» للطبراني «١».

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه.

وليت شعري! ما شعور هذا الشاب وهو يرى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ينغمس معه في شيء من شأنه الخاص ويعينه عليه؟!

وكان مرةً مع أصحابه في بيت رجل من أصحابه، فأتاه بلال - رضي الله عنه - يؤذن بالصلاة، فخرج فمر في طريقه برجل قد وضع برمته على النار، فقال له: «أَطَابَتْ بُرْمَتُكَ؟». قال: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

فتناول منه بضعة، فلم يزل يعلكها حتى أحرم بالصلاة وأنا أنظر إليه[(١)].

إنه يُسر الحياة، يعيشه مع أصحابه، فهو يتناول بضعة يسيرة ويظل يمضغها وهو يسير، ما أبعد ذلك عن سنن المتكبرين والجبارين.

أما صاحب البرمة، فكأنى به يومه لك يحدِّث ويتحدث عن طلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بضعة من طعامه، ثم أكلها أمامه، حتى لكأن الموقف وسام العمر له.

أي عمق في حياة الناس كان صلى الله عليه وآله وسلم يصل إليه بهذه اللفتات الأخاذة!

وكان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن يتجافى على ركنه الأيمن أو الأيسر، فقد كانت الدور صغيرة، ولم يكن على أبوابها يومئذ ستورُ، ويقول: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته». فإن لم يسمع جوابًا، كرر السلام ثلاثًا، ثم انصرف.

ومن ذلك: قصته مع سعد بن عبادة - رضي الله عنه -، فقد أتاه صلى الله

---

(١) رواه أبو داود.

الألوكة
www.alukah.net

عليه وآله وسلم، فسلم عليهم، فقال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

فسمع سعد فرد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم رده، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته». فرد سعد، ولم يسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرات، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يزيد فوق ثلاث تسليمات، فإن أذن له، وإلا انصرف، فانصرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء سعد مبادرًا، قال: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، ما سلمت تسليمة إلا سمعتها ورددتها عليك، ولكن أحببت أن تكثر علينا من السلام والرحمة.

- ناشئة الليل:

فإذا انتصف الليل، أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم جلس يمسح النوم عن وجهه بيده، وتناول سواكه فدلك به فمه الطيب المبارك، ثم رفع نظره إلى السماء، ينظر بتفكر في هدوء الليل وسكونه إلى عظمة الله في خلقه، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

ثم يقوم إلى قربة معلقة، فيطلق رباطها، ويسكب الماء منها في قدح عنده، ثم يتوضأ وضوءًا مقتصدًا سابغًا، ثم يلبس إزاره ورداءه ويخلع الخرقة التي كان يتزر بها، ثم يصلي صلاة الليل.

وربما لهج لربه بالذكر والتسبيح والتعظيم قبل أن يبدأ صلاة التهجد،

وكأن ذلك لمزيد التهيؤ والاستفتاح لقيام الليل، قالت عائشة – رضي الله عنها – : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا هب من الليل، كبر عشرًا، وحمد عشرًا، وقال: «سبحان الله وبحمده» عشرًا، وقال: «سبحان الملك القدوس» عشرًا، واستغفر عشرًا، وهلل عشرًا، ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا، وضيق يوم القيامة» عشرًا، ثم يفتتح الصلاة.

وكان يبدئ قيامه بركعتين خفيفتين، وكما كان صلى الله عليه وآله وسلم أخف الناس صلاة إذ صلى بالناس، فقد كان أطولهم صلاة إذا صلى لنفسه، فصلاته في الليل أطول صلاة استفتاحًا وقراءةً ودعاءً؛ امتثالاً لقول ربه: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [المزمل: ٢].

والمتأمل لحاله صلى الله عليه وآله وسلم في تهجده، يستشعر أن صلاته بالليل صلاة مستغرقة، قد اجتمعت فيها كل مشاعره وأحاسيسه ونجواه، وكأنما عرجت روحه إلى الملأ الأعلى، وغشيته أنوار حجاب النور الإلهي، فهو ينظر إلى عرش ربه بارزًا، ويناجيه خاليًا به، فحمده لربه أبلغ الحمد، وثناؤه عليه أعظم الثناء، ودعاؤه له أجمع الدعاء، ولا عجب، فهو الذي أسري به حتى خرقت له السبع الطباق، وارتفع إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام.

فكان أعلم الخلق بالله، وأكملهم إيمانًا، وأصدقهم يقينًا، وقال، وصدق وبر: «إن اتقاكم وأعلمكم بالله أنا»(١).

فإذا قام إلى صلاته استفتحها استفتاح المعظم لربه، المحب له والمشتاق إليه، فاستفتاحه جوامع التعظيم والحمد والثناء.

فمن فواتح صلواته إذا قام من الليل «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين

---

(١) رواه البخاري.

الألوكة
www.alukah.net

عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١).

ومنها: «اللهم ربنا لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك خاصمت، وبك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت، وما أنت أعلم به مني، لا إله إلا أنت»(٢).

ومنها: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك»(٣).

ثم إذا قرأ فإنه يقرأ قراءة مترسلة مرتلة، لا يمر بآية رحمة إلا سأل، ولا آية عذاب إلا استعاذ، ولا آية تسبيح إلا سبح.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الترمذي.

وكان إذا قام أطال قيامه، قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلةً، فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء».

قيل: وما هممت به؟ قال: «هممت أن أقعد وأذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم»[(١)].

وقد يطيل القراءة ويقلل الركعات، وقد يقتصد في القراءة، فيزيد في الركعات، ولم تزد صلاته بالليل على ثلاث عشرة كاملة.

وكان يطيل ركوعه، فكان ركوعه قريبًا من قيامه.

وكان يقول في ركوعه: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، وعليك توكلت، أنت ربي، خشع سمعي وبصري ولحمي ودمي ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين، سبحان ذي الجبروت والكبرياء والعظمة، سُبُوحُ قدوس رب الملائكة والروح»[(٢)].

وكان يكثر أن يقول في آخر حياته في ركوعه وسجوده: «سبحانك

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٣٦٤٦، ٣٧٦٦، ٤١٩٩)، و«صحيح البخاري» (١١٣٥)، و«صحيح مسلم» (٧٧٣)، و«سنن ابن ماجه» (١٤١٨)، و«مختصر قيام الليل» لمحمد بن نصر المروزي (ص١٢٩ - ١٣٠)، و«مسند أبي يعلي» (٥١٦٥)، و«صحيح ابن خزيمة» (١١٥٤)، و«صحيح ابن حبان» (٢١٤١)، و«سنن البيهقي» (٣/ ٨).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٩٦٠ - ٢٣٩٨٠)، و«صحيح مسلم» (٧٧١)، و«سنن أبي داود» (٨٧٣)، و«مختصر قيام الليل» لمحمد بن نصر المروزي (ص ١٨٢- ١٨٣)، و«سنن النسائي» (١٠٤٩، ١٠٥١، ١٠٥٢)، و«صحيح بن خزيمة» (٦٠٧)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٥٢٥ - ٥٣٠)، و«سنن البيهقي» (٢/ ٣١٠)، وما تقدم في استفتاحه صلى الله عليه وآله وسلم: «وجهت وجهي...».

الألوكة
www.alukah.net

اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي». فسألته عائشة – رضي الله عنها – عن ذلك فقال: «أخبرني ربي أني سأرى علامةً في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ③﴾[النصر]»[(١)]. وكان هذا إيذانًا بدنو أجله، وقرب لحوقه بالرفيق الأعلى.

وكان يطيل سجوده قريبًا من ركوعه، ويبتهل فيه إلى ربه بأنواع المسألة، فهو الذي قال:«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»[(٢)].

وكان يقول في سجوده: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، أنت ربي، سجد وجهي للذي خلقه، وصوره فأحسن صوره، وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين، اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقهُ وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره، اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٤٦٨٥، ٢٥٥٦٧)، و«صحيح البخاري» (٨١٧، ٤٩٦٨)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤)، و«سنن أبي داود» (٨٧٧)، و«سنن ابن ماجه» (٨٨٩)، و«مختصر قيام الليل» لمحمد بن نصر المروزي (ص ١٨٢)، و«سنن النسائي» (١٠٤٧)، و«صحيح ابن خزيمة» (٦٠٥)، و«مسند أبي عوانة» (١٨٨١ – ١٨٨٥)، و«صحيح ابن حبان» (١٩٢٩، ١٩٣٠)، و«الدعاء» للطبراني (٦٠٠ – ٦٠٤)، و«الدعوات الكبير» للبيهقي (٢٦٦٢)، و«سنن البيهقي» (٢/ ١٠٩)، و«شرح السنة» للبغوي (٦١٨٠).

(٢) رواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي.

أثنيت على نفسك، سُبُوحُ قدوس، رب الملائكة والروح»[١].

ويا لله لهذا النبي الكريم وهو يخافت ربه في سكون الليل بهذه النجوى، ويذكر ربه هذا الذكر المفعم بالتقديس والتعظيم والتأله والاستكانه، أي أفق علوي تعرج إليه روح هذا النبي وتسمو إليه أشواقه وهو يذكر هذا الذكر ويتبتل لربه هذا التبتل! لكأن جبال الأرض تصغي إليه، ونجوم السماء تنظر إليه، ثم تناجي وتقوله: هذا الذي أنزل عليه: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ [المزمل].

ولا يزال نبيك صلى الله عليه وآله وسلم يقطع آناء الليل بين قراءة خاشعة ومسألة ضارعة وتسبيح قدسي، إلى أن يبقى سدس الليل.

يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فإذا أتم قيامه وأراد أن يوتر أيقظ زوجته لتوتر معه.

وكان يوتر بثلاث ركعات، يقرأ في الأولى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾، وفي الثانية: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، وفي الثالثة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾.

وكان يقول في آخر وتره: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[٢].

---

(١) رواه مسند أحمد والترمذي وسنن أبي داود وصحيح مسلم (٤٨٣، ٤٨٦ ، ٤٨٧).

(٢) رواه مسلم.

الألوكة
www.alukah.net

فإذا فرغ من وتره قال: «سبحان الملك القدوس، ثلاث مرات» ثم يرفع صوته بها في الثالثة[١].

وقد كان نبيك صلى الله عليه وآله وسلم يصلي في حجرته التي زوى عنها ترف العيش ونعيم الدنيا، فربما صلى على الخمرة، وهي حصير صغير بقدر ما يسجد عليه، وربما صلى ولا فراش له إلا فراش زوجه، فيصلي وهي معترضة أمامه، ولم يكن في بيوتهم مصابيح، فإذا أراد أن يسجد غمزها، فتكف رجليها عن موضع سجوده، فإذا قام بسطتها.

وربما خرج فصلى في المسجد أحيانًا قليلة، وكأنما يفعل ذلك لأمر عارض، أحسبه خشية أن يوقظ زوجته بصلاته إذا صلى عندها وهي نائمة، فيصلي في المسجد، فقد قالت عائشة - رضي الله عنها - : فقدت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلةً في الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهما منصوبتان في المسجد، وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٢) رواه مسلم.

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة السادسة

دروس من
السيرة النبوية

www.alukah.net

الوقفة السادسة
دروس من السيرة النبوية(١)

شق صدره ﷺ

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه –: «أن الرسول ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره)، فقالوا: إن محمدًا قد قُتِلَ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره»(٢).

وقد أشفقت ظئره أن يكون حدث له حادث سوء فأسرعت به عائدة على أمه في مكة وقالت لها: أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي جرى، فطمأنتها أمه وقالت: إني رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام، والأرجح أن هذه الحادثة وقعت للرسول ﷺ وعمره أربع سنوات(٣)(٤).

---

(١) من كتاب: فقه السيرة – زيد عبد الكريم الزيد.

(٢) الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ١٤٧)، كتاب الإيمان، حديث رقم: (٢٦١).

(٣) انظر: محمد أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ١٩٢).

(٤) متفق عليه: واللفظ للبخاري، صحيح البخاري المطبوع من فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢٠١ – ٢٠٢)، رقم: (٣٨٨٧)، وصحيح مسلم (١/ ١٤٩)، رقم: (٢٦٤).

* ماذا نستفيد من حادثة شق صدره ﷺ؟:

(١) في هذه الحادثة التي جرت للرسول ﷺ عيانًا وشهدها بعض الأفراد إشارة إلى الإعداد والتهيئة للرسول ﷺ بأمر يعرفه الناس، فقد أجرى للرسول ﷺ عملية تطهير لقلبه بإزالة تلك العلقة السوداء، ثم غسل القلب بماء زمزم، فهو تطهير معنوي أخذ الشكل الحسي المادي الذي يطلع عليه الناس ويرونه؛ لكي يحقق اطلاع الناس ومعرفتهم بتميزه عنهم(١)، وإنما كان ذلك إعظامًا وتأهبًا لما سيلقى عليه لا لإزالة أمر مستقذر لكمال خلقه(٢).

(٢) في هذه الحادثة إشارة إلى عصمة الرسول ﷺ منذ صغره، فقد أزيل منه حظ الشيطان وهو لا يزال طفلاً مما يعني أنه ﷺ سينشأ نشأة لا نصيب للشيطان فيها، محفوظًا حفظًا خاصًا يميزه عن غيره من الناس(٣).

يقول ابن حجر – رحمه الله تعالى – عن هذه القصة: (وكان هذا في زمن الطفولة فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان)(٤).

(٣) في حادثة شق الصدر درس في حدود العقل، فإلى أي حدود نعمل عقولنا في النصوص الواردة وكيف نتعامل مع هذه النصوص؟.

في كل ما يرد من الشرع قرآنًا كان أو سنة نبوية ثابتة فدورنا هو التسليم له دون التعرض لهذا النص بالتأويل الصارف له عن حقيقته، وقد تاه في هذا الأمر أقوام اعتمدوا على عقولهم، وغفلوا عن واجب المسلم تجاه النص

---

(١) انظر: الشامي، سبل الهدي والرشاد (١/ ٤٢١، ٢/ ٩٠)، وأبو شهبة، السيرة النبوية (١/ ١٩٩).

(٢) انظر: الزرقاني، شرح المواهب (٨ / ٦٧).

(٣) انظر: مساعد الحميد، هامش دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٢٥٤).

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٠٥).

الألوكة
www.alukah.net

الشرعي، يقول ابن حجر - رحمه الله تعالى - : (وجميع ما ورد في شق الصدر، واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك)[١].

يقول ابن القيم في نونيته:

تـبـًـا لهـاتـيـك الـعـقـول، فـإنهـا
والله قـد مـسـخـت عـلى الأبـدان
تـبـًـا لمـن أضـحـى يـقـدمـهـا
عـلى الآثـار والأخـبـار والـقـرآن[٢]

والعقل دائمًا لا يستقل بالعمل في الأمور الشرعية بل عمله تحت ضوء النص، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (والطريق إلى ذلك «أي: إلى النجاة» الرواية والنقل؛ إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة)[٣].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٠٥).

(٢) ابن القيم، نونية ابن القيم ص (١٤).

(٣) ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع ابن قاسم (١/ ٦).

زواجه ﷺ بخديجة - رضي الله عنها -:

كانت خديجة بنت خويلد – رضي الله عنها – امرأة حازمة شريفة، من أوسط قريش نسبًا، وأكثرهم مالاً، وكانت تستأجر الرجال يخرجون بمالها للتجارة في قافلة قريش مضاربة بشيء تجعله لهم.

فلما بلغها صدق الرسول ﷺ وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، رغبت في أن يخرج بمالها إلى الشام يتاجر به فقبل ذلك، وخرج مع غلام لها يقال له: ميسرة.

وكان عمره خمسًا وعشرين سنة، وعمرها أربعين سنة.

وقد تعددت الروايات في كيفية الخطبة ومن الذي تولى عقد الزواج والأكثر على أن الذي تولى عقد الزواج هو عمها عمرو بن أسد، وكانت خديجة قد تزوجت قبل زواجها برسول الله ﷺ مرتين، زوجها الأول هو عتيق بن عائذ المخزومي، ثم زوجها الثاني أبو هالة ابن النباش التميمي(١).

فضل خديجة بنت خويلد – رضي الله عنها – :

١ – قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة»(٢) وأشار وكيع إلى السماء والأرض، قال النووي: (أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير في نسائها، وأن المراد به جميع نساء الأرض أي كل من بين السماء والأرض من النساء، والأظهر أن معناه أن كل واحد منهما خير نساء الأرض في عصرها، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه، قال القاضي:

---

(١) انظر: الشامي، سبل الهدي والرشاد (٢/ ٢٢٢)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ١٩٠، ١٩١)، والحاكم: المستدرك (٣/ ١٨٢)، وفي عمره ﷺ وعمر خديجة – رضي الله عنها – خلاف، وما ذكرته هو ما عليه الجمهور.

(٢) متفق عليه، الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ٤٧٠)، حديث رقم (٢٤٣٢)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٦)، حديث (٢٤٣٠).

الألوكة
www.alukah.net

ويحتمل أن المراد أنها من خير نساء الأرض، والصحيح الأول).

٢- عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة، وإني لم أدركها، قالت: وكان النبي ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة»، فأغضبته يومًا فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني قد رُزقت حبها»[١]، قال النووي - رحمه الله تعالى - : قوله ﷺ: «رُزقت حبها» فيه إشارة إلى أن حبها فضيلة حصلت[٢].

٣- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: (أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها - عز وجل - ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب[٣] لا صخب فيه ولا نصب[٤])[٥].

وخديجة - رضي الله عنها - هي التي آمنت بالرسول ﷺ عندما كفر به الناس، وصدقته عندما كذبه الناس، وهي التي رزق منها الولد دون غيرها من زوجاته، قال ابن حجر - رحمه الله تعالى - : (ومما اختصت به سبْقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان، فسنت ذلك لكل من آمن بعدها فيكون لها مثل أجرهن لما ثبت «أن من سن سنة حسنة» وقد شاركها في ذلك أبو بكر الصديق بالنسبة للرجال، ولا يعرف قدر ما لكل منهما من الثواب بسبب ذلك إلا الله عز

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٩٨).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١٥/ ٢٠١).

(٣) القصب هنا: اللؤلؤ المجوف الواسع كالقصر المنيف.

(٤) ولا نصب أي: لا مشقة ولا تعب. النووي: شرح صحيح مسلم (١٥/ ٥٧١- ٥٧٢).

(٥) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٧)، حديث رقم (٢٤٣٢).

وجل)[١].

ماذا نستفيد من زواج الرسول ﷺ بخديجة بنت خويلد؟

١- لقد سمعت خديجة - رضي الله عنها - الكثير من الأخبار عن صدق الرسول ﷺ، وعن أمانته، فبعثت إليه؛ ليتاجر لها، وبعثت معه غلامها ميسرة، فعاد هذا الغلام يحدثها بما رأى عيانًا من الصدق والأمانة، وحسن الخلق، هذا يدلنا على رجاحة عقل هذه المرأة التي بادرت إلى التعامل مع الرسول ﷺ لما علمت أمانته وازدادت قناعتها بأمانته وصدقه لما أخبرها غلامها ميسرة الذي سافر مع الرسول ﷺ مدة من الزمن ورأى منه في السفر الصدق والأمانة.

وقد شهد رجل عند عمر - رضي الله عنه -، فقال: من يزكيك؟ قال رجل: أنا، فقال: هل سافرت معه؟ فقال: لا، قال: عاملته بالدرهم والدينار؟ قال: لا، قال: والله الذي لا إله إلا هو ما تعرفه[٢]، فالسفر هو الذي يكشف حقيقة الرجل، ويظهر خفاياه.

ولذلك فالداعية يأخذ من أناة خديجة - رضي الله عنها- درسًا دعويًا مفيدًا في التأني وعدم العجلة.

يقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح للأشج (أشج عبد القيس): «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[٣]، يقول الإمام النووي - رحمة

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٣٧).

(٢) انظر: ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب ص (٢٣٠).

(٣) صحيح مسلم المطبوع مع شرح النووي (١/ ١٨٩).

الألوكة
www.alukah.net

الله تعالى - في شرحه لهذا الحديث: (وأما الحلم فهو العقل، وأما الأناة فهي التثبت وترك العجلة)(١).

وكان الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمة الله تعالى - يقف عند الناس وهم يطوفون على قبر زيد بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قرب العيينة ويقول: (الله خير من زيد) ويكتفي بهذه العبارة، فلم يتعجل في بداية دعوته - رحمه الله تعالى - رغم عظم هذا المنكر، بل هو أعظم المنكرات وهو الشرك(٢).

٢- ورد في بعض كتب السير أن زواج الرسول ﷺ بخديجة - رضي الله عنها - كان بدايته عرضًا من بعض معارفها على الرسول ﷺ الزواج منها - وأيًا كان الأمر - فهو يذكرنا بأهمية حرص الأولياء على تزويج بناتهم ولو عن طريق العرض، فقد كسبت خديجة - رضي الله عنها - بهذا الزواج شرفًا عظيمًا، وأصبحت زوجة لأفضل الخلق، وأمًا للمؤمنين ولقد رأينا هذا العرض يرد في القرآن الكريم في قصة موسى - عليه السلام - مع صاحب مدين: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٧] ، فإن هذا الولي لهاتين البنتين لما رأى هذا الرجل الصالح موسى - عليه السلام - سعى إليه، واجتهد في تزويجه إحدى ابنتيه رغبة في كسب الرجل الصالح ولم ينتظر حتى يأتي الخاطب.

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١/ ١٨٩).

(٢) انظر، الشيخ عبد الرحمن بن حسن خمس رسائل في التوحيد والإيمان (الرسالة الأولى أصل دين الإسلام وقاعدته ص ٣٣٩، مطبوعة ضمن مجموعة التوحيد).

وفي السيرة نجد أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يعرض ابنته على عثمان بن عفان – رضي الله عنه –، ويعرضها على أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –، ثم يتزوجها الرسول ﷺ [(١)].

ولذلك فإن من حق بناتنا وأخواتنا أن نسعى لهن في الزواج، ومجتمعاتنا الإسلامية يكثر فيها البنات العوانس اللاتي بقين بلا زواج بسبب أن الأب أو الأخ الأكبر لا يتحرك لبناته أو لأخواته، يطلب لهن الشاب الصالح، ويرى في ذلك عيبًا أو نقصًا ولكن على الرجل أن يحسن طريق عرض ابنته أو أخته على من يريد، وأن يكون العرض غير مباشر، وبطريقة تحمي الفتاة والأسرة بكاملها من أن يساء إليها فيما بعد.

٣- إن في هذا الزواج درسًا في أهمية اختيار الرجل للزوجة الصالحة والمرأة للزوج الصالح، فالرسول ﷺ كما نرى اختار امرأة عمرها أربعون عامًا أي تكبره بخمسة عشر عامًا، وقد تزوجت قبله مرتين، ومع ذلك يختارها زوجة له؛ لطهارتها وعفتها.

وخديجة – رضي الله عنها – يتقدم لها الكثير من أشراف قريش وسادتها، وهي المرأة الغنية ولكنها ترفض، وعندما عرفت الأخلاق العالية والصفات الحميدة في محمد ﷺ حرصت عليه ورغبت فيه.

إذًا: هناك نقطة التقاء في اختيار الزوج واختيار الزوجة، أكدها حديث الرسول ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[(٢)].

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٨/ ٣٠).

(٢) صحيح البخاري، تحقيق مصطفى البغا (٥/ ١٩٥٨).

وفي المقابل، قال ﷺ مخاطبًا الأولياء: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[(١)]، فالرجل قدوته الرسول ﷺ في اختيار الزوجة، والمرأة قدوتها خديجة - رضي الله عنها - في اختيار الزوج.

٤- لقد كان لهذا الزواج الذي تم وفق الاختيار السليم آثار عظيمة جدًا.

فقد كانت خديجة - رضي الله عنها - البيت الذي يأوي إليه الرسول ﷺ بعد عناء الدعوة، وحسبنا موقفها في أول يوم من أيام البعثة حينما طمأنته، وقالت له: (كلا والله لا يخزيك الله أبدًا)، وكان يؤذى وهو يدعو إلى الله، فإذا عاد إلى المنزل وجد المرأة التي تطمئنه، وتشد من عضده وتثبته، ولم تكن المرأة اللوامة العائقة عن الدعوة إلى الله.

ثم أيضًا، كان موقف الرسول ﷺ معها أكمل الوفاء، فقد كان يكثر ذكرها بعد موتها، ويصل أقاربها، حتى كانت عائشة - رضي الله عنها - تغار من ذلك كما مر في فضائل خديجة - رضي الله عنها - ، وهنا نصل إلى الدرس الثاني من هذا الزواج وهو: الوفاء الذي ينبغي أن يكون بين الزوجين، فالمرأة تحفظ زوجها في حضوره وغيابه، وتسانده، وتعينه في عمله، وتثبته، ولا تكون امرأة لوامة كثيرة المشكلات مع زوجها؛ لأنه يواجه المعاناة في الخارج، ويأتي إلى المنزل والمسكن يريد السكون والراحة فيواجه بالإزعاج أيضًا وعدم السكون والراحة، وتلك أخطاء يقع فيها البعض من النساء اللاتي يغفلن عن التأسي بخديجة - رضي الله عنها -.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (١/ ٦٢٢) وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٣٣٣)، رقم: (١٦٠١).

والزوج أيضًا يكون وفيًا لزوجته، قائمًا بحقوقها، وكثيرًا ما يطالب الفرد زوجته بحقوق هو لم يقدمها لها، يقصر في حقوق زوجته، ويطالب زوجته بأن تؤدي له الحقوق كاملة، وما أكثر هذا في بعض مجتمعات المسلمين، يقول الشيخ محمد العثيمين - رحمه الله تعالى - عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ [المطففين].

وهذا المثال الذي ذكره الله - عز وجل - في الكيل والوزن هو مثال، فيقاس عليه كل ما أشبهه، كل من طلب حقه كاملاً ممن هو عليه، ومنع الحق الذي عليه، فإنه داخل في الآية الكريمة، فمثلاً الزوج الذي يريد من زوجته أن تعطيه حقه كاملاً، ولا يتهاون في شيء من حقه، لكنه عند أداء حقها يتهاون ولا يعطيها الذي لها، وما أكثر ما تشتكي النساء من هذا الطراز من الأزواج والعياذ بالله.

كذلك أيضًا، نجد بعض الناس يريد من أولاده أن يقوموا بحقه على التمام، لكنه مفرط في حقهم، فيريد من أولاده أن يبروه ويقوموا بحقه، لكنه هو مضيع لهؤلاء الأولاد، غير قائم بما يجب عليه نحوهم، نقول: هذا مطفف)[1].

٥- لن نقف مع زواج الرسول ﷺ من خديجة - رضي الله عنها - وبقائه معها قرابة خمسة وعشرين عامًا، لنجيب على الذين حاولوا الانتقاص من مقام الرسول الشريف ﷺ بسبب تعدد زوجاته؛ وذلك لأننا نوقن تمامًا أنه رسول الله ﷺ المصطفى من عند الله جل شأنه الذي هو أولى بالمؤمنين من

(١) محمد العثيمين، تفسير جزء عم ص (٩٣-٩٥).

الألوكة
www.alukah.net

أنفسهم، وكفانا بل وكفى كل مسلم ذلك؛ لينزه مقام الرسول الكريم ﷺ من كل قول يحاول به أعداء الإسلام النيل من نبينا ﷺ، فمقامه أشرف وأعلى وأسمى من أن نقف ندافع عنه؛ لسقوط كل محاولة بذاتها ونكوصها على صاحبها.

ومهما قالوا وافتروا وبغوا، فيقين المسلم بأنه رسول الله يجعل تلك الافتراءات لا قيمة لها ولا اعتبار، ولا تستحق أن ينشغل المسلم بالرد عليها، لإدراكه بأنها سير على منهج كفار قريش، وظلمة يهود في عصر الرسالة.

الجهر بالدعوة

مرت ثلاث سنوات على الدعوة وهي لا تزال سرية وفردية، تكوَّن خلالها جماعة من المؤمنين استجابوا للرسول ﷺ واتبعوه، ثم نزل على الرسول ﷺ الأمر بالجهر بالدعوة، أمر أن يعلن دعوته، وأنه نبي مرسل، ولم يجهر بأسماء الصحابة، ولا بمن اتبعه واستجاب له ولا كيف اتبعوه، بل بقي هذا سرًا لا يعلن، خوفًا على من استجاب من إيذاء الكفار واعتداءاتهم.

كان أول ما نزل بشأن إعلان الدعوة هو قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم»(١).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لما أنزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعم وخص، فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة ابن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسكِ من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها»(٢).

عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: (جمع رسول الله ﷺ بني

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١/ ١٩٢)، رقم: (٣٥٠).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ٥٥١)، رقم: (٤٧٧١)، وصحيح مسلم (١/ ١٩٢)، رقم: (٣٤٨) واللفظ له.

الألوكة
www.alukah.net

عبد المطلب، فيهم رهط كلهم يأكل الجذعة[١] ويشرب الفرق[٢] قال: وبقي الطعام كما هو لم يمس، ثم دعا بغمر[٣] فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس، أو لم يشرب، فقال: يا بني عبد المطلب إني بعثت لكم خاصة وإلى الناس عامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟ قال: فلم يقم إليه أحد! قال: فقمت إليه، وكنت أصغر القوم، قال: فقال: اجلس، ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: اجلس، حتى كان الثالثة ضرب بيده على يدي)[٤].

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟)» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبًا لك، ما جمعتنا إلا

---

(١) الجذعة: لغة: من الضأن أو الماعز ما تم له سنة أو أكثر السنة، أما في الاصطلاح الشرعي ففيه تفصيل، انظر: سعدي أبو جيب، القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا ص (٥٩).

(٢) الفرق بفتح الفاء والراء: مكيال يسع ستة عشر رطلاً هو اثنا عشر مدًا، أو ثلاثة آصع عند أهل الحجاز، انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٣٧) وهذا يعني أنه إناء كبير يكفي لإرواء الجمع من الناس.

(٣) الغمر بضم الغين المعجمة، وفتح الميم: القدح الصغير، انظر: البناء، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (٢٠/ ٢٢٤).

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند، انظر: البناء، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (٢٠/ ٢٢٣)، وقال البناء: (أورده الهيثمي مطولاً، وقال رواه البزار واللفظ له، وأحمد باختصار، والطبراني في الأوسط باختصار أيضًا، ورجال أحمد وأحد إسنادي بالبزار رجال الصحيح غير شريك وهو ثقة) بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (٢٠/ ٢٢٤)، وانظر: السيرة النبوية الصحيحة للصوياني ص (٧٢)، وقال فيها: إسناده قوي.

لهذا؟ ثم قال، فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[(١)].

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : «وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله تعالى مستخفيًا، ثم نزل عليه : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، فأعلن ﷺ بالدعوة وجاهر قومه بالعداوة واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين»[(٢)].

* نقف مع هذا الدرس من السيرة؛ لنأخذ منه ما يلي:-

(١) إن الرسول ﷺ قضى ثلاث سنوات يدعو إلى الله سبحانه وتعالى سرًا، ثم بعد ذلك أعلن دعوته، وجهر بها للناس من عشيرته ومن غيرهم، وكانت الدعوة سرية وجهريه تركز على ربط الناس بالله جل شأنه، فلا تتعلق القلوب بغيره، ولا ينفع الفرد قبيلته، أو عشيرته، كل ذلك فيه توجيه للناس إلى توحيد الله، وإفراده بالعبودية، وتلك قضية مهمة، هي قضية العقيدة التي تعني تقرير العبودية لله سبحانه وتعالى، فلا تعبد إلا إياه، ولا تخضع إلا له سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، نأخذ هذا من قوله تعالى: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، فكلها آيات بيان، آيات دعوة توضح أن أهم قضية وأول قضية دعا إليها الرسول ﷺ هي قضية التوحيد وهي قضية الرسل قبله، برهان هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥]، وكذلك ينبغي أن تكون هي قضية كل داعية إلى الله سبحانه وتعالى.

فالتوحيد إذا صلح، صلح ما بعده من الأعمال، وإذا لم يتحقق التوحيد،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري (٨/ ٧٣٧)، كتاب (٦٥)، باب (١١١)، رقم: (٤٩٧١).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٦).

الألوكة
www.alukah.net

فلا قيمة لأي عمل دونه: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - : «كلما كان توحيد العبد أعظم كانت مغفرة الله له أتم، فمن لقيه لا يشرك به شيئًا البتة غفر الله له ذنوبه كلها كائنة ما كانت ولم يعذب بها»[(١)].

ويقول أيضًا - رحمه الله تعالى - في زاد المعاد: «ولما كان المشرك خبيث العنصر خبيث الذات لم تطهر النار خبثه، بل لو خرج منها لعاد خبيثًا كما كان، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه؛ فلذلك حرم الله على المشرك الجنة»[(٢)].

فلذلك نقول لكل داعية إلى الله تعالى: عليك بالتوحيد، ابدأ به وأصلح عقائد الناس، فهي القضية الأساسية لكل مهتد بهدي الرسول ﷺ.

(٢) في البدء بالأقربين مع أن رسول الله ﷺ رسول للأمة بكاملها، توضيح لدرجات مسؤوليات الشخص[(٣)] التي تبدأ من الأهل والأقارب، فالشخص مسؤول عن أهله زوجته، وأولاده، ووالديه، وأقاربه، كل من يتذكر قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ يعلم أنه مطالب هو أيضًا بدعوة عشيرته أكثر من غيرهم، ومع ذلك تجد بعض الأفراد يقصر في حق أهله وينشط مع غيرهم، وهذا قفز وتجاوز لدرجات المسؤولية التي هي آكد مع الأقارب منها مع سائر الناس.

وليسأل كل فرد منا نفسه: ماذا قدم لأولاده وزوجته الذي هم تحت يديه؟ يأمرهم فيطيعون، وينهاهم فينتهون، هل أمرهم بالطاعات، ونهاهم عن المعاصي أم هو غافل عنهم؟ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا

---

(١) عبد المنعم بن صالح العلي، تهذيب مدارج السالكين لابن القيم ص (١٨٦).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٦٨).

(٣) انظر: البوطي، فقه السيرة ص (١١٢).

﴿ يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

والرسول ﷺ قد قرر هذا المنهج وهو البدء بالأقرب فالأقرب في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ثم ختمت هذه الآيات بقول الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٧] لا يهمك عداوة أقاربك لك بسبب دعوتك بل اتكل على الله، واعتمد عليه، ولا تجامل أقاربك رجاء نصرة أو عون.

(٣) نلحظ كلمة مهمة تكررت في الأمر بالدعوة وهي قوله تعالى: ﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ كلمة ﴿ فَأَنذِرۡ ﴾ هذه وردت أيضًا في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾، ووردت أيضًا في قوله ﷺ لعشيرته وأهل مكة عندما اجتمعوا حيث قال: «إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد». فلابد أن يذَّكر الناس بهذه الحقيقة وهي الإنذار بالعذاب والإنذار بشدة الحساب، فمن استجاب يبشر بموعود الله سبحانه وتعالى للمستجيبين.

(٤) يقول تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ ما هو الصدع؟

تقول: انصدع الجبل، أو الجدار: إذا انشق، فالصدع فيه معنى القوة والصلابة والوضوح، وهكذا يكون المسلم حينما يدعو إلى ربه دعوة الواثق من قوله الذي يعلو بها ويرفع بها صوته، لا يخجل ولا يستحي من عرض دينه أو الحديث عنه.

إن بعض الشباب المسلم تجده قليل الثقة بدينه، يستحي من ذكر الله سبحانه وتعالى في المجالس، يستحي حتى من الصلاة على النبي ﷺ، يجامل المجاملات الكثيرة على حساب هذا الدين، يخشى أن يقال: إنه موسوس، أو متزمت، أو رجعي، طاعته في انفراد جيدة، لكنه إذا كان في المجالس ضعف، تجده في المجلس ويؤذن المؤذن للصلاة ويخجل أن يأمر الناس بالصلاة، يمر الوقت صعبًا، ويشعر بالخطأ والتقصير لكنه لا يستطيع المواجهة.

الألوكة
www.alukah.net

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – وقد صنف الناس إلى أربعة أصناف، فقال: (من وجد أنسه بالله في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق، ومن وجد أنسه بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومن فقده في الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن فقد أنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف)(١).

إن مشكلتنا مع هذا الصادق الضعيف الذي نريد أن نذكره بقوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ هل معنى الصدع أن يستحي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يستحي من الدعوة إلى الله؟

إن القرآن الكريم يربي في نفس المؤمن الاعتزاز بهذا الدين ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾[النساء].

وإني لأعجب من تلك العزة الإيمانية التي بدت جليه لسحرة فرعون، جاؤوا يناصرون فرعون ويعادون موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء].

لكن لما ألقوا حبالهم وعصيهم ثم عرفوا الحق وآمنوا به؛ هل أصبحوا مؤمنين ضعفاء؟ لا، بل قالوا الحق ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الشعراء].

---

(١) ابن القيم، الفوائد ص (٤٣).

هددهم بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم وسيصلبهم إن لم يرجعوا عن الإيمان بموسى - عليه السلام -، فماذا قالوا؟: ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١ ﴾ [الشعراء].

هكذا آمنوا إيمان القوي الواثق من دينه، فما كانوا مؤمنين ضعفاء يستحيون من دينهم وكأنهم على باطل وغيرهم على الحق.

(٥) عندما صعد الرسول ﷺ على جبل الصفا؛ ليجمع عشيرته حوله؛ ليسمعوا كلامه قال: (واصباحاه) وهذه كلمة جاهلية اعتاد عليها العرب في الجاهلية، ولكنهم كانوا أيضًا مع قول هذه العبارة يخلع الرجل منهم ثيابه، ويحثو التراب على نفسه، وذلك لكي يجتمع الناس عليه، ثم يخبرهم بالخطر الداهم الذي ينتظرهم.

وهنا نلحظ أن الرسول ﷺ لم يتخل عن هذه الطريقة بكاملها فلم يصعد على الصفا وينادِ بطريقة جديدة ويترك طريقتهم، ثم لما أراد الاستفادة لم يكن تقليدًا كاملاً، فلم يتعر ولم يحث على نفسه التراب، وبالتالي فقد استفاد مما لدى الغير استفادة منضبطة بما لا يتعارض مع دينه، فكلمة (واصباحاه) ليست ممنوعة، وإنما الممنوع أن يتعرى الإنسان في مثل هذا الموقف أو أن يحثو على نفسه التراب، فأخذ الذي لا يعارض الدين واستفاد منه وترك ما يعارضه، وهكذا أيضًا المسلم يأخذ مما لدى الغير ما يكون حسنًا لا يخالف الدين ويترك ما يخالف الدين، فالاستفادة من الغير تكون وفق هذا المعيار، فلا يكون الشخص منغلقًا رافضًا لكل ما لدى غيره، أو منفتحًا مقلدًا لكل ما يجري لدى الآخرين، وإنما الاعتدال وأخذ الحسن وترك السيئ.

(٦) لماذا هذه المواجهة القوية من أبي لهب وهذا العداء المعلن في أول لحظة؟ وذلك لكي يتضح للجميع أن هذه الدعوة ليست دعوة عشائرية أو

عصبية قبلية، بل هو دين ورسالة من الله تعالى إلى خلقه من الإنس والجن[(١)].

(٧) في قول أبي لهب: تبًا لك، ألهذا جمعتنا؟ فائدة كبيرة لكل من يدعو إلى الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ ذلك أنه سيجد من يقول له مثل هذا الكلام، فيتذكر قول أبي لهب لرسول الله ﷺ أمام الناس ومع ذلك لم يمنع هذا الأمر الرسول ﷺ من المضي في دعوته، فإذا أمرت بمعروف، أو نهيت عن منكر، أو نصحت، أو تكلمت عن الدين فوجدت من يعارضك فلا تتضايق، بل تذكر أن مثل هذا القول بل أشد منه قيل لرسول الله ﷺ، فالعيب والنقص ليس فيك أيها الداعية، وإنما الخطأ من القائل الذي قال ذلك.

(٨) الإعجاز العظيم في هذه السورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ إنا أبا لهب لا يزال حيًا وقت نزول هذه الآيات، ومع ذلك حكم عليه القرآن الكريم بأنه لن يأتي إلى محمد ﷺ ويقول له: إني آمنت، إن مثل هذا الحكم على رجل لا يزال حيًا لا يمكن أن يصدر من بشر؛ لأن بإمكان أبي لهب أن يأتي ويقول: إن محمدًا حكم عليَّ أني لن أؤمن ، وها أنا ذا أؤمن.

وكذلك من أخبر محمدًا ﷺ أن أبا لهب سيموت على الكفر؟

إن بعض أهل مكة كانوا يؤذون الرسول ﷺ ومع ذلك لم يحكم عليهم الرسول ﷺ بالنار، ومنهم من جاء إلى الرسول ﷺ وأسلم.

من أخبر الرسول ﷺ أن أبا لهب لن يكون من هؤلاء؟

إن هذا الحكم: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ لا يمكن أن يصدر من محمد ﷺ إلا بخبر ممن يعلم الغيب سبحانه وتعالى، فكان في هذه الآية إعجاز عظيم

---

(١) انظر: أبو زهرة، خاتم النبين (١/ ٤٠٦).

ورد قوي على من يقول: إن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ.

(٩) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥] أمر عجيب، ذلك أن من لديه سلطان قد يقول لك: أنا أحميك، لا يستطيع أحد أن يمد يده إليك، أحميك من اعتداء الناس عليك، لكنه مهما كانت قوته لا يستطيع أن يقول: أنا أكفيك المستهزئين؛ لأن الاستهزاء يأتي بإشارة بالعين أو بحركة باليد، أو بكلمة أو بنكتة أو بضحكة أو بتعليق يفهمه البعض الآخر، ومن يستطيع أن يحصي هذا؟!!.

لكن الله سبحانه وتعالى، يقول: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ بصيغة الماضي الذي وقع وتحقق، والآية تقول: كفيناك، ولم تقل: إنا نمنع؛ لأن الاستهزاء وقع، لكن الله سبحانه وتعالى كاف رسوله، ثم في هذه الآية إشارة لطيفة وهي: أن الله كفاك المستهزئين أقدر من باب أولى[1] على كفايتك من أولئك الذين يؤذونك أذى حسيًا مشهودًا.

(١٠) في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الحجر]، الآية تشير إلى أن الرسول ﷺ يضيق صدره بسبب أقوالهم المعاندة للدين، وقد بين الله سبحانه وتعالى له الحل في ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الحجر]، فإذا ضاق صدرك فسبح، وهذا هو أيضًا الحل لكل من يضيق صدره في كل أمور حياته، وكثيرًا ما نجد الشخص يشتكي ضيقة الصدر من قول قيل له، أو من قول قاله، أو عمل عمله، أو من خطأ ارتكبه، فما الحل لضيق الصدر هذا؟

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٤/ ٨٩).

الألوكة
www.alukah.net

الحل هو في قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ العلاج الذي نزل به الوحي لإزالة ضيق صدر الرسول ﷺ، وهو أيضًا العلاج لكل من يواجه ضيقًا في صدره في وقتنا الحالي.

فقه السيرة في المقاطعة العامة
ودخول الرسول ﷺ في شعب أبي طالب

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: «قال النبي ﷺ من الغد يوم النحر – وهو بمكنى – : نحن نازلون غدًا بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر يعني بذلك المحصب، وذلك أن قريشًا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب – أو بني المطلب – أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ»[١].

في هذا الحديث دلالة على أصل القصة، وما أورده أهل المغازي كالشرح لقول الرسول ﷺ السابق: «تقاسموا على الكفر»[٢] وبيان ذلك أن قريشًا لما رأت إسلام حمزة وعمر – رضي الله عنهما – وفشوا الإسلام في القبائل، ثم تواثق بني المطلب وبني هاشم على حياطة الرسول ﷺ، ومنعه مسلمهم وكافرهم، مسلمهم إيمانًا، وكافرهم حمية، لما رأت قريش ذلك اجتمعوا وتحالفوا على أن لا يناكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا يبايعوهم ولا يكلموهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في الكعبة[٣]، قال ابن إسحاق: فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب وكانوا معه كلهم إلا أبا لهب فكان مع قريش[٤]، وكان ابتداء

---

(١) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٣/ ٤٥٣)، رقم: (١٥٩)، واللفظ له، والإمام مسلم، صحيح مسلم، (٢/ ٩٥٢)، رقم: (١٣١٤).

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٣).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧٢)، والنجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى (١/ ٢٨٢).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧٢)، وبن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٢).

الألوكة
www.alukah.net

حصارهم في أول يوم من المحرم سنة سبع من البعثة(١).

واشتد الحصار وقطعت عنهم الطعام، فلم يكن المشركون يتركون شيئًا يصل إليهم في الشعب، يقول ابن القيم: (وبقوا محبوسين ومحصورين مضيقًا عليهم جدًا مقطوعًا عنهم الميرة والمادة نحو ثلاث سنين حتى بلغهم الجهد وسمع أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشعب).(٢)

واستمر الحال على ذلك حتى سعى في نقض الصحيفة ورفع هذا الظلم بعض أقارب من كان في الشعب وكان في مقدمة هؤلاء، هشام بن عمرو بن الحارث، والمطعم بن عدي، وزهير بن أمية، وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود، فاتفقوا فيما بينهم على نقض الصحيفة، وروي أن الله سبحانه وتعالى أطلع رسوله ﷺ على أمر صحيفتهم وأنه أرسل عليها الأرضة فأكلت جميع ما فيها من جور وظلم وقطيعة، فأخبر بذلك عمه فأخبر كفار قريش، فلما رأوا الأمر كما اخبرهم أبو طالب زادوا كفرًا على كفرهم، وخرج الرسول ﷺ ومن معه من الشعب في العام العاشر من المبعث، بعد أن مكثوا في الشعب ثلاث سنوات(٣).

- نقف مع هذا المقطع من السيرة، لنستفيد منه ما يلي:

أولاً: يكشف لنا هذا الحدث مدى ما وصلت إليه قريش في عداوتها للرسول ﷺ وأصحابه، ومدى ظلمها وجورها، فلم يقتصر أذاها على أمور

---

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٢).

(٢) ابن القيم: زاد المعاد (٣/ ٣٠).

(٣) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٢/ ٣٠-٣١)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٢)، والشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٥٠٢-٥٠٦)، وقال الدكتور مهدي رزق الله أحمد في السيرة النبوية ص (٢١٩): (ولم يرد خبر أكل الأرضة للصحيفة بسند يحتج به).

معدودة، بل أذى شديد متواصل يمتد ثلاث سنين في شعب من الشعاب، يشمل الصغير والكبير، والمرأة والرجل، والرضيع والشيخ الكبير، كلهم دخلوا الشعب وحصروا، ومنع عنهم الطعام والشراب، فأية قسوة وأي جور أعظم من هذا الجور والظلم؟!.

الإسلام - هذا الذي واجهوه بهذا العنف الشديد - دين الشفقة والرحمة حتى مع المخالفين، بل حتى مع بعض فئات المحاربين، فعن نافع عن ابن عمر - رضي الله تعالى عنهما - أخبر أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان،(١) ونهى الإسلام عن قتل الشيخ الكبير والراهب في صومعته.

أما أعداء الدين فيقول الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨].

ثانيًا: من مواقف المقاطعة هذه تتبين صورة جلية لما لاقاه الرسول وأصحابه - رضوان الله تعالى عليهم - من أذى واضطهاد في دين الله، والرسول ﷺ لا يقدم لأمته الأسوة في السراء فقط، بل يقدمها لهم في السراء وفي الضراء، فكما يقتدى به ﷺ في السراء يقتدى به في الضراء وفي مواجهة الشدائد.

ثالثًا: نأخذ من ظهور أفراد من كفار قريش يستنكرون أمر المقاطعة، ويطالبون بنقض الصحيفة، ويحتجون، ويعترضون على استمرارها، أن الباطل مهما طال الزمان فسينكشف، فالزمان يزيد الحق وضوحًا ويزيد الباطل زيفًا؛

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وصححه الألباني، صحيح سنن الترمذي (٢/ ١١٠)، حديث رقم: (١٢٧٥).

الألوكة
www.alukah.net

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[الإسراء].

ولقد انتهت المقاطعة على نحو فرَّق كلمة قريش وأوقع الصدام والنزاع بينهم، وأظهر صبر الرسول ﷺ وأصحابه وقوتهم وثباتهم على نحو أقوى مما كانوا عليه من قبل.

رابعًا: أن أهل المروءة والكرم قلما يخلو منهم زمان من الأزمنة، وهؤلاء يمكن الاستفادة منهم في نصرة هذا الدين، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن الرسول ﷺ قال: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»(١).

خامسًا: من مقاطعة الكفار للمسلمين نرى صورة من صور الحرب التي كانت تكيدها قريش للرسول ﷺ، وهي الحرب الاقتصادية، فكفار مكة حينما أرادوا أن يحاربوا النبي ﷺ لم يحاربوه بالسلاح وإنما كانت حربهم له حربًا اقتصادية بالمقاطعة، قاطعوه وقاطعوا أهله وقبيلته ومن تابعه، بيعًا وشراءً وتزويجًا، والمسلمون أولى أن يعرفوا قيمة هذه الحرب وأن يقاطعوا كل أعداء الله المحاربين للمسلمين، وليس بالضرورة أن يكون جهاد الأعداء المحاربين بالسلاح، فعلى الأقل بالمقاطعة الاقتصادية في كل ما ينفعهم اقتصاديًا أو ماديًا أو تجاريًا؛ لأن عدم المقاطعة مع العدو المحارب للمسلمين مؤداه التأييد المادي لحربه للمسلمين، ولا يكون المسلم عونًا لكافر في حرب على المسلمين.

---

(١) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦- ١٨٩)، كتاب الجهاد، باب عن يؤيد الدين بالرجل الفاجر، رقم: (٣٠٦٢)، والإمام مسلم ، صحيح مسلم (١/ ١٠٥)، حديث رقم: (١٧٨).

وقفة مع وفاة أبي طالب

لما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشًا خبر مرضه، وقد أسلم حمزة وعمر - رضي الله عنهما - وفشا أمر الرسول ﷺ في قبائل قريش، مشي وفد من قريش إلى أبي طالب وقالوا له: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك، وطلبوا من أبي طالب أن يكف محمدًا ﷺ عن دعوتهم، فلما حضر الرسول ﷺ قال: أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم، فقال أبو جهل ما هي؟ وأبيك نعطيك عشر كلمات قال: تقولون: لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دون الله، فقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا، فنزل قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾، إلى قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾[1].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة» قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[2][3].

---

(١) انظر: سنن الترمذي (٥/ ٤٤)، حديث (٣٢٨٥) وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح. وضعفه الألباني في سنن الترمذي وقال: (ضعيف الإسناد) ص (٤٠٩)، رقم: (٦٣٦)، والآيات من أول سورة (ص).

(٢) سورة القصص، الآية رقم (٢٥).

(٣) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ١٩٣)، حديث رقم: (٣٨٨٤)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ٥٤)، رقم: (٣٩) واللفظ له.

الألوكة
www.alukah.net

وعن ابن المسيب عن أبيه: «لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ أما والله لأستغفرن لك، ما لم أنه عنك، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، فقال لرسول الله ﷺ: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين»(١).

وعن العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: «هو في ضحضاح(٢) من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»(٣).

وعن عبد الله بن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه»(٤).

---

(١) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ١٩٣)، حديث رقم: (٣٨٨٤)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ٥٤)، رقم: (٣٩) واللفظ له.

(٢) الضحضاح من الماء ما يبلغ الكعب، وهو هنا استعارة والمعنى أنه خفف عنه العذاب. انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٤).

(٣) أخرجه البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ١٩٣)، حديث رقم (٣٨٨٣).

(٤) أخرجه الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ١٩٦)، حديث رقم: (٣٦٢).

وكان موت أبي طالب في السنة العاشرة من البعثة[١]، وعمره حينئذ بضع وثمانون سنة[٢] وكان يذب عن النبي ﷺ ويرد عنه كل من يؤذيه، وهو مقيم مع ذلك على دين قومه ومات على ذلك[٣].

- نقف مع هذا المقطع من السيرة؛ لنأخذ منه الفوائد التالية:

الأولى: عظم هذه الكلمة (لا إله إلا الله) التي تدين بها العرب والعجم، ويحاج بها الرسول ﷺ لعمه لو قالها، هذه الكلمة هي شهادة التوحيد التي هي إفراد الله بالعبادة، فمن أفرد الله سبحانه وتعالى بالعبادة فقد استراح من عبودية الخلق والنظر إلى ما في أيديهم، (وتحقيق التوحيد هو معرفته، والاطلاع على حقيقته والقيام بها علمًا وعملاً، وحقيقة ذلك انجذاب الروح إلى الله محبةً، وخوفًا، وإنابةً، وتوكلاً، ودعاءً، وإخلاصًا، وإجلالاً، وهيبةً، وتعظيمًا، وعبادةً، وبالجملة فلا يكون في قلبه شيء لغير الله، ولا إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله، وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله)[٤].

الثانية: من موقف الكفار حينما قبلوا إعطاء الكلمة التي طلبها الرسول ﷺ، فلما أدركوا أن المطلوب هو قول: (لا إله إلا الله) نكلوا وتراجعوا وقالوا: أتريد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ فهم يدركون معناها، ويعلمون ما يترتب

---

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٤)، وابن حجر، الإصابة (٧/ ١١٥- ١١٦)، وقال في الفتح: (في آخر السنة العاشرة).

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة (٧/ ١١٦).

(٣) يدل على ذلك الأحاديث الصحيحة التي مرت والتي ذكرت أنه في النار وأنه لولا شفاعة الرسول ﷺ لكان في الدرك الأسفل من النار والعياذ بالله.

(٤) الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص (٩٩).

الألوكة
www.alukah.net

على القول بذلك من ترك الأوثان التي يطوفون حولها ويدعونها من دون الله.

فهؤلاء المشركون أعرف بهذه الكلمة من كثير من الناس الذين يقولون: لا إله إلا الله ثم ينقضونها بعملهم، حينما يطوفون حول القبور أو يدعونها أو يقدمون لها القرابين أو يرجون نفعها أو يخافون ضرها، بل من هؤلاء من يطوف حول القبر وهو يقول: لا إله إلا الله ولا يدري مدى التناقض بين القول والعمل، التوحيد هو خلاصته دعوة الأنبياء كافة، من جاء به نجا ومن أشرك بالله فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

الثالثة: لعلنا نتساءل عن الحكمة من بقاء أبي طالب على دين قومه، وموته على ذلك، رغم ما قام به نصرةً ودفاعًا عن الرسول ﷺ، يقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - : (إن الله امتحن قلبه - أي قلب أبي طالب - بحب محمد ﷺ حبًا طبيعيًا لا شرعيًا، وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولتجرؤ عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار)[١].

وقال ابن القيم: (وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دين قومه؛ لما في ذلك من المصالح التي تبدو لمن تأملها)[٢] يعني بذلك أبا طالب.

الرابعة: لقد حرص الرسول ﷺ على عمه وبذل ما استطاع من جهد

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٣/ ٤٥-٤٦)، وانظر: الشيخ محمد بن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية (٢/ ١٧٦).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٢).

لهدايته، ولكن في اللحظات الأخيرة حضر جليس السوء، فكان كلما دعاه الرسول ﷺ لقول: لا إله إلا الله، ذكَّره جلساء السوء ملة عبد المطلب، فأصر عليها، وتمسك بها، ومات عليها، ولم يقل: لا إله إلا الله، وأي حرمان أشد من هذا الحرمان بسبب جلساء السوء الذين كثيرًا ما أضلوا وأفسدوا دون أن يشعر المجتمع بأثرهم إلا بعد فوات الأوان، ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان].

الخامسة: قاتل الله أصحاب السوء، فهم يجرمون في حق من يصاحبون، وبقدر ما كان لأهل السوء من أثر في الختام السيئ لأبي طالب، فقد كان للعادات والتقاليد أثرها في ميتته على الشرك[1]، وقد صرح بهذا الأثر عندما قال للنبي ﷺ: (لولا أن تعيرني قريش لأقررت بها عينك) كما مر قبل قليل.

السادسة: أن العبرة بالخواتيم، فأبو طالب مع كفره طول عمره لو ختم له بالتوحيد لكان الحكم له، وهذا يذكرنا بأهمية الخاتمة فإن العبرة بها، ومن أدرك قيمة الخاتمة في حياته لم يقترف معصية خشية أن يختم عمره بها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

السابعة: مضرة تقليد الآباء والأجداد والتأسي بما كانوا عليه من عادات وتقاليد دون ضابط من الشرع، وأبو طالب كلما دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام أجاب بالتمسك بما عليه الآباء والأجداد ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ

---

(١) انظر: سليمان العودة، السيرة النبوية في الصحيحين عند ابن إسحاق دراسة مقارنة في العهد المكي ص (١٩٩).

الألوكة
www.alukah.net

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٢]، يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – : «وما على العبد أضر من ملك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين، فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه فهو مقطوع وعن فلاحه وفوزه ممنوع»(١).

الثامنة: أن الهداية بيد الله سبحانه وتعالى، وليست بيد أحد من البشر، وليس على الشخص إلا أن يبذل جهده، أما التوفيق للخير فهذا بيد الله سبحانه وتعالى، فمسؤولية المسلم هي هداية الدلالة والإرشاد كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وليس عليه هداية التوفيق كما ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦]، وفي هذا عزاء للمسلم حينما يرى أحيانًا جهوده تذهب سدى، فيذَّكر بموقف الرسول ﷺ مع أبي طالب الذي دعاه وكرر الدعوة ولكن لم يستجب ولم يكتب له الفلاح.

التاسعة: شدة عذاب النار فأبو طالب في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه يغلي من حرها دماغه ومع ذلك فهو أهون أهل النار عذابًا، فكيف بما فوق ذلك ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ ﴾ [الذاريات].

العاشرة: أن أبا طالب مات على الكفر، يدل لذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، قال النووي: «أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب»(٢) ولقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ

(١) عبد المنعم العلي، تهذيب مدارج السالكين لابن القيم ص (١٠٤).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١/ ٢١٥).

لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

فقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت لما قال الرسول ﷺ عن أبي طالب: «أما والله لا ستغفرن لك ما لم أنه عنك»[(١)].

الحادية عشرة: في هذه القصة دلالة على صحة إسلام أو توبة من حضرته الوفاة، فلولا أن الإسلام يصح منه ما طلبه منه الرسول ﷺ، وذلك قبل المعاينة والنزاع، ولو كان في حال المعاينة والنزاع لما نفعه الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾[(٢)].

الثانية عشرة: جاء في الحديث الذي سبق الإشارة إليه (قال أبو طالب آخر ما كلمهم به، هو على ملة عبد المطلب).

قال النووي – رحمه الله تعالى –: (فهذا من أحسن الآداب والتصرفات وهو أن من حكى قول غيره القبيح أتى به بضمير الغيبة؛ لقبح صورة لفظه الواقع)[(٣)].

الثالثة عشرة: حقوق الأقارب ظاهرة في هذه القصة، فقد بذل الرسول ﷺ مزيد اعتناء وحرص على إسلام أبي طالب وذلك لقرابته منه ﷺ، وحق القريب أكثر من حق غيره، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا

---

(١) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ١٩٣)، رقم: (٣٨٨٤)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ٥٤)، رقم: (٣٩) وسبق إيراده كاملاً قبل عدة صفحات.

(٢) سورة النساء، الآية رقم (١٨)، وانظر: النووي، شرح صحيح مسلم (١/ ٢١٤).

(٣) النووي، شرح صحيح مسلم (١/ ٢١٤).

الألوكة
www.alukah.net

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى للرسول ﷺ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فعلى المسلم أن يعطى أقاربه مزيد عناية واهتمام بالدعوة والتوجيه والنصح، ونحن نرى كثيرًا من الناس لهم جهود في الدعوة إلى الله لكنهم مع أقاربهم في غفلة كبيرة عنهم وهذا من التقصير الذي ينبغي أن ينتبه إليه؛ ليتم تلافيه.

الرابعة عشرة: الوفاء من الرسول ﷺ لأبي طالب الذي ساند الرسول ﷺ، وكانت له المواقف الكثيرة التي يحمد عليها، ولما سأل العباس - رضي الله عنه - رسول الله ﷺ عن نفع الرسول ﷺ لأبي طالب مقابل ذلك، بين الرسول ﷺ لعمه أنه لم ينس هذا الصنيع وأنه قد شفع له شفاعةً خاصة[١] جعلته في ضحضاح من النار وهو أهون أهل النار عذابًا، ولولا شفاعة الرسول ﷺ لكان في الدرك الأسفل من النار.

وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم من الوفاء لأصحاب الفضل والاعتراف لهم بالجميل والسعي في مكافأتهم بما يسوغ شرعًا وفق استطاعته.

الخامسة عشرة: أن سبب التخفيف عن أبي طالب مع أنه مات مشركًا؛ إنما هو النبي ﷺ (أي: شفاعته) وليس عمل أبي طالب، فلا تعارض حينئذ بين حديث شفاعته ﷺ لعمه وبين بطلان عمل المشركين.

فالتخفيف هنا خصوصية للرسول ﷺ وكرامة أكرمه الله بها جل شأنه؛ حيث قبل شفاعته في عمه أبي طالب وقد مات على الشرك والله يختص بفضله من يشاء، ومن أحق بذلك من رسول الله ﷺ سيد الأنبياء - عليهم جميعًا أفضل الصلاة والتسليم - ؟[٢].

---

(١) انظر: ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية (٢/ ١٧٥).

(٢) انظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، المجد الأول، حديث رقم (٥٥).

www.alukah.net

الوقفة السابعة

مشكلات عالجها النبي ﷺ

www.alukah.net

الوقفة السابعة
مشكلات عالجها النبي ﷺ (١)

١ - علاج مشكلة الإرهاب

من المشكلات التي تهدد الأمن والاستقرار العالمي: مشكلة الإرهاب، وترويع الآمنين، والاعتداء على الناس في أنفسهم وأموالهم.

والإرهاب مشكلة عالمية لا تختص بأمة من الأمم أو شعب من الشعوب أو دين من الأديان.

وقد عالج النبي ﷺ هذه المشكلة من عدة جوانب:

أولاً: بيَّن حرمة الأموال والدماء والأنفس وخطورة التعدي عليها بغير وجه حق، فمما قاله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»، وقال ﷺ: «يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشجب(٢) دمًا يقول: يا رب سل هذا فيهم قتلني».

وأخبر ﷺ أن دماء الناس أول ما يحاسب عليه الإنسان فقال: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»؛ وذلك لشدة تحريمها وعظيم إثم من ولغ فيها بغير حق.

ثانيًا: نهى الإسلام عن الاعتداء، وفي القرآن: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) من كتاب: محمد رسول الله ﷺ – تأليف د/ أحمد بن عثمان المزيد.

(٢) تشجب: تسيل.

﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثالثًا: وصف النبي ﷺ بعض أفعال الإرهاب بالكفر، فقال ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض».

وقال ﷺ: «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر».

رابعًا: أخبر رسول الله ﷺ أن قتلى الأعمال الإرهابية في النار، فقال ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه».

خامسًا: نهى النبي ﷺ عن قتل المعاهدين والمستأمنين من أهل الأديان، فقال ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا».

سادسًا: نهى رسول الله ﷺ عن إشهار السلاح في وجوه الناس، فقال ﷺ: «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري، لعل الشيطان ينزغ في يده، فيقع في حفرة من النار».

وقال: «إذا شهر المسلم على أخيه سلاحًا، فلا تزال ملائكة الله تعلنه حتى يشيمه(١) عنه».

وقال ﷺ: «من حمل علينا السلاح فليس منا».

سابعًا: نهى رسول الله ﷺ عن الغدر والخيانة حتى مع الكفار، فقال ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به».

---

(١) يشيمه عنه: يبعده عنه.

الألوكة
www.alukah.net

وقال ﷺ: «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن».

وقال ﷺ: «أيما رجل أمن رجلاً على دمه ثم قتله، فأنا من القاتل بريء، وإن كان المقتول كافرًا».

وحذر ﷺ من نقض العهود فقال: «ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلط عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة إلا حبس عنهم القطر».

ثامنًا: نهى النبي ﷺ عن ترويع الناس وإخافتهم بغير حق فقال ﷺ: «لا يحل لرجل أن يروع مسلمًا».

تاسعًا: بيّن النبي ﷺ للناس نعمة الأمن فقال: «من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

وفي القرآن منَّ الله على المؤمنين بنعمة الأمن فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش].

عاشرًا: حث النبي ﷺ على رحمة الخلق والشفقة عليهم فقال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

٢- علاج مشكلة العنف الأسري

من المشكلات العالمية التي يعاني منها ملايين البشر في العالم مشكلة العنف الأسري، وقد عالج رسول الله محمد ﷺ هذه المشكلة من خلال الدعوة إلى التراحم والتغافر والتغافل عن السلبيات قدر المستطاع، والنظر إلى الإيجابيات والبحث عنها، ومن ذلك أن النبي ﷺ قال: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا، رضي منها آخر».

وكأنه ﷺ يدعو الأزواج بذلك إلى حسن عشرة أزواجهم، وأنه لا ينبغي للزوج أن يكره لأمر صدر منها، بل عليه أن ينظر في صفاتها الجميلة التي ربما تكون أكثر بكثير مما يكره منها.

وقال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي».

وعن معاوية بن حيدة - رضي الله عنه - قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ما تقول في نسائنا، قال: «أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تكتسون، ولا تضربوهن ولا تقبحوهن».

وعرف النبي ﷺ طبيعة المرأة وأن العنف لا يصلحها، فقال ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا».

وعالج النبي ﷺ جميع الأسباب التي تؤدي إلى العنف الأسري، وأول ذلك الغضب الذي يعد سببًا مباشرًا لحوادث العنف الأسري، فقد قال رجل للنبي ﷺ: أوصني. فقال: «لا تغضب»، فردد مرارًا، أي قال: أوصني

أوصني، فلم يزد النبي ﷺ على قوله: «لا تغضب».

وقال ﷺ: «... ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضا يوم القيامة».

ونهى ﷺ عن السباب واللعن وبذاءة اللسان؛ لأن ذلك كله يمكن أن يكون من أسباب العنف الجسدي فقال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان، ولا الفاحش ولا البذيء».

وكان ﷺ أحسن الأزواج عشرة لأزواجهم، فعن أنس - رضي الله عنه - خادم رسول الله ﷺ قال: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيد خادمًا قط ولا امرأة».

وكان ﷺ مثالاً للرفق واللين بعيدًا كل البعد عن العنف والشدة مع زوجاته، كما قال جابر - رضي الله عنه -: «كان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويت - أي عائشة رضي الله عنها - الشيء تابعها عليه».

ويصور هذا الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من حسن عشرة زوجاته في عصر لم يكن للنساء فيه شأن يذكر، قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعد النساء أمرًا - أي لا نرى لهن شأنًا - حتى أنزل، وقسم لهن ما قسم، فبينما أنا في أمر أأتمره، إذ قالت لي أمرأتي: لو صنعت كذا وكذا. فقلت لها: وما لك أنت ولما ها هنا؟ وما تكلفك في أمر أريده، فقالت لي: عجبًا لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ، حتى يظل يومه غضبان!!».

فأنىَّ لمن كان هذا خلقه أن يكون عنيفًا أو أن يكون العنف مفردة في قاموس حياته الخاص.

٣- علاج مشكلة القلق والاكتئاب

يتفق العقلاء على أن الفراغ الروحي وضغوط الحياة المختلفة يعدان من أهم أسباب انتشار الأمراض النفسية، وبخاصة القلق والاكتئاب.

وقد عالج النبي ﷺ هذه المشكلة النفسية بالإيمان الصادق بالله عز وجل، كما جاء في القرآن: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]. فالإنسان المؤمن الذي مد جسور الصلة مع خالقه يكون مطمئن القلب هادئ البال، مرتاح الضمير؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»، فالخير لا يفارقه في جميع أحواله.

وقد يكون القلق والاكتئاب ناتجًا عن الخوف أو الفقر أو المرض أو المصائب المتوقعة، إلا أن المؤمن الذي يعلم أن كل ذلك بقدر الله عز وجل، فإنه يصبر ويحتسب فتتحول هذه المحن والمصائب إلى منح وعطايا وأجور من الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾ [البقرة].

ويتكرر الموقف ذاته بالنسبة للتهديدات المتوقعة والأذى الذي أصبح وشيك الحدوث، فإن المؤمن يتلقى ذلك بمزيد من الرضا والتسليم والإيمان بالله عز وجل واللجوء في دفع هذا الأذى الخارجي، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ

ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وكان النبي ﷺ إذا ضاقت عليه الأمور فزع إلى الصلاة، وكان يقول: «يا بلال! أقم الصلاة، أرحنا بها». فالصلاة من أكبر أسباب الراحة النفسية والسلام الداخلي، والتخلص من التوتر والقلق والهم والغم.

وأرشد النبي ﷺ إلى بعض الأذكار التي تقال عند الهموم والغموم والتوتر والقلق، فمن ذلك قوله ﷺ: «ما أصاب عبدًا همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همَّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا».

وقال ﷺ لأسماء بنت عميس: «ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب؟ الله الله ربي لا أشرك به شيئًا».

وقال أنس - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر قال: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث».

فذكر الله عز وجل ودعاؤه والصلاة له من أعظم علاج الأمراض النفسية، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر].

٤ - علاج مشكلة الفراغ الروحي

عالج النبي ﷺ مشكلة الفراغ الروحي وذلك بإحياء المعاني الربانية من الإيمان بالله وتوحيده والبعد عن الشرك، والإيمان بالأنبياء والرسل جميعًا، والإيمان بالكتب السماوية، والإيمان بالملائكة، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وبالإضافة إلى الإيمان القلبي، عالج النبي ﷺ مشكلة الفراغ الروحي بالعبادات الشرعية التي تربط المسلم بربه في كل وقت، وأهم هذه العبادات أركان الإسلام الخمسة وهي: الشهادتان، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، صوم رمضان، حج البيت الحرام.

إضافة إلى ذلك ربَّى النبي ﷺ المسلم على معاني التقوى والإخلاص لله والثقة به، والتوكل عليه، وغرس الإحساس الدائم برقابة الله على كل أعماله، واطلاعه على سره ونجواه، وتغذية الشعور بالمسؤولية وإن كان لا يراه أحد من الناس؛ لأن الله تعالى يراه.

قال النبي ﷺ لابن عباس: «يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام، ورفعت الصحف».

وفي حديث جبريل الطويل بيَّن النبي ﷺ أصول الإسلام والإيمان والإحسان، وهو من أهم الأحاديث النبوية لأنه اشتمل على الدين الإسلامي كله بصورة مختصرة، فعن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال: بينما نحن

جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال: صدقت. فعجبًا له يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، ثم انطلق فلبثت مليًّا[(١)]، ثم قال ﷺ: «يا عمر! أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».

ودعا النبي ﷺ غير المؤمنين بالواحد الأحد إلى التفكير والتأمل، فعن عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ لأبي: «يا حصين! كم تعبد اليوم إلهًا؟» قال: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء. فقال له النبي ﷺ: «فأيهم تعد لرهبتك ورغبتك؟» قال: الذي في السماء. فكأن النبي ﷺ يقول له كيف تعبد غيره وأنت لا ترجو سواه في الرغبة والرهبة.

---

(١) فلبثت مليًّا: أي انتظرت زمنًا طويلاً.

٥ - علاج المشكلة الجنسية

عالج النبي ﷺ المشكلة الجنسية من خلال الحث على الزواج في سن مبكرة، وكذلك حث على الصوم لمن لا يملك تكاليف الزواج، وأكد على سد الأبواب التي تؤجج الشهوات، ومن ذلك تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية، والنظر إلى النساء الأجنبيات، وكذلك من خلال الحوار مع الشباب وإقناعهم بقبح الزنا وخطورته.

قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقال ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

وقال ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم».

وقال ﷺ وقد سئل عن النظر إلى النساء: «اصرف بصرك».

وقال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

وروي أن فتى شابًا أتى النبي ﷺ كي يرخص له في الزنا، فقال: يا رسول الله! ائذن لي في الزنا!! فأقبل عليه القوم فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال ﷺ للشاب: «ادن» فدنا منه قريبًا، قال: «اجلس» فجلس، فقال ﷺ: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، ثم قال له: «أتحبه لأختك... لعمتك.. لخالتك»، والشاب يقول: لا والله، جعلني الله فداءك والنبي يقول له: «وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم.. لعماتهم.. لخالاتهم».

ثم وضع النبي ﷺ يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه» فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيء.

وأما الشذوذ الجنسي، فإنه أشد تحريمًا من الزنى في الإسلام، وقد قال ﷺ: «لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط، لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط، لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط».

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة الثامنة

الرسول ﷺ في معاملته لغيره

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة الثامنة

الرسول ﷺ في معاملته لغيره [(١)]

١ - معاملته مع أهله:

إن تصفح سيرة المصطفى ﷺ يعطي صورًا مشرفة عن خلقه الكريم في معاملة الناس جميعًا، ولكن سلوكه في بيته ومع أزواجه له دلالته الخاصة على دقة طباعه، وعمق عاطفته، وقدرته الفذة على مراعاة مشاعر أزواجه واحترام رغباتهن، ما دامت لا تخرج عن حدود الشرع وأحكامه.

فهذه عائشة - رضي الله عنها - تحج معه ﷺ فتمنعها ظروفها من أداء العمرة مع الناس، فلما أراد الرسول ﷺ العودة إلى المدينة قالت: يا رسول الله تعودون بحج وعمرة، وأعود بحجة وحدها؟ فإذا بالرسول ﷺ يشفق أن تعود زوجه وهي تشعر بفوات بعض الفضل والخير عليها، فيتوقف ويطلب من أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنهما - أن يصحبها إلى التنعيم حيث تحرم بالعمرة[(٢)].

وفي إحدى الغزوات يوقف الجيش كله لأن عقدًا لعائشة سقط منها ويرسل أصحابه يفتشون عنه حتى وجدوه، وعندما تحضر الصلاة ولا يجد المسلمون الماء للوضوء فتنزل آية التيمم، ويعبر أحد الصحابة عن إحساسه بالحب لأبي بكر وآله واعترافه بفضل هذه العائلة وبركتها فيقول: «ما هي

(١) من فقه السيرة النبوية - تأليف/ أكرم ضياء العمري - دار بن حزم - ط الأولى ١٤٣٣هـ.

(٢) صحيح البخاري ٢: ٢٠٠ - ٢٠١ (ط. إسطنبول).

بأول بركتكم يا آل أبي بكر»[(١)].

روى البخاري أنه ﷺ لما رجع من غزوة خيبر وتزوج صفية بنت حيي، كان يدير كساءً حول البعير الذي تركبه يسترها به «ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب»[(٢)].

ولم يكن المشهد بعيدًا عن أعين الناس، بل كان على مشهد من جيشه المنتصر، كان يعلمهم أن الرسول البشر والنبي الرحمة والقائد المظفر لا ينقص من قدره أن يوطئ أكنافه لأهله، وأن يتواضع لزوجه، وأن يعينها ويسعدها.

ويتجلى موقف رائع يصور خلق الرسول الكريم حين دخل على امرأة كان قد عقد عليها هي الجونية، روى البخاري من حديث أبي أسيد الساعدي قال: «خرجنا مع النبي ﷺ حتى انطلقنا إلى حائط يقال له الشوط حتى انتهينا إلى حائطين جلسنا بينهما، فقال النبي ﷺ: «اجلسوا هاهنا».

ودخل، وقد أتى بالجونية، فأنزلت في بيت في نخل في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل ومعها دايتها - حاضنة لها - فلما دخل عليها النبي ﷺ قال: «هبي نفسك لي». قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة (ولم تعرف أنه رسول الله) قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك. فقال: قد عذت بمعاذ. ثم خرج علينا فقال: يا أبا أسيد اكسها رازقيين[(٣)] وألحقها بأهلها»[(٤)]. ولم يغضب رسول الله ﷺ ولم يعنف المرأة، بل

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ١: ٤٣١).

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٦: ٨٦).

(٣) الرازقي: ثوب من كتان أبيض (المعجم الوسيط ١: ٣٤٢ مادة «رزق»).

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٩: ٣٥٦).

الألوكة
www.alukah.net

لم يجهر أمامها بطلاقها، بل أمر أبا أسيد أن يمتعها بالثياب ويعيدها إلى أهلها.

والمتأمل في سيرة الرسول ﷺ يشهد الكثير من الأمثلة الرائعة على حسن ذوقه، وجميل طبعه، وكرم خلقه، وحسن معاشرته، ورفق معاملته، واعتدال مزاجه، وعدالة أحكامه، وصدق كلامه.. وهذا الكمال الخلقي من أعظم أدلة نبوته عليه الصلاة والسلام. فقد كان الصدق يملأ حياته، ويحكم علاقاته، ويطبع أقواله وأفعاله، وفلا غرابة إذا كان أول المسلمين المؤمنين بدعوته هم أقرب الناس إليه وأعرفهم به، خديجة - رضي الله عنها - زوجه، وعلي - رضي الله عنه -، وأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - صاحبه، وزيد بن حارثة - رضي الله عنه - مولاه، والكل ظلوا أوفياء لدعوة الإسلام طيلة حياتهم يفدونها بالنفس والنفيس.

ويشهد الإنسان طابع الصدق في علاقاته ﷺ بأزواجه، فهو الرسول البشر، ليس فيه تعاظم وكبرياء الأقوياء بجاههم أو غناهم، بل فيه سماحة الأنبياء، وندى العظماء، وسيرة الأتقياء، تجده يحنو على أزواجه ويعينهن، فيقم بيته بيده، ويحلب الشاة، ويخرز النعل، ويتلطف إليهن، ويداري غضبهن، ويعدل بينهن، ويراعي ما جبلن عليه من الغيرة، ويحتمل هفواتهن، ويرفق بصغيرتهن، وهكذا عاش الرسول البشر عيشة إنسان لا ملاك، تلتصق خطواته بالأرض وقلبه معلق بالسماء، يهفو إلى ما عند الله، ويهتف متواضعًا: «إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد»(١).

ولنعرض لنماذج أخرى من حياة الرسول البشر في بيته، حيث تعيش أمهات المؤمنين في غرفهن الصغيرة بجوار المسجد النبوي، تمتزج حياتهن

---

(١) ابن سعد: الطبقات (١: ٢٣) بإسناد صحيح.

بأصوات الأذان للصلوات، ويشهدن جموع الناس مقبلين مدبرين، يصلون ويستمعون لأحاديث الرسول ﷺ، ويشتركن في بيان تعاليم الإسلام، وخاصة في شؤون المرأة، حين يتعذر على النبي ﷺ - لحيائه - البيان. ثم لهن حياة خاصة مع الرسول ﷺ حافلة بالعبادة والعلم، مليئة بالعبر، دافقة بالخير، ولا تخلو من الجدل والخصومة أحيانًا، والغيرة حينًا آخر، قالت عائشة - رضي الله عنها -: «ما علمت حتى دخلت عليَّ زينب بغير إذن وهي غَضْبَى، ثم قالت: يا رسول الله أحسبك إذا قلبت لك بنية أبي بكر ذريعتيها - أي ساعديها -؟ ثم أقبلت عليَّ فأعرضت عنها، حتى قال النبي ﷺ: «دونك فانتصري». فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها في فيها ما ترد عليَّ شيئًا، فرأيت النبي ﷺ تهلل وجهه»[(١)].

وهنا نلمس تقدير النبي ﷺ لغيرة الضرائر من بعضهن، ومراعاته للفطرة، فقد ترك زينب تفرغ غضبها وأذن لعائشة أن ترد عليها، وعدل بين زينب - وهي بنت عمته وزوجه - وعائشة - وهي بنت صاحبه وزوجه - ولم يغضب من هذه الملاحاة، فهي أمر طبيعي في حياة الضرائر، بل لم تتغير ملامح وجهه إلى العبوس لتكدير صفوه، بل عَلَتْه ابتسامة رقيقة وهو يشاهد انتصاف عائشة من زينب.

وكانت زينب بنت جحش تطاول عائشة وتفاخرها في الحظوة عند رسول الله ﷺ كما ذكرت عائشة في حديث الإفك[(٢)].

وكانت تفخر بأن الله تعالى زوجها من رسول الله ﷺ، فأنزل في ذلك

---

(١) البخاري: الأدب المفرد (٥٥٨) بإسناد صحيح.

(٢) ابن حجر: فتح الباري (٧:٤٣١).

الألوكة
www.alukah.net

قرآنًا ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾[الأحزاب: ٣٧].

أما عائشة - رضي الله عنها - فكانت البكر الوحيد من أزواجه ﷺ، وكانت تدل بذلك وتشير إليه بذكاء وفطنة امتازت بها، تقول: «يا رسول الله أرأيت لو نزلت واديًا وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجرًا لم يؤكل منها، في أيها ترتع بعيرك؟ قال: في التي لم يرتع منها. تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها»(١). وهذا الإدلال المقبول لا يخالف الحقيقة ولا يجانب الصدق، فليس من ضرر في استجابة الرسول ﷺ وإرضائه لهذا الدلال والاعتزاز، وإدخاله بذلك السرور على قلب زوجه.

وكان رسول الله ﷺ يغضب إذا تجاوزت الغيرة حدها، واعتدت على حقوق الآخرين، فلم يكن زمام الموقف يفلت من يده بل كان يبين الخطأ ويقومه، قالت عائشة - رضي الله عنها - : «ما غِرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غِرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم قطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»(٢).

وهكذا كان عظيم وفائه لزوجه خديجة أول من آمن به وآزره، وتحمل معه أعباء دعوته، كان يذكرها دائمًا ويثني عليها أبدًا، ويصل صديقاتها، ولم يمنعه حبه لعائشة أن يصرح بفضل خديجة ومكانها في قلبه، ولو في ذلك

---

(١) صحيح البخاري - فتح الباري (٩:١٢٠).

(٢) متفق عليه، واللفظ للبخاري - فتح الباري (٧:١٣٣).

الموقف الذي ظهرت فيها غيرتها، بل لم يكتم حبه لها وقد مضت على وفاتها أكثر من خمس سنين! فقال لعائشة: «إني قد رزقت حبها»(١). فما أعظم وفاءه وما أحب قلبه وما أصدق لسانه، وما أصرح وأفصح تعبيره!؟

إن محمدًا الرسول البشر لا يجد غضاضة في أن يحب امرأته، وأن يصارحها بذلك معبرًا عن عاطفة خيرة، ويكتم كثيرون سواء عواطفهم تجاه أزواجهم لئلا يخدش كبريائهم، أم يقل احترامهم فيما يحسبون وهم مخطئون. روى البخاري عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أنه قال لرسول الله ﷺ: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»(٢).

وكان عليه الصلاة والسلام يراعي صغر سن عائشة - رضي الله عنها - وحبها للعب مع صديقاتها، قالت عائشة: «كنت ألعب بالبنات - أي اللعب - عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن عنه - أي يختفين - فيسربهن إلىَّ فيلعبن معي».(٣) وكانت عائشة - رضي الله عنها - توصي المسلمين بمراعاة ذلك مع أزواجهن حديثات السن، تقول: «رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو»(٤).

وهكذا سبق الإسلام نظريات التربية الحديثة في إعطاء الحرية للصغير

---

(١) مسلم: الصحيح (٤:١٨٨) حديث رقم: (٢٤٣٦).

(٢) متفق عليه (صحيح البخاري ٨:٧٤، وصحيح مسلم ٤:١٨٥٦ حديث رقم ٢٣٨٤).

(٣) صحيح مسلم (٤:١٨٩٠) حديث رقم: (٢٤٤٠).

(٤) متفق عليه (صحيح البخاري - فتح الباري ٩:٣٣٦، وصحيح مسلم ٢:٦٠٩).

الألوكة
www.alukah.net

في اللعب والتسلية البريئتين، بل ذكرت عائشة - رضي الله عنها - : «أنه كان لها بنات - تعني اللعب - وكان إذا دخل ﷺ استتر بثوبه منها» قال أبو عوانة: لكي لا تمتنع[(١)].

ولم يجد الرسول ﷺ غضاضة في أن يسابق عائشة - رضي الله عنها - مرتين في منأى عن الناس لإدخال السرور على قلبها، قالت عائشة - رضي الله عنها - : «خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس: تقدموا، فتقدموا. ثم قال لي: تعالي أسابقك، فسابقته، فسبقته، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: تقدموا، فتقدموا. ثم قال: تعالى حتى أسابقك. فسابقته، فسبقني، فجعل يضحك وهو يقول: هذه بتلك»[(٢)].

وكان عليه الصلاة والسلام يتلطف مع عائشة - رضي الله عنها - بالكلام ويداعبها، قال لها مرة: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى»، قالت: «فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم»، قالت: «قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك»[(٣)].

فما أحسن هذه المعاشرة، وما ألطف رسول الله ﷺ، وما أحسن خلق عائشة - رضي الله عنها - مع زوجها الرسول الكريم.

وكان رسول الله ﷺ رقيق الطبع، حسن العشرة، عميق العاطفة، لكن

---

(١) ابن سعد الطبقات (٦٥:٧) بإسناد صحيح.

(٢) أحمد: المسند (٢٦٤:٦) بإسناد حسن، وأبو داود: السنن (٢٨:٢) مختصرًا.

(٣) متفق عليه (صحيح البخاري - فتح الباري ٣٢٥:٩، وصحيح مسلم ١٨٩٠:٤).

هذه الخصال لم تؤثر على التزامه الدقيق بالعدل بين نسائه أمهات المؤمنين، وهو التزام بشرع الله تعالى الذي بلغه للناس وبينه لهم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

٢- معاملته مع أصحابه:

وصف الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وسئلت عائشة - رضي الله عنها - عن خلقه فقالت: «كان أحسن الناس خلقًا؟، لم يكن فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا صخابًا بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح»[١].

ووصفه الصحابي جابر بن سمرة - رضي الله عنه - بقوله: «كان طويل الصمت قليل الضحك، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر وأشياء من أمورهم فيضحكون وربما تبسم»[٢].

وكان عليه الصلاة والسلام عظيم التسامح في حقوقه، لا ينهر خادمًا، ولا يعاتب صاحبًا، ولا يشتد على مسلم، قد زان الرفق أعماله، وخالطت الرحمة أقواله. قال الصحابي أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال أُف، ولا لِمَ صنعت، ولا ألا صنعت»[٣].

وكان شديد التواضع لا يحب الإطراء والمبالغة في الثناء، ولو كان بحق،

---

(١) مسند أحمد (٦:٢٣٦).

(٢) صحيح مسلم (١:٤٦٣).

(٣) صحيح مسلم (٤:١٨٠٤).

الألوكة
www.alukah.net

وقد خشى أن يجر ذلك إلى زيادة تعظيمه حتى تسبغ عليه صفات الألوهية كما حدث لعيسى ابن مريم - عليه السلام -، لذلك قال لأصحابه: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»[١].

كما أراد أن يقتدي به المسلمون فلا يرغبون في الإطراء والثناء الذي قد يجر إلى تعظيم المرء بنفسه، وامتلائه بالغرور، والترفع على أصحابه مما يؤدي إلى الطغيان عليهم والازدراء لهم، وهذه خلال نهى الإسلام عنها.

ورغم ما عرف من هيبته ﷺ، فإنه كان ألفًا مألوفًا، حتى أن الأَمة من أهل المدينة كانت تكلمه في حاجتها فينطلق لمساعدتها[٢].

وكان يشارك أصحابه في الأعمال التي تقتضيها مصلحة الدعوة والدولة مشاركة فعلية وليست رمزية، فكان يوم الأحزاب ينقل التراب من الخندق، وقد وارى التراب على بياض بطنه وهو يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن أولاء قد بغوا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا

وكان يزور المرضى، ويستقبل صاحب الحاجة، ولم يكن له حاجب يمنع الناس عنه.

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٤٤٥).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم: (٦٠٧٢) معلقًا.

وكان شديد الحياء إذا كره شيئًا عُرِفَ ذلك في وجهه، ولحيائه لم يكن يواجه أحدًا في وجهه بما يكره.

وكان عظيم الرحمة بالضعفاء والمرضى والأطفال، قال: «إني لأدخل في الصلاة، وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في الصلاة مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»(١).

وكان لطيف المعاشرة لأصحابه، يمزح معهم أحيانًا، ويداعبهم، ولا يقول إلا حقًا، ومن ذلك أن رجلاً من أهل البادية يدعى زاهرًا كان يهدي للنبي ﷺ من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فوصف رسول الله ﷺ الموقف بقوله: «إن زاهرًا بادينا ونحن حاضروه» وكان رسول الله ﷺ يحبه – وكان رجلاً دميمًا – فأتاه رسول الله ﷺ وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل، فقال: أرسلني من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، وجعل النبي ﷺ يقول: «من يشتري العبد؟»، فقال زاهر: إذن والله تجدني كاسدًا، فقال النبي ﷺ: «لكن عند الله عز وجل لست بكاسد» قالها مرتين(٢). ومن مداعباته ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق»(٣).

وذكر الحسن البصري أن عجوزًا أتت النبي ﷺ فقالت: أدع الله أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان، إن الجنة لا يدخلها عجوز» فولت تبكي،

(١) صحيح البخاري (٧١٠)، وصحيح مسلم (١:٣٤٣).

(٢) أحمد: المسند (٣:١٦١) بإسناد رجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي (مجمع الزوائد ٩:٣٦٩).

(٣) سنن الترمذي حديث رقم: (٢٢٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

الألوكة
www.alukah.net

فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ ﴾ [الواقعة]»[١].

وكان رسول الله ﷺ يخالط عامة المسلمين ويصبر على جفاتهم ويعاملهم بجوده وكرمه وحلمه.

قال الصحابي جبير بن مطعم: أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين، فتعلق به الأعراب يسألونه، فخطفوا رداءه، فوقف النبي ﷺ ثم قال: «أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا»[٢].

وكان رسول الله ﷺ يحترم أصحابه، ويقدر خدمتهم للدعوة وجهادهم في سبيلها، وكان يعبر عن تقديره هذا بدقة ووضوح فيثني على أعمالهم في الخير والبر والجهاد والدعوة والمروءات، فلما أبلى أبو قتادة وسلمة بن الأكوع في مطاردة الأعراب المشركين الذين أغاروا على سرح المدينة يقودهم عبد الرحمن بن عيينة حتى أجلاهم، قال رسول الله ﷺ: «خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة»[٣].

ومن يطالع في كتب فضائل الصحابة يتبين أن رسول الله ﷺ كان يقوم أصحابه، ويبين مزايا كل واحد منهم، ويصارحهم بخصال الخير التي فيهم، فقد أثنى على أبي بكر - رضي الله عنه - مبينًا قوة يقينه وعمق تصديقه، وبيّن أن خصاله ما اجتمعت في إنسان إلا دخل الجنة[٤].

---

(١) الترمذي: الشمائل حديث رقم: (٢٣٠٠).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم: (٢٨٢١).

(٣) صحيح مسلم حديث رقم: (١٨٠٧)، ومسند أحمد (٣:٥٣).

(٤) راجع الأحاديث في صحيح مسلم (٤:١٨٥٤ - ١٨٥٨).

وبيَّن خصال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من الإيمان العميق والعمل الوثيق والقيام بأمر الإسلام وعظم فائدة الناس منه، ووصفه بالعبقرية وبأنه محدث، وبالغيرة على المحارم، وبيَّن خلال عثمان - رضي الله عنه - من الحياء والصبر على البلاء وكثرة الإنفاق في سبيل الله، وأثنى على شجاعة علي - رضي الله عنه - ووصفه بأنه رجل يحبه الله ورسوله، ووصف الزبير بأنه حواريه، وقال لسعد: فداك أبي وأمي. ووصف أبا عبيدة بن الجراح بأنه أمين هذه الأمة(١). ووصف خالد بن الوليد بأنه سيف من سيوف الله(٢).

كما بين المكانة والمزايا الثقافية لعدد من الصحابة، فقال: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد - فبدأ به - ، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة»(٣).

٣- معاملته لأهل المعاصي:

تعامل رسول الله ﷺ مع المسلمين وفق التوجيه الإلهي والتعاليم القرآنية، فالمسلمون مهما سموا بأرواحهم وقلوبهم وعقولهم وسلوكهم فإنهم معرضون لارتكاب الخطايا والآثام وليسوا بمعصومين.

من أجل ذلك شرع الله تعالى لهم التوبة عن الآثام والخطايا إذا وقعوا فيها، ولم يسد أمامهم سبل العودة إلى الطريق المستقيم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) راجع صحيح مسلم: (٤:١٨٥٨- ١٨٨٢).

(٢) مسند أحمد ٤:٩٠ بسند صحيح - الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤:٤٤١).

(٣) صحيح مسلم (٤:١٩١٣).

الألوكة
www.alukah.net

وقال عليه الصلاة والسلام: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»(١). وبذلك فتح الإسلام باب الأمل أمام العصاة، وشرع التوبة لإعادة الثقة بالنفس وتحريرها من الشعور بالذنب ومنعها من السقوط والقنوط والانجراف في طريق الخطايا والآثام، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

وقد بين العلماء أن التوبة النصوح يشترط فيها الندم على ارتكاب المعصية، والإقلاع عن المعصية، واعتزام عدم العودة إليها، فإذا كان قد ظلم العباد بمعصيته بأخذ أموالهم فيلزمه أن يرد ما أخذ من مال.

وقد أمر الله تعالى المسلمين بأن لا يجاهروا بالمعاصي، ولا يتحدثوا بها أمام الآخرين على سبيل المباهاة، فإن ذلك دليل على ضعف الإيمان وقسوة القلب وعدم الخوف من الله، كما أنه يؤدي إلى إشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامي واستسهال المعاصي، لذلك وجه النبي ﷺ أصحابه إلى ستر أنفسهم وستر غيرهم بقوله: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين»(٢)، وقال: «أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، فمن أصاب من هذه القاذورة شيئًا فليستتر بستر الله، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله»(٣).

وبين الله تعالى خطورة المجاهرة وآثارها وعقابها بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور: ١٩].

---

(١) رواه الترمذي (٤:٦٥٩) حديث رقم: (٢٤٩٩)، وقال: حديث غريب. ورواه أحمد في المسند (٣:١٩٨)، والتبريزي: مشكاة المصابيح (٢٣٤١)(بتخريج الألباني).

(٢) فتح الباري (١٠:٤٨٦) حديث رقم: (٦٠٦٩)، وصحيح مسلم (٤:٢٢٩١) حديث رقم: (٢٩٩٠).

(٣) متفق عليه (رياض الصالحين: ١١٩).

إن الإسلام يرغب في إشاعة أخبار الفضيلة والمروءة والعفة والخير ليقتدي الناس بالصالحين وليربأوا بأنفسهم عن مواطن الزلل والانحراف، وبذلك يسود الخير والصلاح المجتمع الإسلامي، وأما إذا انتشرت صور النساء والجريمة والفواحش والسوء، فإن الناس تألف ذلك ويهون عليهم الأمر مما يؤدي إلى انتشار الشر في المجتمع.

ونظرًا لأن التوجيه والإرشاد وغرس معاني الخير والتقوى تكفل السلامة لمعظم الناس، فإن القلة التي تشذ عن ذلك تقع تحت طائلة العقوبات الرادعة، فبعض المعاصي أثرها خطير على سلامة المجتمع وأمنه، مثل الاعتداء على الأعراض، وقتل الأنفس البريئة، وسرقة الأموال، وقطع الطرقات، ومن هنا .. شرع الله الرجم عقوبة للزاني المحصن والجلد والتغريب لغير المحصن، والقطع للصوص، والتمثيل بقطاع الطرق رحمة بالمجتمع الإسلامي، فمصلحة المجموع أولى بالاعتبار من مصلحة الفرد، وما يصيب المجتمع من الهلع وفقدان الأمان وخاصة المستضعفين من الأطفال والنساء والشيوخ يستحق فرض عقوبات رادعة تتكفل بقطع دابر المجرمين.

وعندما تغيب العقوبات الرادعة في المجتمعات الغربية المعاصرة، ترتفع نسب الجرائم بصورة كبيرة؛ لأن المجرمين يأملون التخفيف عنهم ويستسهلون العقوبات المخففة التي تنالهم مقابل جرائمهم المروعة.

لذلك نجد أن بعض الأمم الغربية أخذت تراجع قوانينها وتثبت بعض العقوبات الشديدة وخاصة عقوبة القتل التي كانت قد ألغتها من قبل.

لكن الإسلام راعى جانب الرحمة والعفو عن الجناة إذا ظهرت مسوغات للتخفيف من عقوبتهم، وكانت القاعدة المعمول بها هي درء

الحدود بالشبهات، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت حدًّا فأقمه عليَّ، فلم يسأله النبي ﷺ عنه، وحضرت الصلاة، فصلى الرجل مع النبي ﷺ، فلما انتهت الصلاة أعاد الرجل طلبه إقامة الحد، فقال له النبي ﷺ: «أليس قد صليت معنا؟»، قال: نعم، قال: «فإن الله قد غفر لك ذنبك»(١)، فيلاحظ أن النبي ﷺ لم يسع إلى معرفة نوع الذنب وتفاصيله، بل ستر على الرجل وبين له أن الصلاة تكفر ذنبه.

وقد أجاز بعض العلماء تلقين من أقر بما يوجب الحد بالرجوع عنه ليدرأ عنه الحد(٢).

والذنوب التي يرتكبها المسلم منها صغائر ومنها كبائر، فأما الصغائر فقد جعل الله تعالى لذنوب العباد من الصغائر كفارات عديدة، فالمصائب والأمراض تكفر الخطايا عن المذنبين، فقد قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله عنه بها حتى الشوكة يشاكها»(٣).

وكذلك فإن العبادات من طهارة وصلاة وصيام وصدقات وحج وجهاد تكفر خطايا المسلم، قال عليه الصلاة والسلام: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر»(٤)، وقال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(٥).

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ١٢:١٣٣)

(٢) فتح الباري (١٢:١٣٥).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم (جامع الأصول ٩:٥٨٠ - ٥٨١).

(٤) صحيح مسلم مع شرح النووي (٥:١٦٩).

(٥) رواه الجماعة إلا أبا داود (نيل الأوطار ٤:٣١٥).

وأما الكبائر فيكفرها إقامة الحدود على مرتكبيها؛ لذلك كان العصاة يسعون للاعتراف بمعاصيهم ويطالبون بإقامة الحد على أنفسهم للتكفير عن ذنوبهم والخلاص من العقوبة في الآخرة، وذلك مثل السرقة والزنا وشرب الخمر وقذف الآخرين بارتكاب الزنا.

وثمة كبائر تجبرها الكفارات المالية والبدنية، مثل: الفطر في رمضان عمدًا، والقتل الخطأ، والظهار.

وكان رسول الله ﷺ يقيم الحدود على العصاة إذا ثبتت عليهم الجناية بشهادة شاهدين عدلين سوى الزنا، فإنه يحتاج لإثباته إلى أربعة شهود، وكذلك إذا اعترفوا بالجناية وطالبوا بإقامة الحدود لتكفير خطاياهم والخلاص من عقوبة الآخرة كما فعل مع ماعز والغامدية.

جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ يطلب إقامة الحد عليه لأنه ارتكب الفاحشة، وهو يعلم شدة العقوبة، ولكن يريد الخلاص مما يترتب عليه في الآخرة، وذلك ليقظة وجدانه وقوة يقينه بالعقيدة التي آمن بها، ففي الوقت الذي يسعى المجرمون إلى إخفاء أنفسهم، وإزالة الأدلة عليها، والفرار من القضاء، فإن هذا الرجل يأتي من تلقاء نفسه ينشد إقامة الحد عليه، فلولا إيمانه بالله واعتقاده بالآخرة لما فعل ذلك.

ولما سئل قومه عنه قالوا: ما نعلم به بأسًا، إلا أنه أصاب شيئًا يرى أنه لا يخرجه منه إلا أن يقام فيه الحد، ولما سئلوا عن حالته العقلية قالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى.

وكان رسول الله ﷺ يريد أن يدرأ عنه الحد بشبهة كالجنون أو الوهم،

الألوكة
www.alukah.net

فقد رده ثلاث مرات، وهو يعترف بجرمه قائلاً: «ويحك! ارجع فاستغفر الله وتب إليه»، لكن ماعزًا أصر على اعترافه وطلبه إقامة الحد، ولم يجد رسول الله ﷺ بدًّا من إنفاذ حد الله عليه بدليل الاعتراف مع عدم وجود شبهة تدرأ الحد، فأمر برجمه، فرجم، وقال رسول الله ﷺ: «استغفروا لماعز بن مالك، لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»[(١)].

وهذه الحادثة تشير إلى احتمال وقوع المسلم الصالح في المعاصي، وتدل على صحة هذا الفهم، الآية الكريمة: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ – ١٣٥].

فالشيطان يتربص بالمؤمنين ليوقعهم في حبائله ويزين لهم المعاصي، لكن المتقين واعون يقظون سرعان ما ينتبهون للحق ويكشفون ببصيرتهم النافذة حبائل الشيطان: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وكانت يقظة الروح وحياة الوجدان تهيمن على الرجال والنساء، فهذه امرأة من غامد جاءت هي الأخرى تطلب إقامة الحد عليها، تقول: يا رسول الله طهرني، فيحاول أن يبعدها عن الاعتراف بقوله: «ويحك! ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه»، فلما أصرت سألها عن جريمتها، فذكرت حملها

---

(١) راجع الروايات في صحيح مسلم (٣:١٣١٨- ١٣٢٣).

من سفاح، فأمرها أن تعود إليه بعد أن تضع حملها، وكفلها رجل من الأنصار ليقوم بأمور معيشتها حتى ولدت، فجاءته فقال لها: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه»، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فأوكل الصبي إلى رجل من المسلمين ليربيه، وأقام عليها الحد، وصلى عليها، ودفنت، وأثنى رسول الله ﷺ على توبتها(١).

وسبب إقبال ماعز والغامدية على التطهر بإقامة الحد على نفسيهما يعود إلى كون إقامة الحد كفارة للمسلم كما في الحديث: «ومن أتى منكم حدًا فأقيم عليه فهو كفارته، ومن ستر الله عليه فأمره إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له»(٢).

وقد حدثت جرائم خلقية وسرقات يسيرة في عهده ﷺ، فكان إذا ثبت الجرم على الفاعل أقام عليه الحد، ويستوي الناس في ذلك كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم، فقد حدث أن سرقت امرأة مخزومية، فسعت قريش في الشفاعة لها، وطلبوا من أسامة بن زيد أن يكلم رسول الله ﷺ، فلما كلمه غضب رسول الله ﷺ وتلون وجهه وقال لأسامة: «أتشفع في حد من حدود الله؟ فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، ثم أقام حد السرقة على المرأة المخزومية(٣).

---

(١) صحيح مسلم (٣:١٣٢٣ - ١٣٢٤).

(٢) صحيح مسلم (٣:١٣٣٣).

(٣) صحيح مسلم (٣:١٣١٥).

الألوكة
www.alukah.net

٤- معاملته للكفار:

كان رسول الله ﷺ حريصًا على هداية الكفار، فكان يتألم أشد الألم إذا رآهم يصدون عن الهدى، وقد رأف الله تعالى به وبين له أن الهداية نعمة من الله تعالى على عباده، ولا تتحقق إلا لمن كتبها الله له، فقال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

ولم يكن يقاتل الكفار إلا بعد أن تبلغهم دعوة الإسلام فيرفضونها، لذلك عندما أعطى الراية لعلي - رضي الله عنه - في فتح خيبر أوصاه بقوله: «أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[(١)].

وكان رسول الله ﷺ يدعو الله لهداية الكفار حرصًا على إنقاذهم من النار، فلما عرض عليه الملك أن يطبق الأخشبين - جبلان بمكة - على قريش، قال: «لا، عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده»، وكان يدعو لهم ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[(٢)].

ولما جاء الصحابي الطفيل بن عمرو الدوسي إلى النبي ﷺ يشتكي عدم استجابة قومه لدعوة الإسلام، ويقول: إن دوسًا قد عصت وأبت فادع الله

---

(١) صحيح البخاري (٧:٧٠)، وصحيح مسلم (٢:٢٧٩).

(٢) فتح الباري (٦:٣١٣، ٥١٤)، وصحيح مسلم (٣:١٤٢١-١٤١٧).

عليهم، استقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه، فقال الناس: هلكوا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أهد دوسًا وائت بهم، اللهم أهدِ دوسًا وائت بهم» فهداهم الله للإسلام[(١)].

وكان رسول الله ﷺ يحرص على هداية الناس جميعًا، فيخاطب الكبير والصغير والغني والفقير والأحرار والعبيد والرجال والنساء، ولكنه كان يولي عناية خاصة لمن يرى فيه خصال الزعامة وقوة التأثير في الآخرين والقدرة على نصرة الدين، فإسلام الزعماء والأقوياء من الملوك وزعماء القبائل ورؤساء الناس يؤدي إلى قبول أتباعهم للإسلام وسرعة انتشاره فيهم، فهذا من سنن الاجتماع أن العامة تبع الخاصة، وهم ينقادون لما ينقاد له أهل الرأي والزعامة فيهم، لذلك كان رسول الله ﷺ في بداية الدعوة بمكة يدعو الله تعالى أن ينصر دينه بإسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -[(٢)]، فاستجاب الله دعاءه، فأسلم عمر فكان إسلامه نصرًا كما قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -[(٣)].

ولما عقد المسلمون صلح الحديبية مع قريش، وتفرغوا لنشر الإسلام، أرسل النبي ﷺ رسله إلى ملوك وأمراء الأرض المتاخمة للجزيرة، داعيًا لهم إلى الإسلام موضحًا مسؤوليتهم عن شعوبهم ومصيرهم أمام الله تعالى إذا صدوا عن الإسلام.

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ١٠١:٨ و ١٩٦:١١)، وصحيح مسلم (١٩٥٧:٤)، ومسند أحمد (٢٤٣:٢) واللفظ لأحمد.

(٢) سنن الترمذي (٦١٧:٥)، والطبراني: المعجم الأوسط (٣٤٤:١)، والمعجم الكبير (١٩٦:١٠-١٩٧).

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٤١:٧ و ١٧٧).

الألوكة
www.alukah.net

وقد حفظ لنا الإمام البخاري النص الصحيح لرسالة النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم وهو «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد.. فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»(١) و﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويلاحظ أن كتاب النبي ﷺ لوحظ في صياغته إعطاء هرقل حقه من حيث إنه عظيم قومه، وبيان أن إسلامه له أجر مضاعف؛ لأنه يجر إلى إسلام قومه، مع بيان عاقبته إذا صد عن سبيل الله وأنه يتحمل إثم من وراء ه من الأتباع، واقتصر الكتاب على بيان التوحيد لأنه الأصل الكبير في الإسلام وغيره من أديان الله التي تقدمته؛ ولأن الالتزام العقدي بالتوحيد يفضي إلى طاعة الله في جميع أوامره ونواهيه، فإن قبل هرقل بمبدأ التوحيد فإنه يكون مستعدًا لتلقي شرائع الإسلام وآدابه، وإن رفضه فأحرى به أن يرفض ما سواه.

ولا شك أن الدعاة مسؤولون في كل عصر عن توضيح التوحيد للناس أولاً ثم بيان الأحكام والآداب، فإن حياة القلب بتوحيد الله وشكره وذكره وعرفانه يقضي إلى صلاح الإنسان والتزامه بالإسلام عقيدة وسلوكًا وشريعةً ونظام حياة.

---

(١) الأريسيون: الفلاحون، والمقصود عامة أهل البلاد التي يحكمها هرقل إذا أغلبهم من الفلاحين.

وكان رسول الله ﷺ يستفيد من المناسبات المختلفة لعرض الدعوة على الناس حرصًا على هدايتهم، فقد زار غلامًا من اليهود كان يخدمه فمرض فجلس عند رأسه فقال له: «أسلم» فنظر الغلام إلى أبيه يستشيره، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم. فأسلم الغلام: فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»(١).

وكان يحسن معاملة الكفار رجاء إسلامهم، فقد أغارت خيل المسلمين على ديار طيء ففر عدي بن حاتم الطائي إلى الروم، ووقعت عمته في الأسر، فسألت الرسول ﷺ أن يمن عليها ففعل، ثم سألته أن يمنحها دابة لتركبها ففعل، فمضت إلى عدي بن حاتم فطلبت منه أن يسلم فأسلم(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٢:٧٩).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٥:٦٥).

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة التاسعة

أمثلة تطبيقية من
حياة النبي ﷺ

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة التاسعة

أمثلة تطبيقية من حياة النبي ﷺ [(١)]

مجاهدة النفس

المجاهدة لغة:

مصدر جاهد يجاهد جهادًا ومجاهدة، وهو مأخوذ من مادة (ج هـ د) التي تدل على «المشقة» يقال: جهدت نفسي وأجهدت، والجهد الطاقة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

النفس في اللغة: الروح، يقال فرحت نفسه.

مجاهدة النفس اصطلاحًا:

محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع[(٢)].

وقال المناوي: وقيل (المجاهدة) هي حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى، وقيل: هي بدل المستطاع في أمر المطاع (أي المولى - عز وجل -)[(٣)].

---

(١) من موسوعة: نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم (بتصرف) - دار الوسيلة للنشر والتوزيع.

(٢) كتاب التعريفات (٢٠٤).

(٣) التوقيف ص (٢٩٧)، وقد ذكر تعريفات أخرى أقرب إلى تجليات الصوفية.

كيفية المجاهدة:

عن أبي عمرو بن بجيد قال: من كرم عليه دينه هانت عليه نفسه.

قال القشيري: أصل مجاهدة النفس فطمها عن المألوفات، وحملها على غير هواها. وللنفس صفتان: انهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات، فالمجاهدة تقع بحسب ذلك. قال بعض الأئمة: جهاد النفس داخل في جهاد العدو، فإن الأعداء ثلاثة: رأسهم الشيطان، ثم النفس لأنها تدعو إلى اللذات المفضية إلى الوقوع في الحرام الذي يسخط الرب، والشيطان هو المعين لها على ذلك ويزينه لها. فمن خالف هوى نفسه قمع شيطانه، فمجاهدة نفسه حملها على اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه. وإذا قوي العبد على ذلك سهل عليه جهاد أعداء الدين، فالأول: الجهاد الباطن، والثاني: الجهاد الظاهر.

وجهاد النفس أربع مراتب: حملها على تعلم أمور الدين، ثم حملها على العمل بذلك، ثم حملها على تعليم من لا يعلم، ثم الدعاء إلى توحيد الله، وقتال من خالف دينه وجحد نعمه. وأقوى المعين على جهاد النفس جهاد الشيطان بدفع ما يلقي إليه من الشبهة والشك، ثم تحسين ما نهى عنه من المحرمات، ثم ما يفضي الإكثار منه إلى الوقوع في الشبهات، وتمام المجاهدة أن يكون متيقظًا لنفسه في جميع أحواله، فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات وبالله التوفيق(١).

وقال ابن حجر - رحمه الله - في شرح المشكاة في شرح حديث ربيعة بن كعب عندما سأل النبي ﷺ المرافقة في الجنة: «من جاهد نفسه بكثرة سجوده حصلت له تلك الدرجة العليا التي لا مطمع في الوصول إليها إلا بمزيد

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٤٥-٣٤٦).

الألوكة
www.alukah.net

الزلفى عند الله في الدنيا بكثرة السجود المومئ إليه بقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

فكل سجدة فيها قرب مخصوص لتكفلها بالرقي إلى درجة من درجات القرب وهكذا حتى ينتهي إلى درجة المرافقة لحبيبه ﷺ، فتتج من هذا الذي هو على منوال قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

أن القرب من رسول الله ﷺ لا يحصل إلا بالقرب من الله تعالى. وأن القرب من الله تعالى لا ينال إلا بالقرب من رسول الله ﷺ. فالقربان متلازمان لا انفكاك لأحدهما عن الآخر البتة. ومن ثم أوقع تعالى متابعة رسوله بين تلك المحبتين ليعلمنا أن محبة العبد لله ومحبته للعبد متوقفتان على متابعة رسوله»(١).

المثل التطبيقي من حياة النبي ﷺ في الصبر على العبادة:

عن المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه. فقيل له: أتكلف هذا(٢)؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فقال «أفلا أكون عبدًا شكورًا»(٣).

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: صليت مع النبي ﷺ ليلة، فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء. قلنا: وما هممت؟ قال: أن أقعد وأذر النبي ﷺ.

---

(١) دليل الفالحين (١/ ٣١٨).

(٢) أتكلف هذا؟ أي أتتكلف هذا؟ فحذفت إحدى التاءين.

(٣) البخاري - الفتح٣(١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩) واللفظ له.

وعن حذيفة، قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة. فافتتح البقرة. فقلت[١]: يركع عند المائة. ثم مضى. فقلت[٢]: يصلي بها في ركعة. فمضى. فقلت: يركع بها. ثم افتتح النساء فقرأها. ثم افتتح آل عمران فقرأها. يقرأ مترسلاً. إذا مر بآية فيها تسبيح سبح. وإذا مر بسؤال سأل. وإذا مر بتعوذ تعوذ. ثم ركع فجعل يقول: «سبحان الله العظيم» فكان ركوعه نحوًا من قيامه. ثم قال: «سمع الله لمن حمده» ثم قام طويلاً. قريبًا مما ركع. ثم سجد فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجوده قريبًا من قيامه[٣].

وعن عائشة - رضي الله عنهما - قالت: كان رسول الله ﷺ، إذا دخل العشر[٤]، أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجد وشد المئزر[٥].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى، قام حتى تفطر[٦] رجلاه. فقالت عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا»[٧].

---

(١) فقلت أي في نفسي، يعني ظننت أنه يركعه عند مائة آية.

(٢) فقلت يصلي بها في ركعة: معناه ظننت أنه يسلم بها، فيقسمها ركعتين. وأراد بالركعة الصلاة بكاملها، وهي ركعتان، ولا بد من هذا التأويل لينتظم الكلام بعده، وعلى هذا فقوله: ثم مضى، معناه قرأ معظمها بحيث غلب على ظني أنه لا يركع الركعة الأولى إلا في آخر البقرة. فحينئذ قلت: يركع الركعة الأولى بها، فجاوز وافتتح النساء.

(٣) مسلم (٧٧٢).

(٤) إذا دخل العشر: أي العشر الأواخر من رمضان.

(٥) البخاري - الفتح ٤(٢٠٢٤). ومسلم (١١٧٤) واللفظ له.

(٦) تفطر: أصلها تتفطر. حذفت إحدى التاءين. أي تتشقق.

(٧) البخاري - الفتح ٨(٤٨٣٧). ومسلم (٢٨٢٠) واللفظ له.

الألوكة
www.alukah.net

المحبة

المحبة لغةً:

هي الاسم من الحب وكلاهما مأخوذ من مادة (ح ب ب) التي تدل على اللزوم والثبات[(١)]، قال ابن فارس: واشتقاق الحب والمحبة من أحبة إذا لزمة.

المحبة اصطلاحًا:

قال الراغب: المحبة ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيرًا، وذلك ضربان: أحدهما طبيعي وذلك يكون في الإنسان والحيوان، وقد يكون في الجمادات، والآخر اختياري ويختص به الإنسان[(٢)].

وقال الكفوي: المحبة إفراط الرضا، وهو قسمان: قسم يكون لكل مكلف، وهو ما لابد منه في الإيمان، وحقيقته قبول ما يرد من قبل الله من غير اعتراض على حكمه وتقديره، وقسم لا يكون إلا لأرباب المقامات وحقيقته ابتهاج القلب وسروره بالمقضي، والرضا فوق التوكل لأنه المحبة في الجملة[(٣)].

المثل التطبيقي من حياة النبي ﷺ في المحبة:

عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما -، حدث عن النبي ﷺ: «أنه كان يأخذه والحسن فيقول: «اللهم أحبهما فإني أحبهما»»[(٤)].

---

(١) ولهذه المادة معنيان أصليان هما: الحبة من الشيء ذي الحب، والثاني: القصر (انظر في معاني المادة وأمثلتها مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٢٦).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة (٣٦٣).

(٣) الكليات للكفوي (٤٧٨).

(٤) البخاري - الفتح ٧(٣٧٣٥).

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «حبب إليَّ: النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة»[(١)].

وعن أنس – رضي الله عنه – قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين – قال: حسبت أنه قال: من عرس – فقام النبي ﷺ مُمْثِلاً[(٢)] فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إليَّ». قالها ثلاث مرار[(٣)].

وعن البراء – رضي الله عنه – قال: رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه يقول: «اللهم إني أحبه فأحبه»[(٤)].

وعن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك»، فقال: «أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(٥)].

من فوائد المحبة:

(١) دلالة على كمال الإيمان وحسن الإسلام.

(٢) المحبة تغذي الأرواح والقلوب وبها تقر العيون، بل إنها هي الحياة

---

(١) النسائي (٧/ ٦١) باب عشرة النساء. وأحمد (٣/ ١٢٨) واللفظ لهما وقال محقق جامع الأصول (٤/ ٧٦٦): حديث حسن.

(٢) ممثلا – بضم أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه – : هكذا ورد من الرباعي، والذي ذكره أهل اللغة أنه مثل – بفتح الميم وضم الثاء – أي انتصب قائمًا وهو ثلاثي.

(٣) البخاري – الفتح ٧(٣٧٨٥).

(٤) البخاري – الفتح ٧(٣٧٤٩).

(٥) أبو داود (١٥٢٢) وقال الألباني (١/ ٢٨٤): صحيح. وقال الأرناؤوط في تعليقه على «جامع الأصول» (٤/ ٢٠٩): إسناده صحيح.

الألوكة
www.alukah.net

التي يعد من حرم منها من جملة الأموات[١] .

(٣) قلب صاحبها تغشاه مباركة الله ونعمه على الدوام.

(٤) تظهر آثار المحبة عند الشدائد والكربات.

(٥) من ثمار المحبة النعيم والسرور في الدنيا الموصل إلى نعيم وسرور الآخرة.

(٦) في حب الله تعالى حمد المحبوب، والرضى عنه، وشكره، وخوفه، ورجاؤه، والتنعم بذكره، والسكون إليه، والأنس به، والإنفاق في سبيله.

(٧) حب النبي ﷺ يوجب السعي إلى إحياء سنته، والحفاظ على دعوته.

(٨) محبة الناس مع التودد إليهم تحقق الكمال الإنساني لمن يسعى إليه.

(٩) وحبه ﷺ يستوجب حب من أحبه وما أحبه.

(١٠) محبة الإخوان في الله من محبة الله ورسوله.

(١١) التحاب في الله يجعل المتحابين في الله من الذين يستظلون بظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله.

(١٢) لا يكتمل إيمان المرء إلا إذا تحقق حبة لأخيه ما يحبه لنفسه وفي هذا ما يخلصه من داء الأنانية.

(١٣) أن يستشعر المرء حلاوة الإيمان فيذوق طعم الرضا وينعم بالراحة النفسية.

(١٤) حب الله ورسوله وسيلة أكيدة لاستجلاب نصر الله وعونه.

---

(١) أخذنا هذه الفائدة من كلام ابن القيم (انظر ص ٣٣٢٩ من هذه الموسوعة).

المداراة

المداراة لغة:

قال ابن منظور: المداراة: المخالفة والمدافعة، يقال فلان: ذو تدرأ، أي حفاظ ومنعة وقوة على أعدائه ومدافعة، وذلك في الحرب والخصومة.

وأصله مهموز، فيقال: دارأته مداراة وغير مهموز فيقال: درايته وذلك إذا اتقيته ولاينته.

اصطلاحًا:

قال المناوي: المداراة: الملاينة والملاطفة، وأصلها المخاتلة ومنه: الدراية وهو العلم مع تكلف وحيلة(١).

قال ابن بطال - رحمه الله تعالى - : المداراة: خفض الجناح للناس، ولين الكلام وترك الإغلاظ لهم في القوم. وقال ابن حجر: المداراة الدفع برفق(٢).

المداراة لابد منها في الحياة:

قال ابن حبان - رحمه الله تعالى - : الواجب على العاقل أن يلزم المداراة مع من دفع إليه في العشرة من غير مفارقة المداهنة؛ إذ المداراة من المداري صدقة له، والمداهنة من المداهن تكون خطيئة عليه، والفصل بين المداراة والمداهنة: هو أن يجعل المرء وقته في الرياضة لإصلاح الوقت الذي هو له مقيم بلزوم المداراة من غير ثلم في الدين من جهة من الجهات، فمتى ما تخلق

---

(١) التوقيف (٣٠١).

(٢) الفتح (١٠/ ٥٢٨).

الألوكة
www.alukah.net

المرء بخلق شابه بعض ما كره الله منه في تخلقه فهذا هو المداهنة،لأن عاقبتها تصير إلى قل ويلازم المداراة لأنها تدعو إلى صلاح أحواله، ومن لم يدار الناس ملوه، وقد أنشد علي بن محمد البسامي:

دار من الناس ملالاتهم
من لم يدار الناس ملوه
ومكرم الناس حبيب لهم
من أكرم الناس أحبوه

فالواجب على العاقل أن يداري الناس مداراة الرجل السابح في الماء الجاري، ومن ذهب إلى عشرة الناس من حيث هو كدَّر على نفسه عيشه، ولم تصف له مودتهم؛ لأن وداد الناس لا يستجلب إلا بمساعدتهم على ما هم عليه. إلا أن يكون مأثمًا، فإذا كانت حالة معصية فلا سمع ولا طاعة، والبشر قد ركب فيهم أهواء مختلفة وطبائع متباينة، فكما يشق عليك ترك ما جبلت عليه فكذلك يشق على غيرك مجانبة مثله، فليس إلى صفو ودادهم سبيل إلا معاشرتهم من حيث هم، والإغضاء عن مخالفتهم في كل الأوقات، إذ إن من لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما يأتون من المكروه، وترك التوقع لما يأتون من المحبوب كان إلى تكدير عيشه أقرب منه إلى صفاته، وإلى أن يدفعه الوقت إلى العداوة والبغضاء أقرب منه إلى أن ينال منهم الوداد، وترك الشحناء، ومن لم يدار صديق السوء كما يداري صديق الصدق ليس بحازم، ولقد أحسن الذي يقول:

تجنب صديق السوء واصرم حباله
وإن لم تجد عنه محيصًا فداره

وأحبب حبيب الصدق واحـذر مراءه
تـنـل مـنـه صـفـو الـود مـا لم تمـاره

وذلك لأنه إذا كان كلما رأى من أحدٍ زلة رفضه لزلته بقي وحيدًا، لا يجد من يعاشر، وفريدًا لا يجد من يخادن، بل يغضي على الأخ الصادق زلاته ولا يناقش الصديق السيئ على عثرات.

المثل التطبيقي من حياة النبي ﷺ في المداراة:

عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال ﷺ: «ائذنوا له، فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة». فلما دخل ألان له الكلام. فقلت له: يا رسول الله، قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول.

فقال: أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه»[(١)].

وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا نكشر[(٢)] في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم»[(٣)].

وعن ابن أبي مليكة أن النبي ﷺ أهديت له أقبية من ديباج مزردة

---

(١) البخاري الفتح ١٠(٦١٣١). وقال الحافظ ابن حجر (رحمه الله تعالى) : ولفظه عند الحارث بن أسامة «إنه منافق أداريه عن نفاقه، وأخشى أن يفسد على غيره (الفتح: ١٠/ ٥٢٩).

(٢) نكشر في وجوه أقوام: نبسم في وجوههم. يقال: كشر عن أسنانه أبدى يكون ذلك في الضحك وغيره، والمقصود هنا الضحك بقرينة مقابلته بلعن القلوب.

(٣) ذكره البخاري معلقًا موقوفًا على أبي الدرداء. وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٤٤): وصله ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحربي في غريب الحديث والدينوري في المجالسة وأخرجه أبو نعيم في الحلية، فهو على شرطه إما حسن أو صحيح.

الألوكة
www.alukah.net

بالذهب، فقسمها في أناس من أصحابه، وعزل منها واحدًا لمخرمة بن نوفل فجاء ومعه ابنه المسور بن مخرمة، فقام على الباب، فقال: ادعه لي، فسمع النبي ﷺ صوته فأخذ قباء فتلقاه به واستقبله بأزراره فقال: يا أبا المسور، خبأت هذا لك، وكان في خلقه شيء»[1].

قال القاضي التنوخي:

الـق الـعـدو بـوجـه لا قـطـوف به
يـكـاد يقطر مـن مـاء البشاشات
فـأحـزم مـن يـلـقـى أعـاديـه
في جسم حقد وثـوب مـن مـودات
الـرفـق يـمـن وخـير الـقـول أصدقه
وكـثـر المـزح مفتاح الـعـداوات[2]

وقال صالح بن عبد القدوس:

أرضى عـن المـرء مـا أصـفـى مودته
وليس شيء من البغضاء يرضيني
والله لـو كـرهـت كـفـى مصاحبي
نقلت إذ كـرهـت يـومًـا لهـا بيني
ثـم انثنيت عـلى الأخـرى فقلت لها
إن تسعديني وإلا مثلها كـوني
إني كـذاك إذ أمـر تـعـرض لي
خشيت منه عـلى دنـيـاي أو ديني

(١) البخاري – الفتح ٦(٣١٢٧).

(٢) أدب الدنيا والدين (٢٢٣).

خرجت منه وعرضي ما أدنسه
ولم أقم غرضًا للنذل يرميني
وملطف بي مدار مكاشرة
مغض على وغر في الصدر مكنون
ليس الصديق الذي تخشى بوادره
ولا العدو على حال بمأمون
يلومني الناس فيما لو أخبرهم
بالعذر فيه يومًا لم يلوموني[١]

وقال ابن بطال - رحمه الله تعالى - : «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي من أقوى أسباب الألفة بينهم، فإن قال بعضهم إن المداراة هي المداهنة، وهذا غلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق بينهما أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر الشيء، ويستر باطنه وقد فسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة: هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولاسيما إذا احتيج إلى تألفه»[٢].

وقال الماوردي - رحمه الله تعالى - أيضًا: «إن الإنسان إن كان مأمورًا بتألف الأعداء، ومندوبًا إلى مقاربتهم، فإنه لا ينبغي له أن يكون لهم راكنًا وبهم واثقًا، بل يكون منهم على حذر، ومن مكرهم على تحرز، فإن العداوة إذا استحكمت في الطباع صارت طبعًا لا يستحيل، وجبلة لا تزول، وإنما

---

(١) الآداب الشرعية (٣/ ٥٦١)

(٢) فتح الباري (١٠/ ٥٤٥).

الألوكة
www.alukah.net

يستكفي بالتألف إظهارها[١]، ويستدفع به أضرارها، كالنار يستدفع بالماء إحراقها، ويستفاد به إنضاجها، وإن كانت محرقة متأججة في يابس الحطب لا يقربها إلا تالف، ولا يدنو منها إلا هالك»[٢].

وقال ابن الجوزي – رحمة الله تعالى –: «من الابتلاء العظيم إقامة الرجل في غير مقامه، مثل أن يحتاج الرجل الصالح إلى مداراة الظالم والتردد إليه، وإلى مخالطته من لا يصلح، وإلى أعمال لا تليق به، وإلى أمور تقطع عليه مراده الذي يؤثره، فقد يقال للعالم: تردد على الأمير وإلا خفنا عليك سطوته، فيتردد فيرى ما لا يصلح له ولا يمكنه أن ينكر أو يحتاج إلى شيء من الدنيا وقد منع حقه، فيحتاج أن يعرض بذكر ذلك أو يصرح لينال بعض حقه، ويحتاج إلى مداراة من تصعب مداراته، بل يتشتت همه لتلك الضرورات»[٣].

قال بعض العلماء: «رأس المداراة ترك المماراة»[٤].

وقال شاعر:

ما يقي عنك قومًا أنت خائفهم
كمثل دفعك جهالاً بجهال

قعس[٥] إذا حدبوا واحدب إذا قعسوا
ووازن الشر مثقالاً بمثقال[٦]

---

(١) يستكفي: أي يستكفئ، من قولهم كفأ القدر غطاه.

(٢) الآداب الشرعية (٣/ ٤٦٩).

(٣) صيد الخاطر (٢٩٠ – ٢٩١).

(٤) الآداب الشرعية (٣/ ٤٦٩).

(٥) القعس: خروج الصدر ودخول الظهر وهو ضد الحدب.

(٦) الآداب الشرعية (٢/ ١١).

وقال زهير:

ومـــن لم يـصــانــع في أمـــور كـثـيرة
يـضرس بأنياب ويـوطـأ بمنسم[١]

وقال النمر بن تولب:

وأبـغـض بغيضك بـغـضًـا رويـــدًا
إذا أنـــت حـــاولـــت أن تحكما
وأحـــب حـبـيـبـك حـبًّـا رويـــدًا
فـلـيـس يـعـولـك أن تـــصرمـــا[٢]

من فوائد المداراة:

١- الراحة في الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة.

٢- لا بد منها لاتقاء شر الأشرار، ودوام معاشرة الأخيار.

٣- يحتاج إليها مع الأصدقاء كما يحتاج إليها مع الأعداء.

٤- دليل كمال العقل، وحسن الخلق، ومتانة الدين.

٥- المداراة تكون في الأمور الدنيوية فقط، وتحرم إذا كانت في أمور الدين وهذه هي المداهنة.

---

(١) المرجع السابق نفسه (١/ ٥٤). المنسم - بفتح الميم وكسر السين - طرف خف البعير والنعامة والفيل.

(٢) الآداب الشرعية (١/ ٥٣).

المروءة

المروءة لغة:

مصدر مرؤ الرجل يمرؤ، وهو مأخوذ من مادة (م ر أ) التي ذكر ابن فارس أنها لا تنقاس (أي ليس لها معنى واحد ترجع إليه مشتقاتها)، يقال امرؤ وامرآن وامرئ، وامرأة تأنيث امرئ، المروءة: كمال الرجولية.

المروءة اصطلاحًا:

قال الماوردي: المروءة مراعاة الأحوال إلى أن تكون[(١)] على أفضلها، حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق[(٢)].

وقال الكفوي: المروءة هي الإنسانية. وقيل هي الرجولية الكاملة[(٣)].

وقال الجرجاني: هي قوة للنفس مبدأ لصدور الأفعال الجميلة عنها المستتبعة للمدح شرعًا وعقلاً وعرفًا)[(٤)].

المثل التطبيقي من حياة النبي ﷺ في المروءة:

عن سهل – رضي الله عنه – أن امرأة جاءت النبي ﷺ ببردة منسوجة فيها حاشيتها.

أتدرون ما البردة؟ قالوا: الشملة. قال: نعم. قالت: نسجتها بيدي،

---

(١) الضمير في تكون يرجع إلى النفس، ويؤيد هذا قوله فيما بعد: فكتب أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها، انظر (هامش ١ ص ٣٠٦) من كتاب (أدب الدنيا والدين).

(٢) أدب الدنيا والدين (٣٠٦).

(٣) الكليات للكفوي (٨٧٤).

(٤) التعريفات (٢١٠).

فجئت لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فحسنها فلان، فقال: اكسنيها، ما أحسنها!. قال القوم: ما أحسنت. لبسها النبي ﷺ محتاجًا إليها، ثم سألته وعلمت أنه لا يرد قال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني. قال: سهل فكانت كفنه[(١)].

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فلما أدركته القائلة[(٢)] وهو في واد كثير العضاه[(٣)] فنزل تحت شجرة واستظل بها وعلق سيفه، فتفرق الناس في الشجر يستظلون. وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا. فإذا أعرابي قاعد بين يديه، فقال: «إن هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي[(٤)]، فاستيقظت وهو قائم على رأسي مخترط سيفي صلتًا[(٥)]، قال: ما يمنعك مني؟ قلت: الله، فشامه[(٦)] ثم قعد، فهو هذا. قال: ولم يعاقبه رسول الله ﷺ[(٧)].

من فوائد المروءة:

(١) تعلم الإنصاف والصدق والاحتمال والصبر.

(٢) تبعد المسلم عما يكره الله والمسلمون.

---

(١) البخاري - الفتح (١٢٧٧) و ٤(٢٠٩٣) و(٦٠٣٦).

(٢) القائلة: نصف النهار، وفي الصحاح: الظهيرة.

(٣) العضاهة: بالكسر أعظم الشجر أو كل ذات شوك، والجمع عضاه وعضون.

(٤) اخترط سيفي: استله.

(٥) الصلت من السيوف: الصقيل الماضي.

(٦) شامه: أي أغمده.

(٧) البخاري الفتح ٧(٤١٣٩) والفظ له. ومسلم (٨٤٣).

الألوكة
www.alukah.net

(٣) رفع الهمم للملمات، والترفع عن المحقرات.

(٤) شكر المنعم على ما أنعم.

(٥) التحلي بالحزم عند العزم والعفو عند المقدرة.

(٦) تكسب الإنسان مكارم الأخلاق.

(٧) تبتعد بالإنسان عن كل ما يؤذي صفة الكمال في الإنسان.

(٨) مساعدة الأهل والإخوان والجيران.

(٩) تعلي شرف النفس وقدرها.

(١٠) تخلص الإنسان من غرور الهوى ونوازع الشهوة.

(١١) تدعو الإنسان إلى الأنفة من الخمول والكسل.

(١٢) تدعو الإنسان إلى استنكار مهانة النقص.

(١٣) دعوة للإنسان إلى تجنب الأماني بلا عمل؛ لأن التمني استصغار لنعم الله تعالى.

(١٤) تضفي على الإنسان عزًا، وعلى المجتمع ترابطًا.

المواساة

اصطلاحًا:

قال ابن مسكويه: المواساة: معاونة الأصدقاء والمستحقين ومشاركتهم في الأموال والأقوات[١].

وقال ابن حجر - رحمه الله تعالى - المواساة: أن يجعل صاحب المال يده ويد صاحبه في ماله سواء[٢].

وقال غيرهما: المواساة: المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق[٣].

المثل التطبيقي من حياة النبي ﷺ في المواساة:

عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه قال وهو يخطب: إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناسًا يعلمونني به عسى أن لا يكون أحدهم رآه قط[٤].

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أنه قال: كنت جالسًا في داري. فمر بي رسول الله ﷺ فأشار إليَّ. فقمت إليه. فأخذ بيدي. فانطلقنا حتى أتى بعض حجر نسائه. فدخل. ثم أذن لي. فدخلت الحجاب عليها[٥].

---

(١) تهذيب الخلاق لابن مسكوبه (٣/ ٣١).

(٢) الفتح (٧/ ٢٥).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١/ ٨٢) ط دار المعارف.

(٤) أحمد (١/ ٦٩-٧٠) برقم: (٥٠٤). وقال الشيخ أحمد شاكر (١/ ٣٧٨): إسناده حسن.

(٥) فدخلت الحجاب عليها: معناه دخلت الحجاب إلى الموضع الذي فيه المرأة وليس فيه أنه رأى بشرتها.

الألوكة
www.alukah.net

فقال: «هل من غذاء» فقالوا: نعم. فأتى بثلاثة أقرصة. فوضعن على نبي[١]. فأخذ رسول الله قرصًا فوضعه بين يديه. وأخذ قرصًا آخر فوضعه بين يدي. ثم أخذ الثالث فكسرة باثنين. فجعل نصفه بين يديه ونصفه بين يدي. ثم قال: «هل من أُدم؟» قالوا: لا. إلا شيء من خل. قال: «هاتوه. فنعم الأدم هو»[٢].

(١) على نبي: أي على مائدة من خوص، وروى: بتي والبت: كساء من وبر أو صوف، فلعله منديل وضع عليه هذا الطعام. ورواه بعضهم بني: وهو الصواب وهو طبق من خوص.

(٢) مسلم (٢٠٥٢).

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة العاشرة

من وصايا الرسول ﷺ

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة العاشرة
من وصايا الرسول ﷺ [(١)]

الوصية الأولى: التوكلُ

نص الوصية:

عن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه قال: قال رجل للنبي ﷺ: أرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»[(٢)].

مفردات الوصية:

أرسل ناقتي: أي أطلقها دون أن أربطها بحبل.

اعقلها: أي شد ركبة ناقتك مع ذراعها بحبل.

توكل: أي اعتمد على الله اعتمادًا خالصًا بصدق القلب والنية دون أن يكون هذا الاعتماد يشاركه أي شيء آخر من أمور الدنيا، فأساس التوكل هو في قلب الإنسان.

ما يفهم من الوصية:

أخي المسلم، إن النبي ﷺ حين سأله الرجل هذا السؤال كان قصد الرجل أن يستفهم عن موضوع التوكل وارتباطه بالعمل والأخذ بالأسباب في أعمال الإنسان كلها، فأجابه النبي ﷺ بهذا الجواب ليفهمه أن الأخذ

---

(١) من كتاب: «من وصايا الرسول للشباب» - إعداد هيثم جمعة هلال- دار المعرفة (بيروت- لبنان)- ط الأولى ١٤٣٣هـ (بتصرف يسير).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (٧٣١). وهو حديث حسن.

بالأسباب لا يعارض التوكل؛ فالتوكل على الله مطلوب في أول العمل كما هو مطلوب في في أثناء العمل كما هو مطلوب في نهاية العمل، ولو أن النبي ﷺ قال للرجل: اعقلها ثم توكل، لاختلف المعنى اختلافًا كثيرًا، ولكان المقصود أن العمل هو قبل التوكل، ولكان هذا كما نقول لأخينا: اذهب إلى السوق ثم إلى المنزل، ولو أننا قلنا له: اذهب إلى السوق وإلى المنزل، لما كان المراد أن نجعل ذهابه إلى السوق أولاً كما في العبارة الأولى، فالجملة الثانية تعني أن يذهب إلى السوق والمنزل معًا، فالمهم هو الذهاب إلى المكانين الذين طلبنا منه أن يذهب إليهما، فسواء عليه أذهب إلى السوق أولاً أم إلى المنزل أولاً، فالمهم أن يذهب إلى السوق والمنزل.

والنبي ﷺ أيضًا طلب في هذا الحديث أن يقوم الرجل بربط التوكل بالعمل، أي كأنه قال له: اربط الناقة - يا إنسان - وأنت متوكل على الله أصلاً، ولا تنس التوكل على الله في كل عمل من أعمالك في البداية ولا في النهاية.

١ - التوكل من الإيمان:

أخي المسلم، إن الإيمان لابد منه في أي عمل يعمله الإنسان، ولا يصح أن ينساه المسلم في حياته وفي أية ساعة من ساعات الحياة ولا لحظة من لحظاتها؛ فإن الإيمان إذا اهتز اهتزت حياة الإنسان، واختل توازنه، وأصبح كأنه وقع من رأس جبل يتدحرج ويتقلب في أمواج الهواء إلى وادٍ عميق ليس له قرار.

وقد دلت الآيات والأحاديث النبوية على أن التوكل من الإيمان، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال أيضًا:

الألوكة
www.alukah.net

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

ومن الأحاديث الدالة على التوكل قوله ﷺ: «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير: تغدو خِماصًا، وتروح بِطانًا»(١).

٢- التوكل والعمل:

أخي المسلم، ربما يتبادر إلى ذهن بعض الناس أن معنى هذه الوصية ينصرف إلى أن الإنسان يجب أن يأخذ بالأسباب، وأن يعمل فقط، وهذا يعني الاعتماد على العمل لا الاعتماد على الله وحده، فالنبي ﷺ أوضح للرجل وجوب الاعتماد على الله أولاً وآخرًا، لا أنه يجب الاعتماد على العمل، ولا يفهم من الحديث هذا المعنى الذي يظنه كثير من الناس.

إنك حين تذهب - أخي المسلم - إلى امتحان المدرسة تكون قد أعددت جيدًا لهذا الامتحان، أو يفترض بك أنك كنت فعلت ذلك، وأنت لا تعتمد على ثقتك بنفسك، ولا على أنك درست جيدًا، بل تعتمد على الله، وتعلم تمامًا أن أمر ذاكرتك وحفظك كله وثقتك بنفسك كلها بيد الله سبحانه، وهو الذي يسير الوجود كله بأمره، فإما أن ييسر الأمر، وإما ألا يتيسر الأمر لك بمشيئة الله، هل تستطيع ذاكرتك أن تعمل جيدًا لولا حفظ الله ورعايته؟ وهل تقدر على الإمساك بالقلم لولا أن الله جعلك قادرًا على ذلك؟

لا شك أنك لن تستطيع شيئًا لولا أن الله جعلك تستطيع أن تفعل ذلك الشيء.

٣- التوكل والاستسلام:

---

(١) تغدو: أي تبكر ما بين صلاة الصبح إلى طلوع الشمس، وتروح: من الرواح، أي وقت العشاء. خماصًا: أي جائعة البطون، جمع خميص. وبطانًا: ممتلئة البطون، جمع بطن.

أخي المسلم، إن المطلوب الاعتماد على الله وحده أولاً وآخرًا في كل عمل، فالله سبحانه وتعالى أمرنا مثلاً أن نعمل ونكدح في حياتنا ونجد ونجتهد لتحصيل ثمرات الجد والاجتهاد وسائر الأعمال الشرعية الصحيحة، وهذا أمر لا يختلف عليه اثنان من الناس.

غير أن بعض الناس يظن أنه لابد أن يترك العمل مادام سبحانه وتعالى هو المتكفل بهذا الوجود كله بكل ما فيه من البشر والكائنات، وبكل ما فيه من أعمال تلك الكائنات، وبكل ثمرات أعمال الكائنات، ومن ثم يظن أن هذا هو معنى التوكل، وهو أمر خاطئ لا يجوز أن يفهم من الوصية.

- قصة بعض المتعبدين والعبرة منها:

ولتوضيح هذا الأمر إليك قصة رجل من المتعبدين قديمًا كان جالسًا في أحد المجالس فسأله بعض الحاضرين في ذلك المجلس عن سبب تركه للعمل، فأجاب الرجل قائلاً: إنني كنت مرة في مجلس من مجالس إخواني، وكنا نتحادث وإذا بطائر يتردد على نافذة المجلس التي كانت فيها كسرات خبز، ثم كان هذا الطائر يغيب عن أعيننا، وطلبت من أحد الجالسين معنا أن يتفقد أمر ذلك الطائر، فرجع الرجل بعد مدة وأخبرني أن الطائر يذهب بكسرات الخبز إلى طائر آخر أعمى فيلقمه ويطعمه تلك الكسرات، فقلت في نفسي: هذا طائر عاجز قد ساق الله إليه رزقه وهو جالس، فلم العمل إذًا؟ ومن يومها تركت العمل.

وكان رجل من المسلمين ذوي التفكير المستنير حاضرًا يسمع كلام الرجل المتعبد فقال له: أصلحك الله يا أخي؟ لم قبلت أن تكون كالطائر الأعمى ولم تقبل أن تكون كالطائر البصير؟ وكان هذا الرد الصادر من ذلك

الألوكة
www.alukah.net

المسلم الواعي كافيًا في ردّ حجة الرجل الخاطئة عن ترك العمل وأفهمته أن الأخذ بالتوكل لا يعني أن نترك العمل.

- قصة أخرى أيام النبي ﷺ عن ترك العمل:

وقد ورد في التفاسير القرآنية أن قومًا من أهل اليمن أيام النبي ﷺ كانوا يذهبون للحج ولا يأخذون معهم شيئًا من الطعام أو الشراب، ويقولون: نحن المتوكلون، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية تخاطبهم: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فدلت الآية على أن المطلوب أن يتزود هؤلاء الناس وغيرهم بالطعام والشراب في في أثناء سيرهم للحج، وأشارت الآية أيضًا إلى أن الزاد له أنواع: منها الزاد الدنيوي الذي هو الطعام والشراب، وثمة زاد أخروي متعلق بالآخرة، وهو زاد التقوى، فأمر الله سبحانه وتعالى بالأخذ بالأسباب والظروف والحالات التي تجعل الحياة قائمة.

٤- معنى الأخذ بالأسباب:

الأسباب في حياتنا الدنيوية هي ما تكون مؤدية إلى مسبب عنها أو نتيجة حتمية، فالمطرقة حين نطرق بها الزجاج فهي بهذا العمل لكسر الزجاج، وليس هناك عاقل يدعى أن الزجاج لن ينكسر بالمطرقة إذا طرقته. ولكن مهلاً أخي المسلم، فنحن نقول: إن هذا سبب، ولكنه بشروط، فهو سبب مقيد حتمًا بوجود شروط، وبانعدام أمور أخرى تمنع من تحقق العمل.

فشرط كسر الزجاج بالمطرقة مثلاً، هو أن يكون الزجاج قابلاً للكسر بالمطرقة، فثمة أنواع من الزجاج لا تكسر باليد ولا حتى بطلقات الرصاص، وشرط آخر لكسر الزجاج أيضًا هو أن تكون لدى الشخص قوة معينة

لكسر الزجاج، فالعاجز والطفل الصغير لا يستطيعان كسر الزجاج ولا حمل المطرقة، هناك شروط إذا لابد أن تتحقق في السبب، و ثمة موانع لابد أن تختفي أيضًا ليتحقق الكسر.

وهذا يعني أن الأسباب الدنيوية، هي أسباب تؤدي إلى مسببات حتمًا ولكن بوجود شروط معينة، وباختفاء الموانع التي تمنع من تحقيقها، ولكننا حين نقول: إن الله هو السبب أو المسبب لفعل هذا الشيء، أو ذاك، فإن الله سبحانه وتعالى حين يفعل الفعل لا يتقيد فعله لا بشرط ولا مانع، فالله سبب كل شيء في هذا الوجود، ولا يصح أن نشبهه بأي شيء، ولا أن نتصور أنه سبحانه يفعل الفعل بشرط من الشروط، فأفعال الله ليست مقيدة أبدًا، فعلى هذا - أخي المسلم - يكون الله سبحانه هو المسير للوجود أبدًا، وهو المتحكم في كل شيء فيه؛ ولهذا فإننا عاجزون أمام قدرة الله، ولا نستطيع أن نفعل شيئًا إلا بإذن الله، وليس ثمة فعل نقوم به إلا بمشيئة الله سبحانه.

ومن هنا .. فإننا نعتمد على الله تعالى في كل شيء.

٥- التوكل والخلل في الأعمال:

أخي المسلم، قد يظن بعض المسلمين أنهم يقومون بأعمال تامة وهي ليست تامة شرعًا؛ وذلك لأنهم يفهمون التوكل خطأ، فمن ذلك أن بعض الناس يلجأون إلى الدعاء فقط علمًا بأن هناك واجبات أخرى مطلوبة مع الدعاء، فالدعاء وحده لا يعني أننا نتوكل على الله؟، وإنما الدعاء مع العمل هما المطلوبان مع التوكل أيضًا.

هل تتصور نفسك - أخي المسلم - أن دعاءك لله هو الذي يجعلك تنجح في الدراسة بحيث تتجاوز الامتحان وأنت لم تفتح كتابًا؟ لابد أنك

الألوكة
www.alukah.net

ترى هذا التصور خاطئًا لا يصح أن يتصوره عاقل من العقلاء، وكذلك هي الحال لو أراد أن يزيل كومة التراب أمام منزله، ثم رآه الناس وليس في يده مجرفة ولا زنبيل ولا أية مساعدة، وإنما وقف رافعًا يديه نحو السماء يتضرع إلى ربه أن يساعده على إزالة التراب، لاشك أن الناس سيظنون أنه شخص غير عاقل.

إن الدعاء والعمل مطلوبان ولا ينفصلان، فالدعاء هو العبادة كما جاء عن النبي ﷺ، ولكنه ليس وحده حلاً لكل شيء، ولابد أن يرتبط به عمل ما يقوم به المرء لإنجاز ما يريد.

٦- التوكل والرزق:

الرزق بيد الله وحده كالأجل، ولا يستطيع أي إنسان في الدنيا مهما بلغت قوته وسلطته أن يتحكم بالرزق، فالله سبحانه هو الذي قسم الأرزاق للناس جميعًا، وعليهم أن يتوكلوا على الله في طلب الرزق، ولا يجوز هنا أن يدخل إلى نفس الإنسان أي تصور يدعوه إلى الظن أن العمل أو الأشخاص هم سبب الرزق كما شرحنا في معنى السبب والأخذ بالأسباب، فكل ما تفعله في الحياة إنما هو حالات أو أحوال لطلب الرزق كما أمر الله سبحانه، والحالة تعني الظرف المحيط بنا، وليست تعني أنها سبب، فقد يتحقق بها الرزق، أو لا يتحقق، فسبب الرزق هو الله سبحانه.

كما أنه لا يصح في تصور أي إنسان أن يدعي أن مهارته وبراعته هما اللتان جلبتا الرزق؛ فهذا قارون قد أتاه الله كما وصف في كتابه الكنوز الضخمة التي عجز الرجال الأشداء الأقوياء عن حمل مفاتيح خزائنها، قال هذا الرجل الذي خسف الله به الأرض فهو يتخبط في باطنها إلى يوم القيامة:

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص: ٧٨]، أي أنه جاء بهذا الرزق بتدبيره هو لا بتدبير رب العالمين، وكانت هذه الكلمة سببًا في خسف الأرض به فكان من الهالكين. لقد نسب الرزق إلى نفسه ولم يظن أن الاعتماد في مسألة الرزق يكون على رب العالمين وحده لا شريك له.

٧- التوكل والتداوي:

أخي المسلم، كثيرًا ما يتخاطب الناس فيما بينهم بعبارات شائعة مثل: نفعني الدواء، ونفعني الطبيب، وأمثال هذه العبارات، فهذه العبارات خاطئة ليس لها وزن هنا؛ فإن الذي ينفع هو الله، فقد قال النبي ﷺ مخاطبًا الصحابي الجليل عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - : «... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء قد كتبه الله عليك...»، والصواب أن نقول: نفعني الله بهذا الدواء أو بهذا الطبيب، فهذه العبارات الأخيرة هي التي توافق معنى التوكل والاعتقاد الصحيح لدى المسلم.

وقد أوضح النبي ﷺ لنا أن الشخص الذي يعتمد على التداوي بالرقية وعلى الدواء وحده هو شخص أصابه خلل في تصوره فلم يعده النبي ﷺ في صفوف المسلمين، فقال ﷺ: «لم يتوكل من اكتوى واسترقى»[(١)]، ومعنى «استرقى»: أي طلب الرقية، أي أنه طلب من شخص آخر أن يقرأ له قرآنًا ليشفى (صاحب المرض)، والرقية لها نوعان: رقية ليست من الإسلام، وهي كتابات أو كلمات يقرأها الكهان في الجاهلية أو الدجالون الذين يخدعون

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث المغيرة بن شعبة، رقم (١٨٢٤٢). وحسنه الأرنؤوط في تعليقه علي المسند.

الألوكة
www.alukah.net

الناس ليأخذوا أموالهم، وهم في كل زمان ومكان، ورقية شرعية بينها لنا الرسول ﷺ بالأدعية الصحيحة التي نقلت عنه ﷺ.

واكتوى: أي استخدم كي النار لمداواة نفسه، فالذي يطلب الرقية بكل أحوالهما وهو يظن أنه يعتمد عليها أو على الدواء المادي كالكي بالنار مثلاً، هو شخص لم يتوكل على الله، وليس يعني هذا ترك التداوي، وإنما يعني أن يكون التوكل في نفوسنا قائمًا واضحًا ليست فيه شوائب ولا يختلط به أي شيء آخر إلا الاعتماد على الله وحده، فهو الشافي، وهذا معنى قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، فالشافي هو الله وحده، وإليه ينسب الشفاء لا إلى أحد ولا إلى شيء.

الوصية الثانية: في الابتعاد عن الغش

نص الوصية:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ مر على صبرة طعام، فأدخل أصابعه فيها، فإذا فيها بلل فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: «فهلاً جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس! من غشنا فليس منا»[(١)].

مفردات الوصية:

سماء: أي مطر.

صبرة: هي كومة من الطعام مجتمعة، وجمعها صبر.

فليس منا: يعني أن من فعل الغش فليس متبعًا لسنة النبي ﷺ، وأن هذا الفعل ليس على سنة النبي ﷺ، ولا من أخلاق المسلمين أو أفعالهم، وهذا كما يقول الرجل لصاحبه: أنا منك، أي أنني أوافقك وأتابعك.

الغش: هو عكس النصح.

ما يفهم من الوصية:

أخي المسلم، يظهر النبي ﷺ في هذه الوصية محاسبًا على الغش، وهذا نوع من قضاء القضاة يسمى «قضاء الحسبة»، والقاضي الذي يعمل فيه هو «المحتسب»، وبهذا الفعل الذي فعله النبي ﷺ شرع لنا قضاء الحسبة فأصبح لازمًا أن يكون هناك قاضٍ يحاسب الناس على الغش في الأسواق، وهو

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (٤٩٠٥) وهو صحيح السند.

يختلف عن بقية القضاة بأنه يحكم في القضية في السوق مباشرة دون الحاجة إلى مكان خاص يقعد فيه ليأتيه الناس بدعواهم وشكواهم، فهو يحاسب الناس من أصناف البائعين والتجار وأصحاب المحلات ليراقب عمليات البيع والشراء بكل ما فيها من معاملات وأدوات ووسائل، وهو ما فعله ﷺ في السوق مع الرجل صاحب الطعام.

والغش له وجوه مختلفة منها:

١- الغش في البضائع:

البضائع أو السلع منها ما هو ظاهر مكشوف نستطيع أن نتناول مادته أو نفحصها كلها، كالألبان والأجبان عمومًا، ومنها ما هو غير ظاهر ولا مكشوف مثل كثير من الآلات والمحركات والأدوات، فهذه لا نقدر على فحصها أو الكشف عن أجهزتها، وكذلك نحن نكتفي بأن نراها تعمل بأجهزتها كلها بأن نتأكد منها بالتشغيل والهيكل الظاهري المكشوف كجهاز التسجيل والكاميرا والهاتف والسيارة والأجهزة المنزلية كلها.

ويدخل الغش إلى المواد المكشوفة من السلع والبضائع عندما يحاول البائع مثلاً أن يظهرها لنا بأحسن صورة، ويصفها بأنها لا مثيل لها في السوق، وأنها لا يصنعها غيره، وأيضًا حين يخفي عنا مادة مغشوشة خلطها بالمادة التي يفترض أنها كما نريدها حين الشراء، فمثلاً حين يدعي البائع بأن اللبن الذي عنده ليس له مثيل في السوق وهو يعلم عيبًا فيه، فهذا غش، وعندما يخبرنا بأنه لبن غنم ثم نكشف بأنه خليط غنم وماعز أو بقر، فهذا أيضًا من الغش.

وأيضًا حين يخبرنا بائع الجهاز أن جهازه بضاعة يابانية، ثم نكشف أنها ليست يابانية، فهذا باب من أبواب الغش.

وحين يخبرنا البائع مثلاً بأن هذا الجهاز الذي يبيعه لنا غير مستعمل مثل الجهاز الخلوي (الهاتف المحمول)، ثم نكشف أنه مستعمل فهذا أيضًا غش، وأيضًا من الغش أن يلجأ البائع إلى تجميع قطع آلة ما من السوق الداخلية التي هي سوق بلده، ثم يدعي أن الآلة التي يبيعها إياها (كالغسالة الأوتوماتيكية) هي صناعة إيطالية.

وعلى كل حال، فالغش له أبواب كثيرة لابد أن يبتعد عنها البائع وإلا فإنه يكون قد فعل ما نهى عنه النبي ﷺ في هذه الوصية، وكان في أخلاقه على خلاف المسلمين الآخرين الذين يسيرون على هدي النبي ﷺ ويتبعون سنته.

٢- الغش في الامتحانات:

ومن أبواب الغش - أخي المسلم - أن ينظر الطالب في ورقة زميله في في أثناء الامتحان ليحصد ثمار جهد ذلك الزميل، فهو فعل محرم داخل في النهي المذكور في وصية النبي ﷺ، فلا يرضى أي إنسان أن يتعب ويكدح ويجتهد في عمله، ثم يأتي آخرون لم يعملوا مثل عمله ولم يتعبوا مثل تعبه فيلجأون إلى ادعاء هذا العمل لهم، وينسبوه إلى أنفسهم وهم كسالى يسرقون جهود غيرهم، إن هذا من أشد الأفعال سوءًا وأكثرها قسوةً وظلمًا.

تصور - أخي المسلم - أن ذلك الطالب الذي يدرس الهندسة، وغش في الامتحان بأن نقل عن الكتاب المقرر أو عن زملائه في مادة دقيقة وحساسة، وعندما تخرج الطالب من كلية الهندسة أصبح مهندسًا استلم مركزًا مهمًا يشرف من خلاله على تصميم بعض الأبنية ليسكنها الناس، وإذا به يصمم بناءً يرتفع ويسكنه الناس ثم لا يلبث أن يهبط ذلك البناء فوق رؤوسهم وتحصل كارثة كبرى، وعندما راجع المهندس نفسه وجد أنه أهمل دراسة

الألوكة
www.alukah.net

بعض الأمور التي اعتمد على النقل فيها في ذلك الامتحان الذي نجح فيه دون أن يجتهد لنفسه ولا أن يكدح لفهم المادة، وهكذا كانت العاقبة وخيمة بالضرر الشديد للآخرين المساكين الذين هبط عليهم ذلك البناء، وأصبح المهندس يبيت في غضب الله.

إن هذا المثال ليس من الخيال وإنما هو حقيقة واقعة لمسناها عند أمثال هؤلاء الغشاشين، كما أننا لمسناها واختبرناها جيدًا عند كثيرين من أصحاب الاختصاصات الأخرى كالمعلمين أو الأساتذة اللذين قدموا لطلابهم معلومات كثيرة خاطئة، وليس ذلك إلا لأنهم كانوا يعتمدون على الغش في في أثناء دراستهم.

٣- أنواع أخرى من الغش:

وثمة أنواع من الغش نفسية، وهي خطيرة وشائعة في المجتمع، فعلى سبيل المثال نرى بعض الناس يظهر نفسه أمام الآخرين كأنه عالم قرأ وفهم كثيرًا من أبواب العلم، فيمدح نفسه كثيرًا، ويتكلم كثيرًا بما لم يعلم.

وأسوأ من هذا كله، أن يدعي أنه يفهم في أمور الشرع ويتهجم على إعطاء الناس الفتوى دون علم، وهو بهذا يلقي بنفسه في نار جهنم يوم القيامة.

وبعض الناس يظهر أنه غني وهو فقير، وبعضهم يدعي أنه زاهد متعبد، فيظهر للناس أنه يكثر الصلاة والعبادة، ويكون هذا الشخص مخادعًا للناس ليكون محبوبًا عندهم، وكل هذا من أبواب الغش التي تشملها الوصية المذكورة.

وقد قال النبي ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زُور» أي: أن الذي يظهر للناس ما ليس فيه هو كأنه قد لبس قميصًا يصل بكمي ذلك القميص

كمين آخرين ليراه الناس وكأنه لابس لقميصين، وهذا يعني أنه بمنزلة الكاذب القائل لما لم يكن حقًا، فهو يظهر ما ليس حقًا.

ومن معاني هذا الحديث كما فسره العلماء، أن الرجل قد يكون في الحي يلبس القمصان الجديدة وتظهر عليه هيئة الوقار والنعمة علمًا بأنه لو طلب إليه بعضهم أن يشهد شهادة غير صحيحة لم ير بأسًا في أن يشهد كاذبًا أمام القاضي الذي يراه من أهل النعمة، فلا يرد القاضي شهادته لأجل ثيابه، فهذا مظهر من مظاهر الغش الفاضح.

والمهم هنا، أن المقصود بثوبي الزور أن الشخص الذي يفعل هذا يظهر نفسه بمظهر حسن، وباطنه أو ما في نفسه ليس حسنًا فالداخل غير الخارج.

الوصية الثالثة: وصية عامة باتقاء المحارم

نص الوصية:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن؟» فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعد خمسًا وقال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»(١).

مفردات الوصية:

المحارم: هي حدود الله التي منع الله ورسوله ﷺ أن يتجاوزها أحد، ومفردها محرم.

فعد خمسًا: ذكر خمسة أمور.

ما يفهم من الوصية:

أخي المسلم، هذه وصية فخمة وعظيمة، تشتمل على معان مهمة عامة تؤثر في سلوك الإنسان الظاهر والباطن، وسنقف على ما فيها كما يلي:

١ - اتقاء المحارم:

أخي المسلم، إن المحارم التي حرمها الله معلوم أكثرها لدى الناس، فهناك السرقة، وشرب الخمر، والزنى، والربا، والقمار، والميتة، والكلب

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٣٠٥) في سننه، وهو حسن.

والخنزير (عدم الشرب من إنائهما الذي شربا فيه، وعدم طهارة جسمهما ولا جلدهما)، والنجاسات الخارجة من الإنسان والحيوان، وعدم مس القرآن إلا على طهارة كبرى وصغرى، وأمور كثيرة تفصيلية غيرها في الأفعال والأشياء.

وعلى الإنسان أن يبتعد من هذه المحارم ابتعادًا تامًا، وثمة قاعدة عامة أساسية لابد من أن نشرحها هنا للالتزام بالشرع، فالشرع الحنيف أوضح لنا أن ثمة أفعالاً تختلف عن الأشياء في أحكامها، فالأفعال غير الأشياء إذ لابد للإنسان المسلم أن يسأل دائمًا عن الحكم الشرعي في هذا الفعل أو ذاك قبل أن يقوم به، وإذا لم يسأل عن حكمه قبل أن يفعل ذلك الفعل فهو آثم شرعًا، وقد ارتكب المعصية المنهي عنها.

وأما الأشياء فإن هذا لا ينطبق عليها، فالله سبحانه وتعالى قد أوضح لنا في كتابه أن الأشياء كلها مسخرة للإنسان ومهيأة له، أي أنها مباحة في الأصل، ولكن ثمة مستثنيات استثناها الله سبحانه وتعالى في كتابه، كالميتة والدم ولحم الخنزير وذبيحة الأصنام؛ ولذلك لا يسأل الإنسان المسلم عن الدليل الشرعي في سبب كون هذا الشيء أو ذاك حرامًا، وإنما الدليل يطلبه المسلم على أن هذا الشيء أو ذاك حرام؛ يعني أن الدليل في الأشياء يكون على الحرام منها لا على الحلال لأن الأشياء محللة أصلاً، فالحلال ليس عليه دليل، فلا نقول مثلاً: ما الدليل على أن تناول الجبن حلال أو اللبن أو الطعام أو ما شاكل ذلك؟ وإنما نقول: ما الدليل على أن لحم الخنزير حرام؟ وأما الأفعال فتقول دومًا: ما الدليل على هذا الفعل الفلاني؟ ونبحث عن الدليل سواءً أكان الفعل حلالاً أم حرامًا.

٢- نص في التحذير من ارتكاب المحرمات:

وقد ورد نص عن النبي ﷺ رواه عنه ثوبان - رضي الله عنه -، قال

ﷺ: «لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا، فيجعلها الله عز وجل هباءً منثورًا». قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم لنا، جلهم لنا ألا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال: «أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»[١].

وفي هذا الحديث تعليم لنا أن يكون باطننا مثل ظاهرنا، فإذا عرف الناس عن إنسان أنه ذو أدب جميل وخلق حسن وهيئة حسنة وأنه يجلس في أحسن المجالس كما كان النبي ﷺ يفعل؛ إذ كان ﷺ لا يجالس أهل السوء والشر، فهذا كله أمر حسن وجميل، ولكن من الأحسن أن يكون هذا الإنسان في مجالسه التي لا يراه فيها إلا الله - عز وجل - على مثل هذا الخلق الحسن والأدب الجميل والآداب العالية، وإذا زاد هذا الأدب الرفيع والخلق الجميل لديه في في أثناء خلواته فهو أمر أحسن وأجمل، فزيادة باطنه في الأدب والالتزام الشرعيين على ظاهره فيهما هو أحسن عند الله وأجمل، وأما أن يكون الإنسان ظاهره حسن وباطنه لئيم خبيث يفعل المنكرات ويرتكب المحارم التي نهى الله عنها في السر لا في العلانية فهذا هو الذي يدخل في التهديد المذكور في الحديث، فهذا الإنسان يخشى الناس ويخاف أن يعيبوا عليه أفعاله وينتقدوه ولا يخاف الله رب العالمين الذي يراقبه في السر والعلن.

- قصة عن بعض الأولاد الصالحين:

كنت مرة مع والدي قبل أن أبلغ سن الدخول إلى المدرسة، فسمعت

---

(١) وهو صحيح. جلهم لنا: أي أوضحهم وبينهم لنا. ألا نكون منهم: أي خشية أن نكون منهم أو لئلا نكون منهم. وتهامة: مكان واسع في بلاد الجزيرة العربية (السعودية اليوم). هباء: هو ذرات الغبار الصغار التي نراها تتقلب في الهواء على ضوء الشمس.

قصة من المدير الذي دخلنا عليه ما زالت إلى اليوم حاضرة في ذهني لا أنساها، وباتت هذه القصة مؤثرة في حياتي كلها إلى اليوم، وتتحدث القصة عن أحد الأساتذة في بعض المدارس أراد اختبار تلاميذه فأعطى كل تلميذ شيئًا طلب منه أن يفعله في مكان لا يراه فيه أحد، وبعد فترة قصيرة رجع الطلاب وقد فعلوا ما طلب منهم إلا طالبًا واحدًا لم يفعل ذلك، فسأله الأستاذ: لِمَ لَم تفعل ما طلبت منك؟ ألم تجد مكانًا تفعل فيه ما طلبته منك بحيث لا يراك أحد؟ فقال له التلميذ الصالح: لا يا سيدي، فإن الله سبحانه يرانا في كل مكان، فكيف أفعل شيئًا دون أن يراني فيه الله؟

أخي الشاب المسلم أينما كنت، تستطيع أن تكون كهذا التلميذ البريء الصالح تشعر دومًا بمراقبة الله لك في سلوكك وأعمالك، إن الله بلا شك هو شاهدك على كل أفعالك، وهو الذي ستقف أمامه يوم الحساب وسيسألك عن أفعالك التي قمت بها في الدنيا، وستستلم كتابك، فاحرص على أن تكون من الذين يتسلمون كتابهم بأيمانهم لا بشمائلهم، ولهذا فاعمل العمل الصالح الذي يرضي ربك. هل تخاف من أبيك وأمك أكثر مما تخاف ربك؟ وهل تخاف الناس أكثر من الله؟ أتخاف أستاذك أكثر مما تخاف الله؟ انظر حولك على نعم الله التي أنعم بها عليك، إنه هو من يحفظك، وهو من يهيئ لك سهولة أعمالك، وهو من يطعمك ويسقيك ويجعلك تتحرك وتتنفس، وقد وهبك الحياة والأعضاء التي تقوم بأعمالك بها، فهل تفعل بها ما يغضب الله؟ إن نعم الله عليك وعلى الناس أجمعين لا تحصى ولا تعد.

٣- الذنوب كلها كبائر:

نحن نعلم أن الذنوب منها ما هو كبائر ومنها ما هو صغائر، فالكبائر:

جمع كبيرة، والصغائر: جمع صغيرة، ولكن الحقيقة أن الذنوب عند الله كلها كبائر، وليس ثمة ذنب صغير، فالنبي ﷺ إنما سمى بعض الذنوب كبائر كما سماها الله سبحانه وتعالى لأن هذه الذنوب يريد منا الله ورسوله أن نراها شديدة وعظيمة، وليس هناك ذنوبًا كبائر وأخرى صغائر، وإنما نحن الذين نرى هذا الذنب صغيرًا وذاك كبيرًا، فهذه رؤيتنا نحن البشر بما نرى بعقولنا الضعيفة، فالنار جُعلت للذنوب كلها، صغيرةً كانت تلك الذنوب أم كبيرة.

فالكذب مثلاً، ذنب عظيم سواءً أكان الكذب مزاحًا أم كان لغير المزاح، فالذي يكذب ليمزح أو ليمازح رفيقه أو الآخرين فهو كاذب ارتكب معصية، فالله سبحانه قال: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

فالتسجيل لكل شيء من الأقوال مزاحًا كانت أو غير مزاحٍ، فهي تسجيل في حالة الجد كما في حالة الهزل، ولم يأمر الله سبحانه وتعالى الملكين الموكلين أن تكون الأقوال المسجلة جدية فقط، فالرقيب العتيد - أي الحاضر الذي يسجل علينا أقوالنا - يسجل كل ما تنطق به ألسنتنا، وكذلك هي كل أفعالنا تسجل علينا سواءً أكانت لهوًا أم جدًا.

ما دمنا نرى بعض الذنوب صغيرةً لا قيمة لها في أعيننا، فإن النبي ﷺ يبين لنا أن هذه الذنوب التي نحتقرها - نراها صغارًا في أعيننا - تجتمع حتى يهلك الإنسان بعذاب الله في الآخرة، فقال ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعودٍ وجاء ذا بعود، ثم حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها

صاحبها تهلكه»[١].

إننا نرى بعض الذنوب صغارًا، ولكن النبي ﷺ أوضح لنا بهذا المثل أن ما نظنه كذلك هو يشبه العيدان الصغار التي يجمعها الناس لتكون كومة حطب يشعلون بها النار تحت قدر طعام، ومهما تكن تلك العيدان صغارًا فإنها سرعان ما تشتعل نارًا عظيمة باجتماع بعضها فوق بعض، وهكذا هي حال الذنوب التي نظنها صغارًا، سرعان ما تحرق صاحبها وتهلكه باجتماعها، فعلينا ألا نهمل ذنبًا فعلناه مهما رأيناه بأعيننا صغيرًا، فالنار العظيمة ناتجة عن شرارة صغيرة.

أخي المسلم، قد تستهين بكلمة سيئة تخرج منك في حق أخيك المسلم، وقد تتهاون في رد كتاب استعرته إلى صاحبه، وربما تستصغر لقمة حرام تأكلها مرة، أو تعذيبك لهرة وضربها، أو إساءتك بيدك إلى من هو أقل منك قوة، ولكن الذنوب تتجمع، والله سبحانه وتعالى بالمرصاد، ولن يدع كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها عليك يوم القيامة، فإذا ما ناقشك في الحساب فهنا يأتي عذاب الله، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونستغفر الله.

- الاستغفار من الذنوب والتخلص منها:

إن الله سبحانه رحيم بعباده، وقد أكرمنا بإرشادنا إلى الطريق القويم كي نتخلص من المحاسبة على الذنوب يوم القيامة، فالذنوب نوعان: نوع منها متعلق بحقوق العباد، ونوع منها متعلق بحق الله، فأما النوع الأول فهو لا يتخلص منه الإنسان إلا بأن يسامحه الذي أساء في حقه، فإذا لم يسامحه

---

(١) وهو صحيح.

الألوكة
www.alukah.net

الشخص فإن المصيبة كبيرة، وربما يقتص منه يوم القيامة فيأخذ حقه يوم لا ينفع مال ولا جاه ولا منصب ولا مرتبة دنيوية ولا شهادات.

فإذا أسأت إلى شخص بكلمة جارحة فعليك أن تطلب مسامحته بأي شكل، وكذلك لو آذيته بأي شكل من أشكال الأذى المادي والمعنوي فعليك أن تطلب مسامحته لكي يغفر الله لك ذنبك ولا يعاقبك يوم القيامة.

وبعض الذنوب لها كفارات شرعية جعلها الله لنا مع الإساءة الكبيرة، وهذه لابد أن يقوم بها الإنسان أيضًا، وأيضًا إذا حصل أذى بدني مؤثر مثل كسر الأنف وتعطيله عن الشم، وتعطيل الأذن أو إيذائها أو سائر الأعضاء الأخرى، فهذه لها كفارة مالية لابد من أدائها إلى الشخص الذي أوذي ذلك العضو منه، ولابد من رد المال المأخوذ من صاحبه بغير رضاه.

وأما النوع الثاني من الحقوق فهو حق الله، وهو حق يغفره الله سبحانه بالاستغفار المتكرر، وقد علمنا النبي ﷺ أدعية كثيرة ندعو بها في الليل والنهار لتكفير الذنوب، فالأذكار مثل التسبيح والتحميد وذكر الله في قولنا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحي ويميت وهو على كل شيء قدير، ومثل قولنا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أو قولنا: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، أو قولنا: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضاء نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته، ومثلها في قولنا: الحمد لله عدد خلقه، أو قولنا: الله أكبر عدد خلقه... إلخ. فهذه كلها عندما نقولها فلكل واحدة منها حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها؛ أي: كل واحدة فيها عشر حسنات تمحو عشر سيئات.

وهناك حديث فيه دعاء ينبغي أن نتعلمه لأنه سيد الاستغفار كما

سماه النبي ﷺ حين قال: «سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوءُ لك بنعمتك علي، وأبوءُ بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(١).

والصلوات أيضًا يمحو الله بهن الذنوب والخطايا، والصوم سواءً أكان فرضًا أم نافلة، وكذلك الزكاة التي منها صدقة غير واجبة يضعها الإنسان المسلم في موضعها الصحيح، فهي أيضًا كفارة للذنوب والخطايا، وكل معروفٍ يفعله المسلم مع أخيه فهو صدقة، وحتى التبسم في وجه أخيه المسلم جعله النبي ﷺ من الصدقة.

٤- الرضا بما قسم الله - تعالى - :

والرضا بما قسم الله للعبد يجعل العبد الصالح أغنى الناس كما قال النبي ﷺ؛ فإن هذا يعني أن شعور المسلم الصحيح يرتفع رويدًا رويدًا حتى يحصل لديه الاطمئنان الخالص إلى أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الخلق، وبيده الرزق وليس يستطيع أحد أن يتحكم بالرزق، فالمال مال الله ونحن ننفقه بما أمرنا به الله، كما أن الله سبحانه وتعالى قد جعل لنا نصيبًا معلومًا عنده من أرزاقنا في هذه الحياة الدنيا، وسنأخذ هذا النصيب المعلوم من الرزق مهما حاول بعض الناس أن يمنعونا منه.

قال الله تعالى: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨ ﴾ [الذاريات]، فهذا يعني أنه هو الرزاق سبحانه، والرزق يطلق على كل ما يأتي إلى الإنسان بأي وجه وبأية وسيلة.

---

(١) وهو صحيح . وأبوء: أعترف وأقر.

وأخبرنا الله سبحانه بأن الرزق يكون بحسب الطاعة أيضًا فقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح]، ففي هذه الآية يخاطب نوح -عليه السلام- قومه فيربط الرزق بطاعة الله سبحانه[1]. وقد قال النبي ﷺ: «من سره أن ينسأ في أجله ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه»[2]، فربط الرزق أيضًا بطاعة الله في صلة الأرحام أيضًا.

وروى حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - فقال: قام النبي ﷺ فدعا الناس فقال: «هلموا إليَّ»، فأقبلوا إليه فجلسوا فقال: «هذا رسول رب العالمين جبريل نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته»[3]، فهذا دال على أن الرزق مقسوم للعبد. ولكن كيف يكون الرزق مقسومًا ثم يضيق الله على العاصي؟ ولماذا يعطي الكافر؟.

- أحوال تقسيم الأرزاق:

الحقيقة أن الله سبحانه يعطي الكافر في الدنيا بحسب عمله الجيد، على أن الدنيا لا تساوي عند الله شيئًا، ولذلك قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ

---

(١) يعني: إن استغفرتم ربكم يرسل السماء عليكم مدرارًا ويمددكم.. إلخ.

(٢) وهو صحيح. وينسأ: يؤخر، أي يطيل الله عمره.

(٣) وهو حسن. روعي: نفسي وخلدي. أجملوا: أحسنوا. الطلب: طلب الرزق. استبطاء الرزق: حصوله. لا ينال ما عنده: لا يدرك ولا يوصل إلى ما عنده.

﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف].

فالآية تتحدث عن أنه لولا أن يكون الناس جماعة واحدة في الكفر بالله، لجعل الله سبحانه الكفار أصحاب بيوت لها سقوف من الفضة وأدراج يصعدون عليها، ولجعل لبيوتهم أبوابًا فخمة محكمة الإغلاق، ولجعلهم يتكئون في الأسرة (جمع سرير)، ولجعل لهم فوق ذلك الذهب الخالص بين أيديهم، إلا أن ذلك كله هو متاع الحياة الدنيا الزائل غير الباقي، وإنما ادخر الله الآخرة للمؤمنين بحيث يجازيهم ويكافئهم بالجنة التي أعدها لهم بما فيها من خيرات وثمار وأشجار وجنان وما لا خطر على عقل بشر ولا دار في خاطرهم أبدًا.

وقد قال النبي ﷺ أيضًا: «لو كانت الدنيا تعدل[1] عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[2]؛ فالدنيا زائلة ولا تفيد في الآخرة إلا عمل الإنسان الذي أطاع فيه ربه سبحانه، والله يعطي الكافر الذي لا يظلم الناس والذي يحسن إلى أهله وينفق عليهم، أو يخدم الناس بتواضع، ويمنع الدنيا عن الكافر اللئيم الذي لا يفعل الأمور المستحبة عند الناس؛ ولذلك نرى الفقراء كما نرى الأغنياء من الكفار، فهذه حالة من أحوال الرزق الشائعة في الكفار.

وعن قسمة الرزق يمكن أن نتصور المال الذي قسمه الله لعباده في الدنيا كأنه كومة يعطيهم الله منها طوال حياتهم حتى تنفذ بانتهاء آجالهم،

---

(١) تزن: تساوي أو تعدل.

(٢) رواه الترمذي.

الألوكة
www.alukah.net

فالعبد الذي يطيع ربه يفتح الله عليه أبوابًا من الرزق الذي يناله من هذه الكومة التي افترضناها لتسهيل الموضوع؛ فإذا ما عصى العبد ربه فقد يعطيه الله الرزق رويدًا رويدًا، فتصبح حالة العبد سيئة لا يكاد يقدر على نفقة عياله، وكأنما الرزق يأتيه بالقطارة، وبعض الناس يأخذون القليل في سنوات كثيرة من حياتهم، ثم عندما يقترب أجلهم يبسط الله لهم في الرزق الكثير الوفير، ولكنهم لا يتمتعون بكل الرزق الذي يتقاسمه الوارثون، وبعض الناس يأخذون معظم رزقهم في مطالع حياتهم، ثم ما يلبث الرزق أن يصبح قليلاً، فينالون منه اليسير جدًا حتى يقترب أجلهم.

٥- الإحسان إلى الجار:

أخي المسلم، إن الإحسان إلى الجيران مما أوصى به النبي ﷺ مرارًا في الروايات المنقولة عنه، وهنا جعل النبي ﷺ الإحسان على الجار من كمال الإيمان؛ إذ معنى قوله: «تكن مؤمنًا» أي يكن عندك الإيمان بتمامه وكماله، أو يكتمل لديك الإيمان، وهذا مثل قوله ﷺ في الحديث الآخر: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

وقد قال النبي ﷺ أيضًا: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»، أي أن النبي ﷺ ظن أنه سينزل تشريع يجعل للجار الحق في أن يرث مال جاره لكثرة ما كرر جبريل على النبي ﷺ طلب رعاية حق الجار؛ فحق الجار من الحقوق التي لا يصح أن نتهاون فيها كبقية حقوق العباد أيضًا. وقال النبي ﷺ أيضًا: «لا ضرر ولا ضرار، وللجار أن يجعل خشبه في حائط جاره...» فهذا معناه النهي عن إحداث الضرر بين الجيران، فلا يضر بعضهم بعضًا بأي شكل من أشكال الضرر التي تحدث بغير حق شرعي، فالضرر

معناه أن يوقع الجار بجاره ضررًا بما ينتفع هو به، وأما الضرار فهو يعني أن يوقع الجار بجاره ضررًا بما لا منفعة له به. فعليك - أخي المسلم- أن تكون حريصًا على عدم إيذاء الجيران، وأن تحسن إليهم بما أمر الله سبحانه وتعالى.

- بعض الأحاديث في حق الجوار:

ومن الأحاديث في حقوق الجيران قول النبي ﷺ: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع»(١)، وأيضًا قال النبي ﷺ: «أول خصمين يوم القيامة جاران»(٢)، أي أن أول من يقضي الله بينهما: الجاران يكون أحدهما آذى صاحبه.

وأيضًا روى أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه - فقال: أوصاني خليلي ﷺ: «إذا طبخت مرقًا فأكثر ماءه، ثم انظر إلى أهل بيت جيرانك فأصبهم منها بمعروف»، وفي رواية: «يا أبا ذر، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك»، فهذا يعني أن يطعم الرجل جاره من طبيخه ما استطاع أن يطعمه، فهذا خير، وطلب إطعام الطعام عام لكل الناس الجائعين أيضًا كما جاء في حديث النبي ﷺ: «أطعموا الجائع...».

وأيضًا قال النبي ﷺ: «إن الله يحب الرجل يكون له الجار يؤذيه جواره، فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن(٣)»(٤)؛ وهذا أعلى الدرجات إذ يصبر الرجل على أذى جاره ولا يقابله بالأذى؛ ولذلك قال الحسن البصري

---

(١) رواه الطبراني، وأبو يعلى، ورجاله ثقات.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) الطعن: الرحيل والفراق.

(٤) أخرجه الإمام أحمد

- رحمه الله - : ليس حسن الجوار كف الأذى، ولكن حسن الجوار احتمال الأذى.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة تكثر من صلاتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها؟ قال: «هي في النار».

وقال النبي ﷺ: «يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة[١]»[٢].

٦- محبة الخير للناس:

وأما قوله ﷺ: «وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا» فهو يعني كما قال ﷺ في الحديث الآخر: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه - أو لجاره - ما يحب لنفسه».

ومعنى قوله: «لا يؤمن أحدكم» أن ثمة فرقًا بين الإسلام والإيمان، فقد قال النبي ﷺ في حق عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: «أسلم الناس وآمن عمرو»، فالنبي ﷺ هنا فرق بين الإسلام والإيمان كما فرق القرآن الكريم بينهما في قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤].

فكل من شهد أن لا إله إلا الله فهو مؤمن ومسلم، مسلم في الظاهر لأنه

---

(١) الفرسن: عظم قليل اللحم، وهو خف البعير واستعاره هنا للشاة؛ إذ إن اسمه في الشاة: الظلف.

(٢) رواه البخاري.

شهد أن لا إله إلا الله، وهو مؤمن في الظاهر أيضًا لأنه لم يظهر عليه ما يخالف قواعد الإيمان الصحيحة.

وفي نص الوصية يوضح لنا النبي ﷺ أن ثمة أعمالاً قلبية تدل على أن الرجل يعرف من نفسه أنه مؤمن لو شعر بها، ومن هذه الأعمال القلبية أن يحب المرء للآخرين كما يحب لنفسه، وهذا يعني أنه كامل الإيمان أيضًا، فإذا لم يشعر الإنسان المسلم بهذا الشعور فهو ناقص الإيمان؛ وذلك لأن الإيمان يكتمل بالعمل، وليس هذا يعني أنه غير مسلم، فنقصان الإيمان هو نقصان العمل؛ إذ إن الإيمان نفسه محله القلب، فلو أنه نقص هو نفسه لكان الإنسان كافرًا والعياذ بالله، ولكن هذا ليس هو المراد من حديث النبي ﷺ، وإنما المراد أن الإنسان تكتمل أعماله فيكتمل إيمانه، وذلك إنما يكون بزيادة هذه الأعمال.

وها نحن أولاً نذكر لك بعض الأعمال التي تشرح كيف يحب الإنسان المسلم لأخيه ما يحب لنفسه:

أ- في الدعاء:

أخي المسلم، لا تنس حين تدعو لنفسك أن تدعو بالخير و لعامة المسلمين معك، فمثلاً يمكن الدعاء بهذا اللفظ: اللهم ارحمني وارحم أمة محمد رحمة عامة، أو بلفظ: اللهم ارحم المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، أو بلفظ: اللهم وفق أمة محمد إلى كل ما فيه خير أو إلى الخير، وحين ينزل البلاء في المسلمين وتشتد عليهم أحوال المعيشة نقول: اللهم فرج عن المسلمين ما هم فيه من البلاء، مثلاً أو مثل هذه الألفاظ.

وهذا يعني أننا لم ننس المسلمين الآخرين حين دعونا بدعاء لأنفسنا، بل ذكرناهم في دعائنا وأردنا لهم كل الخير كما أردنا الخير لأنفسنا.

وليس هناك فارق بين أن نبدأ بأن ندعو لأنفسنا أو بأن نبدأ بالدعاء

للمسلمين، فالمهم ألا ننسى الآخرين من دعائنا.

ب- في الأعمال المالية:

حين نريد فعل الخيرات فإننا نلجأ إلى فعل الخيرات للمسلمين، فبعض الناس المخلصين يفكرون في إنشاء المساجد للمسلمين، وبعضهم يفكر في مد أنابيب المياه ليشرب العطاش في الطريق، وبعضهم يبحث عن الفقراء وأصحاب الحاجة والمساكين الذين لا يجدون ما يأكلون في بيوتهم، فيقدم إليهم ما يحتاجون من مال أو طعام أو لباس، وهكذا لا تنتهي أفعال الخير بين المسلمين، فهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا كما قال النبي ﷺ: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»، وشبك النبي ﷺ أصابعه (حين قال هذا القول).

فلا تستهن - أخي المسلم - بأي عمل من أعمال الخير للمسلمين حتى لو كان إعطاء تمرة.

جـ - في الأعمال البدنية:

أخي المسلم، إن الله سبحانه وتعالى خلق لك هذا الجسم على أحسن صورة، وجعل فيه هذه القدرة العجيبة على تناول الأشياء ومعالجتها والتعامل بها ومع الآخرين.

هذه الأعضاء والجوارح هي التي نسأل عنها وعن أعمالها يوم القيامة، كما أنها تشهد علينا بما كنا نعمل في الحياة الدنيا من مساوئ أو من أمور الخير،فقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[يس: ٦٥]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ

أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فصلت]، ومعنى ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ أي: تجمعهم الزبانية وهم ملائكة النار فتجعل أولهم على آخرهم جميعًا في النار، والعياذ بالله، ففي هاتين الآيتين دلالة ليس فيها أدنى شك على أن أعضاءنا سوف تشهد علينا إذا ما عملنا عملاً سيئًا، نعوذ بالله من سيئات أعمالنا.

ولهذا فإن علينا أن نستخدم أبداننا، ومن أعمال الخير الصالحة والجيدة التي تتفوق على كثير من أعمال الخير الأخرى، مساعدة المسلمين العاجزين مثل: الرجال الكبار في السن على قضاء حاجاتهم من السوق، أو على عبور الشارع، أو بأية وسيلة خير نستطيعها بالبدن إن لم نكن نستطيع أن نقدم المال إليهم. وأقل شيء في هذا الجانب أن نحترم الكبار الذين يجب علينا أمام الله أن نحترمهم، فقد قال النبي ﷺ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم...»، فعبارة «إجلال الله» تفيد أن الإنسان الذي يفعل هذا الفعل فهو مؤمن؛ لأن إجلال الله هو القيام بما أمر الله إرضاءً له وإسراعًا إلى طاعته، وهذا من كمال الإيمان.

ومن حقوق العباد أيضًا أن يصلي المسلم على جنائز المسلمين، كما أنه يتبع الجنازة حتى يدفن ذلك الميت، فهو عمل بدني مما طلب الله منا أن نقوم به عبادةً وطاعةً له سبحانه.

ومن الحقوق التي تتعلق بالأبدان أيضًا أن يسرع المسلم إلى تلبية دعوة أخيه المسلم إرضاءً له وتكرمةً له، والاعتذارات والابتعاد من الاجتماع بالمسلمين هو نوع من الكبر (الكبرياء) الذي يدخل الإنسان المسلم في غضب الله والعياذ بالله، وليست الدعوة منحصرة في الطعام والشراب، وإنما تشمل

دعوة المسلم أخاه إلى منزله ليجلس إليه ويتحادث معه.

وكل معروف تفعله لأخيك المسلم فهو صدقة، حتى الصلاة معه إذا صليت جماعة ولو كنت قد صليت، فالصلاة هنا هي صدقة على المسلم كما أن الصلاة لا مانع شرعًا من إعادتها مع الآخرين، فإن الله سبحانه وتعالى يجعل إحدى صلاتي الفرض نافلة لنا، أي كأننا صلينا صلاة نافلة كما دلت الأحاديث على ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «إفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن طريق الناس صدقة، وهدايُتكَ الرجل في أرض الضالة صدقة»[(١)].

وعن بسر بن محجن عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ فأقيمت الصلاة فجلست، فلما صلى قال لي: «ألست بمسلم؟» قلت: بلى، قال: «فما منعك أن تصلي مع الناس؟» قال: قلت: صليت في أهلي، قال: «فصل مع الناس»[(٢)].

وكذلك فقد قال النبي ﷺ لرجلين آخرين فعلا مثل ما فعل محجن – رضي الله عنه – إذا لم يصليا مع النبي ﷺ لأنهما صليا في منزليهما: «فلا تفعلا،

---

(١) وهو صحيح السند. وإماطة الأذى ونحوه عن الطريق وغيره: يعني إبعاده من الطريق. وأرض الضالة: يعني الفلاة أو الصحراء. وفي رواية «أرض الضلال» يعني أرض الكفر التي ليس بها مسلمون.

(٢) رواه أحمد ومالك وابن حِبَّان والحاكم والنَّسائي.

إذا صليتما في رحالكما ثم أتيتما مسجد جماعة فصليا معهم فإنها لكما نافلة»[١].

د- في التصرفات القولية:

التصرفات القولية كأعمال الأبدان نسأل عنها، ومن حسن الخلق وكمال الإيمان أن يتكلم المسلم مع أخيه المسلم بالكلمة الطيبة، وعليه نصحه، وعدم غشه، فالرجل الذي يسب ويشتم هو رجل مخطئ وحسابه عسير عند الله، فالشتم ينزه الإنسان المسلم لسانه عنه، فقد قال النبي ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذيء»، فالطعان: هو من يذم أعراض الناس ويوقع بينهم النميمة، وأما الفاحش فهو الذي يتكلم بالكلام القبيح، والبذيء: هو الذي يتكلم بكلام فاحش.

والنصيحة للمسلمين واجبة، فقد قال النبي ﷺ: «الدين النصيحة»، ولما سأله الصحابة: لمن؟ أجابهم «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم»، ومعنى عبارة «الدين النصيحة» أي عماد الدين وما يعتمد عليه الدين ويقوم به هو النصيحة، وعبارة «عامتهم» تعني عامة المسلمين، وتكون النصيحة لهم، بألا تغشهم وألا تكذب عليهم في الحياة لتخدعهم، وألا تسكت عن الباطل الذي تراه فيهم، فهذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو باب يحتاج منك إلى أن تكون حسن اللسان وألا تكون قاسيًا تصدر منك عبارات تشعر أخاك المسلم بأنك تهينه، فالأسلوب الحسن الجميل هو المطلوب مع الفكرة الصحيحة المؤيدة بالدليل الصحيح والحجة الشرعية المقنعة.

---

(١) الصلاة في الرحال: تعني الصلاة في المنزل.

الألوكة
www.alukah.net

٧- النهى عن كثرة الضحك:

ثمة فرق بين الضحك والتبسم أصلاً؛ فالضحك يكون عادة في عرف أهل اللغة دالاً على المعنى الذي نعرفه، ولكن مع قهقهة أو إخراج الصوت وعدم امتلاك الإنسان لزمام نفسه، وأما التبسم فهو ليس كذلك، بل هو ما يظهر من علامات على الفم مع انطلاق الوجه بالسرور؛ فالضحك المنهي عنه هو ليس تبسمًا، وهو مخالف لهيئة الوقار والاتزان والاحترام، ويكره هذا النوع أن يكون لدى الإنسان كثيرًا جدًا، فهو كما قال النبي ﷺ في هذه الوصية: «يميت القلب» إذا أكثرنا منه طبعًا.

وكلمة «القلب» في هذه الوصية لا تعني القلب المعروف الذي يضخ الحياة في أنحاء الجسم، بل تدل على معنى «العقل» هنا؛ فما دام للإنسان غرائز تدفع بالمشاعر إلى التصرفات القولية أو الفعلية، فكذلك له عقل أيضًا يوجه هذه الغرائز ومشاعرها المتولدة عنها، فإذا لم يتدخل العقل في قيادة الغرائز فإن الإنسان يتصرف عند ذلك تصرفًا غريزيًا غير صحيح، وهو بهذا التصرف لا يختلف عن الحيوانات التي خلقها الله، فالله طلب منا أن نتقيد بالأفكار الصحيحة التي شرعها لنا فبعثها إلينا لنلتزم بها ونتقيد بمضمونها، والأفكار لا تكون إلا في العقل، وهي التي توجه الغرائز التي لدى الإنسان، فإذا انصرف الإنسان عن هذه الأفكار إلى غرائزه هلك في الآخرة والعياذ بالله.

ومن هنا كان الضحك هو من نواحي السرور الغريزي الذي يبحث عنه بعض الناس، ولا يلاحظون من أنفسهم أنهم يبحثون عن المتعة والنشوة الغريزية المتحققة بالضحك فقط، ومن أجل ذلك نجدهم قد غفلوا عن التفكير واستسلموا لغرائزهم؛ ولذلك كانت هذه التصرفات تميت القلب

لأنها تطمس القدرة على التفكير وتجعل الإنسان ينقاد إلى غرائزه التي تتطلب الفرح والسرور ولا يهتم بأن يفكر فيما حوله.

والتفكير واجب على الإنسان المسلم وغير المسلم في الحياة الدنيا، وبالتفكير وحده تقوم الحياة، وبالتفكير السليم تصبح الحياة صحيحة وصحية، ولذلك فإن المطلوب منا دائمًا أن نفكر ونوجه غرائزنا بالأفكار.

نعم، إن كثيرًا من الناس يضحكون من بعض الأحداث العفوية أو المفاجئة أو التي لا نتوقعها عادة، غير أن هذا لا ينبغي أن يكون مستمرًا دائمًا لدى الإنسان، وعليه دائمًا أن يبحث عن الاعتدال أو القصد في كل شيء، فالاعتدال يكون في الضحك، ولا حاجة لنا إلى الضحك الكثير الذي يخرج عن حد العادة إلى أن يسيطر على الحياة، فهذا يجعل العقل مستقيلاً عن العمل.

أخي المسلم، إن النبي ﷺ لا يمنعنا من الضحك، وليس الضحك حرامًا، وإنما يحذرنا النبي ﷺ من أن نضيع في زحمة الغرائز فلا نبحث إلا عن الأمور التي تسبب لنا الضحك، ونترك الجدية في الحياة.

إن الإسلام يرينا أن الحياة فيها الاعتدال دائمًا، ولا يكون أي أمر غالبًا على غيره بحيث ننسى غيره من الأعمال.

الوصية الرابعة: طلب العلم ومساعدة المسلمين

نص الوصية:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما جلس قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[(١)].

مفردات الوصية:

الكربة والجمع كرب: هي كل ما يضيق منه صدر الإنسان ويزعج الإنسان بسببه.

المعسر: الذي ليس لديه مال يسد به حاجته التي يريد قضاءها.

ما كان العبد في عون أخيه: ما دام العبد في عون أخيه، والعون: المعونة والمساعدة.

السكينة: الطمأنينة والوقار.

غشيتهم: أي أنها دخلت فيهم - رحمة الله - بحيث غفر الله لهم جميع

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم: (٢٦٩٩).

ذنوبهم؛ ولا يستعمل فعل «غشي» إلا والمراد الإحاطة والشمول بما يقع عليه الفعل أو فيه بكل جوانبه.

حفتهم: أحاطت بهم.

بطأ به عمله: أي أن عمله الصالح كان قليلاً عند الله فكان موقفه متأخرًا في الحساب ولم يتقدم في درجته عند الله.

لم يسرع به نسبه: أي لم يجعله نسبه في مرتبة متقدمة عند الله تعالى.

والنسب: هو ما نعرفه من كون فلان ابن فلان؛ أي أن الأنساب لا تقوم مقام الأعمال عند الله تعالى، ولا تجعل درجة العبد متقدمة عند ربه - عز وجل - .

ما يفهم من الوصية:

في هذه الوصية بضعة أمور نتوقف عندها لإيضاحها وبيان معناها الشرعي؛ فالنبي ﷺ يوصي بمساعدة المسلمين والستر عليهم، كما يوصي بالعلم وطلب العلم والالتفات إلى دراسة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالدرجة الأولى.

١ - قضاء حوائج المسلمين:

أخي المسلم، إن النبي ﷺ يوصينا بأن يساعد بعضنا بعضًا خصوصًا في حالة الحاجة، فالإنسان المسلم قد تصيبه المصائب كغيره من الناس، وقد يقع في أزمات مادية ومالية خانقة فيعيش معيشة شاقة عسيرة ربما لا يحس به أحد إلا جاره أو بعض الناس المقربين إليه حوله.

فإذا ما رأينا مسلمًا في مصيبة نواسيه ونحاول أن نسليه ونبعده عن

التفكير فيها بأن نذكره بالحق وبما يلزم من تذكير في حالته، فإذا مات ميت عزيز على قلب أخيك، ثم لجأت إلى محاولة تعزية أخيك في ميته، ثم حاولت أن تساعده في أزمته بإضحاكه أو بطبخ الطعام له لانشغاله بأمر الميت الذي مات له، فهذا كله من باب تنفيس الكربة عن أخيك المسلم، وهذا كله سوف يكون في صحيفة عملك يوم القيامة، ويعدنا النبي ﷺ بأن الله سبحانه وتعالى سينفس عنا بعض كربات يوم القيامة إذا ما قمنا بالتنفيس عن كربة من كربات أخينا المسلم في الدنيا، وهذا أمر عظيم.

تصور - أخي المسلم - وذلك اليوم العسير الشاق الذي يقف فيه الناس طويلاً جدًا وقد غرقوا في العرق بحسب أعمالهم، وتصور كيف تدنو الشمس من الرؤوس بمقدار ميل (١٨٤٨م) بعد أن أصبحت حرارتها تعادل حرارة عشر سنين، ثم تصور الهم والغم الذي يحيط بالناس في أول الحساب، وإذا بعملك الصالح مع أخيك المسلم ينقذك من بعض هذه المصائب العظيمة، وكلما كانت لك أعمال كثيرة صالحة ساعدت بها إخوتك المسلمين على تنفيس كرباتهم في الدنيا تجاوزت كربة من كربات يوم القيامة.

وأما بالنسبة إلى المساعدة المالية للذين نقص مالهم من المسلمين والمسلمات، أو وقعوا في ضائقة مالية أو غيرهم ممن يدخل في معنى كلمة «معسر» فهذا أيضًا مما يوصي به النبي ﷺ ويعدنا بأننا إذا ما قمنا بإزالة الحاجة عن هؤلاء المعسرين أن ييسر الله علينا في الدنيا والآخرة؛ فأما تيسير الدنيا فليس يشترط فيه التيسير المالي، وإنما المراد به كل أمور اليسر التي تقع على العباد؛ فتسهيل قضاء حاجة دنيوية لم نكن نستطيع قضاءها هو من هذا الباب، وكذلك تهيئة الظروف التي تساعدنا على تجاوز المصاعب والمشقات

في الحياة هو من باب التيسير الذي وعدنا النبي ﷺ أن يحصل لنا إذا ما قمنا بالتيسير على عباد الله الذين هم في ضيق مالي، وبالنسبة إلى الآخرة فإن التيسير هو تخفيف الله عنا من شدائد ذلك اليوم الطويل الذي فيه ويلات وامتحانات وعقبات شديدة؛ فالله سبحانه دائمًا يعين العبد الصالح ما دام العبد الصالح يعين أخاه المسلم.

٢- الستر على المسلمين:

وأما الستر فالمقصود هنا؛ هو ستر الأعراض لا ستر الأعمال التي تُغضب الله سبحانه وتعالى؛ فالمسلم إذا رأى شيئًا على أخيه في بيته أو حالته مع زوجته وأهله فهذا مطلوب شرعًا، ولا يجوز لأي مسلم أن يتكلم على عرض أخيه بشيء.

والعرض هو ما نسميه اليوم «الشرف» فهو داخل فيه ويعبر عن معناه تمامًا في نص الوصية. والمهم هنا؛ أنه لا يصح شرعًا أن نتكلم على أعراض الآخرين بأي سوء، وألا نخوض مع الآخرين في الحديث عنهم؛ سواءً أكانت المرأة التي نتحدث عنها زوجة أم أمًا أم أختًا أم ابنة لصاحبك.. إلخ فهذا كله لا يجوز.

ولو رأينا عيبًا في بعض التصرفات أو السلوكيات التي تصدر عنهن فلا يصح أن نتكلم عليهن أبدًا، وهذا هو معنى الستر الواجب المطلوب في هذه الوصية.

أخي المسلم، إن بعض الناس يفهمون من معنى الستر في هذه الوصية أن يسكتوا عن الحق، وأن يروا الباطل أمامهم فلا ينكروه، وهذا ليس المعنى المقصود في هذه الوصية، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى قد أوضح لنا أن

الساكت عن الحق عاصٍ وآثم يستحق العقوبة في الدنيا من الله، كما يستحق عقوبة الآخرة، ولذلك عاقب قرية السبت التي كانت في بني إسرائيل بأن مسخ الله أهلها قردة، ولم ينج منهم إلا الذين أنكروا هذا العمل الباطل الذي فيه التحايل على شرع الله، إذ إن الله أمر اليهود بألا يصطادوا في يوم السبت فجاء أهل تلك القرية بحيلة بحيث تحايلوا على ربهم كما يظنون فجعلوا الشِباك التي يصيدون بها منصوبة يوم الجمعة، حتى إذا ما جاء يوم السبت جاءت الحيتان إلى مكان الشباك فعلقت بها، ثم أخذها أهل القرية يوم الأحد وهم يزعمون أنهم لم يصطادوا يوم السبت فجعلهم الله قردة خاسئين كما قص علينا قصتهم في القرآن، وأخبرنا أن الذين سكتوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم ينكروا على قومهم قد أخذهم الله بعذابه فمسخهم قردة خاسئين أيضًا. فهذا معناه أننا لا يصح أن نسكت عن الباطل بأن نراه بأعيننا أو نسمعه بآذاننا ولا نتكلم بشيء من الكلام الذي هو حق ضد ذلك الباطل.

٣- فضيلة طلب العلم:

أخي المسلم، إن النبي ﷺ يتحدث في هذه الوصية عن فضيلة طلب العلم، وكلمة «علمًا» في نص الوصية تعني أنواعًا متعددة من العلم؛ أي أنه كل علم يفيدك أو يفيد عامة المسلمين، وقد قال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما العلم بالتعلم»، فكلمة «العلم» هنا أيضًا تفيد كل علم لا العلم الشرعي وحده.

والعلم له موضوعات منها ما هي أساسية كالعلوم الشرعية وما يتعلق بها من علم الحديث، وعلم الفقه، وعلم تفسير القرآن، وعلم أصول الفقه، وعلوم القرآن، وأصول علم الحديث، وعلوم أخرى كعلوم الآلة التي لا

يفهم النص الشرعي إلا بها كعلم اللغة والنحو. ومنها ما هي علوم نحتاجها في حياتنا اليومية: إما احتياجًا شديدًا كعلوم الصناعات الأساسية البترولية والكيميائية والميكانيكية اللازمة لصنع السلاح للدفاع عن بلداننا والقيام بنشر دعوة الحق، وإما علوم كمالية لتجميل الحياة وتحسينها كباقي الصناعات التي نتعلمها لصنع المراوح والغسالات والتلفازات والمكيفات وغير ذلك مما يدخل في هذا الباب، فهذه علوم تحسينية وليست حاجية أو أساسية.

فالأجر والثواب يحصل بطلب أي باب من أبواب العلم النافع فقط، وأما العلم الضار على الرغم من أنه يسمى علمًا إلا أنه لا يصح أن نتعامل به كعلم السحر وعلم التنجيم وأمثالها، فهذه لا يصح أن يتعامل بها المسلمون.

وفي نص الوصية أن من يلتمس العلم النافع أو يطلبه يسهل الله له بهذا الطلب للعلم النافع طريقًا إلى الجنة، يعني أن الله سبحانه وتعالى يسهل وييسر للإنسان المسلم ما يقوده إلى الجنة، وهذه الأمور لا نستطيع أن نحيط بها ولا أن ندركها، فنعم الله كثيرة على عباده، ومن نعمه سبحانه ألا يتركنا في زحمة الحياة الدنيا ما دمنا نريد إرضاءه سبحانه، ومن إرضائه أن نطلب العلم النافع، ومن كرمه علينا أن يرشدنا إلى ما فيه نفعنا وصلاحنا لكي نطيعه بعون منه فندخل الجنة.

٤- النية في طلب العلم:

ولابد للعلم من نية صحيحة يراد بها وجه الله تعالى حتى نحصل على ثواب العلم، وقد جاءت نصوص أخرى توضح لنا أن المتعلم لا يجوز له أن يقصد في طلب العلم أغراضًا دنيوية دون أن يكون غرضه الأساس وتوجهه هو طلب ثواب الله سبحانه.

الألوكة
www.alukah.net

فقد قال النبي ﷺ: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا تماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»[١]، أي: لا تتعلموا العلم لهذه الأغراض الدنيوية الباطلة التي هي من المباهاة والافتخار بالعلم على العلماء الآخرين، أو مجادلة الجاهلين لإظهار العلم والمعرفة أمامهم، أو قصد الدخول إلى أماكن الكبار من الحكام والأمراء والتجار وأصحاب المناصب الذين يحاولون أن يجمعوا حولهم العلماء.

وقال النبي ﷺ: «من تعلم علمًا يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الدنيا»[٢].

ويحدثنا النبي ﷺ عن أول من يحاسب يوم القيامة فيقضى عليه بقضاء الله: فمنهم «رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه (الله) نعمة فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن وعلمته. قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال، هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار...».

وقال النبي ﷺ: «من تعلم علمًا لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار».

---

(١) لتباهوا: لتتفاخروا (على الناس). تماروا: المماراة هي المجادلة، وهي غالبًا ما تكون بغير ثمرة ولا هدف ولا نتيجة سليمة. تخيروا به المجالس، أي تتخيروا، يعني الانتقاء للمجالس الخاصة كمجالس الأغنياء وأصحاب الوجاهة والحكم. فالنار النار: أي لفاعل ذلك النار. والسفهاء: الجهلاء هنا.

(٢) يصيب به: ينال به. عرضًا: أمرًا من أمور الدنيا. عرف الجنة: رائحتها الطيبة.

إن المقصود من هذا كله – أخي المسلم – أن هناك نية صحيحة هي ابتغاء وجه الله تعالى في طلب العلم، وهذه النية هي أصل كل عمل يقوم به الإنسان لينال به ثواب الله سبحانه، ولكن هذه النية لا يجوز أن تجتمع معها نوايا أخرى فاسدة، والنوايا الفاسدة التي تتحدث عنها الأحاديث هي كلها مما يدخل في قلب الإنسان فيختلط بأعمال أخرى كثيرة يقوم بها، فالسمعة والمراءاة هما أساس هذه النوايا الفاسدة، وهما اللتان تدمران الأعمال جميعًا حين تكونان في نفس الإنسان وهو يقوم بأي عمل، وهذا ما سماه النبي ﷺ «الشرك الخفي» الذي يكون أخفى في نفوس الناس من دبيب النمل كما قال النبي ﷺ.

والذي يحرص على السمعة ويرائي الناس ينال جزاءه في الدنيا بأن يحظى بالشهرة وينال ما يطلب من الدنيا، ولكنه في الآخرة لا ينال إلا عقاب الله بالنار المحرقة أعاذنا الله منها.

ولكن لابد أن يفهم هنا أن الممنوع في النصوص هو النوايا الفاسدة هذه، والمطلوب هو أن يكون القصد في طلب العلم هو وجه الله لا لغاية أخرى دنيوية، فلا يصح أن يشارك هذه النية نوايا أخرى فاسدة إلى جانب نية طلب وجه الله وثوابه مثل أن يحصل الإنسان على وظيفة فلا مانع من وجود هذه النية، «ولكن بشرط أن يكون تصور الإنسان الأصلي والدائم في نفسه والمقدم عنده على غيره هو نيل ثواب الله وابتغاء وجه الله سبحانه، أما إذا انفردت النية الدنيوية هذه عن نية التقرب إلى الله بطلب العلم فهو أمر لا يجعل صاحبه ينال الثواب عند الله، ويتركه الله في الدنيا لنفسه، ولا يسهل عليه طريقه كما بين النبي ﷺ بنص الوصية هذه».

٥- طلب العلم فرض:

أخي المسلم، إن كلمة العلم في قوله ﷺ في هذه الوصية: «يلتمس فيه علمًا» هي كلمة عامة جامعة لكل أنواع العلوم، وهي مثل كلمة «العلم» في قوله ﷺ في نص آخر: «وإنما العلم بالتعلم»، فهي أيضًا تعني كل أنواع العلوم. غير أن هنا تفصيلاً لابد أن نقف عنده قليلاً لتوضيح نص هذه الوصية.

فالعلوم منها ما هو ضروري نحتاج إليه في حياتنا اليومية احتياجًا شديدًا؛ وهذه العلوم هي علوم الشريعة الإسلامية مثل: الفقه، وعلم الحديث، وروايته، وعلم أصول الفقه، وتفسير القرآن الكريم، وعلوم الآلة التي يحتاج إليها الفقهاء لفهم نصوص الشريعة؛ مثل: علم اللغة، وعلم النحو والصرف، وهذه العلوم تعلمها فرض ولكن على «الكفاية»، وليست فرض عين.

وسيأتي شرح هذين المصطلحين إن شاء الله فيما بعد.

وثمة علوم أخرى هي علوم ضرورية أيضًا وأساسية نحتاج إليها في تدبير حياتنا من حيث إنها تنفع لدفع الضرر عن الإسلام والمسلمين، مثل العلوم الصناعية الحربية، ومثل علوم الأساليب والخطط الحربية، ومثل العلوم البترولية التي نحتاج إليها في صناعة البترول، وهي مهمة لاستخراج النفط الذي نحتاج إليه في مرافق الحياة العامة للطبخ والإنارة وغيرها من الشؤون المهمة كتسيير المركبات الحربية. فهذه علوم أساسية أيضًا، وتعلمها فرض كفاية أيضًا.

وأما العلوم التي لا تؤثر في الحياة ولا تهم المسلمين ولا مصالح المسلمين، فهي ليست فرضًا بأية حال من الأحوال، وهي نوعان: نوع يحتاجه المسلمون

احتياجًا لا يؤثر في مصالحهم الحياتية اليومية ولا في شؤون معيشتهم مثل العلوم المتعلقة بالصناعات المنزلية كعلوم الآلات التي تستخدم في المطابخ، وعلوم الهندسة الميكانيكية التي تتعلق بالمكيفات والغسالات والمراوح، فهذه كلها مندوبة وليست فرضًا، وهي لو تعلمها الإنسان لوجه الله ينال عليها الثواب، ولا يعاقب الناس على تركها وعدم فعلها، وهذا هو معنى المندوب أو السنة أو المستحب، فكلها ألفاظ تدل على هذا المعنى.

وأما النوع الثاني من هذه العلوم التي لا تؤثر في الحياة فهو من المباحات، أي أنها يتساوى فيها الفعل أو الترك، فالمباح شرعًا هو ما يستوي فعله وتركه.

وهذا النوع متعلق بالعلوم التجميلية من الزينة واللباس والأثاث وما شابه ذلك مما ليس فيه حاجة ولا ضرورة، ولا يؤثر في مصالح المسلمين أبدًا.

- الفرق بين فرض العين وفرض الكفاية:

فرض العين هو مصطلح شرعي يعني عند الفقهاء وعلماء الشرع الحنيف: أن العمل أو الفعل الذي طلب الله سبحانه منا أداءه هو عمل واجب على كل شخص بمفرده أو بنفسه، ولابد أن يقيمه كل فرد بنفسه وإلا فإنه سوف يحاسب عليه أمام الله، فالصلوات الخمس والزكاة والحج والعمرة والصوم هي فروض عين، وهي في رقبة كل إنسان لابد من أن يؤديها كل فرد بمفرده.

وأما فرض الكفاية فهو الفرض الذي إذا أقامه بعض الناس سقط عن الباقين به؛ أي أنه إذا فعله بعض الناس الذين استطاعوا أداءه فإن الوجوب يسقط عن الجميع؛ فالله سبحانه وتعالى خاطب الناس جميعًا في هذا الفرض وأمرهم بإنجاز الفرض وأدائه، فجرى التركيز على أداء الفرض وحده، ولم

يجر التركيز على المكلفين؛ فالله سبحانه حين قال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ١١٠]؛ طلب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من كل إنسان، فهذا الطلب ركز على الأشخاص، ولذلك كان فرض عين، ولكن حين قال سبحانه: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]؛ كان الطلب ينصب على إيجاد أمة أي: جماعة، ولم يطلب ذلك من كل فرد وإنما جرى التركيز على أداء العمل فقط، فهذا فرض كفاية.

٦- العلم الأساس هو علم الشرع:

أخي المسلم الشاب، إن نص هذه الوصية يؤكد أهمية علم الشرع الإسلامي، وخصوصًا ما يتعلق بالكتاب والسنة، وهذا العلم هو الواجب المفروض تعلمه على المسلمين؛ ولكن سبق أن ذكرنا أن علوم الشريعة هي فرض على الكفاية وليست فرض عين؛ فهل هذا هو عام في كل شيء؟

وللجواب عن هذا السؤال لابد أن يفهم أن ثمة أمرين: أحدهما أن علوم الشريعة التي يدرسها الطلبة في المعاهد والمدارس الشرعية والجامعات هي علوم من باب الفرض الكفائي، وليست فرض عين؛ إذ ليس واجبًا على كل فرد مسلم أن يتعلمها أو أن يتقنها، وإنما يجب هذا على جماعة من المسلمين القادرين على فهم هذه العلوم ممن وجدوا في نفوسهم هذه القدرة أو الكفاية، وإلا فيستحيل تعلم هذه العلوم عند الناس جميعًا، ومن هنا لابد أن نفهم معنى قولة تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢] على نحو صحيح.

فهذه الآية تتحدث عن أنه ما كان باستطاعة المؤمنين جميعًا أن يذهبوا

للجهاد مع النبي ﷺ، إذ إن الذين لم يذهبوا للجهاد مع النبي ﷺ من القاعدين يظلون مع النبي ﷺ يسمعون منه الكلام الذي أنزله الله عليه من القرآن والوحي، حتى إذا رجع إخوتهم المجاهدون من الجهاد أخبرهم هؤلاء القاعدون بما فاتهم مما لم يسمعوه من النبي ﷺ لأنهم كانوا في الجهاد بعيدين من سماع الآيات والسنة النبوية، فلابد أن تكون ثمة طائفة عند النبي ﷺ تسمع العلم لتنقله، فالنبي ﷺ إذا كان مع الناس في الجهاد فالكل يخرج معه، وأما إذا مكث في المدينة المنورة فلابد أن تقعد طائفة مع النبي ﷺ لأخذ العلم.

وكان هذا ضروريًا آنذاك لحمل العلم النبوي لئلا يضيع، وليحفظ الله دينه، ولا يفهم من الآية أن طلب العمل مقدم على الجهاد أبدًا، وإنما يفهم منها أنه لا يجوز إضاعة العلم، كما أنه لابد أن يكون للعلم الشرعي جماعة تقوم بحفظه ونقله للناس، وهذه الجماعة وجودها في الأمة فرض وواجب، وإلا فإن الناس جميعًا يقعون في الإثم والمعصية إذا لم تكن ثمة جماعة تحمل علم الشرع في صدورها لتعلمه للناس، فهذه الآية تدل على أن طلب العلم الشرعي فرض كفاية.

ولكن ثمة أمر آخر هو أننا - نحن الأفراد في هذه الأمة - لابد لنا أن نتعلم من الشرع ما يجعلنا نؤدي الفروض اليومية والواجبات التي نقوم بها دوريًا على نحو صحيح، ولتأديتها كما أمر الله بحيث تكون صحيحة ومقبولة عند الله واجب علينا أن نتعلم ما نحتاج إليه من العلم لهذه الغاية وهذا الغرض؛ ولذلك نتعلم من أحكام الصلاة ما يجعل صلاتنا مؤداة كما أمر الله، ومن أحكام الصيام ما يجعل صومنا مقبولاً عند الله، وليس هذا فحسب وإنما نحتاج أيضًا إلى تعلم أحكام كل أمر جديد نعمل به، فمثلاً حين نريد التجارة بالمواد الغذائية وغيرها علينا أن نتعلم ما نحتاج إليه من

أحكام العقود الشرعية وأحكام الربا وبعض الأحكام التي تتعلق بتجارتنا لكي يصح عملنا التجاري أمام الله ونؤديه كما أمر الله.

ومن هنا نستطيع أن نفهم حديث النبي ﷺ لو صح سنده وليس صحيحًا: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» وفي رواية: «واجب على كل مسلم»، فليس معنى كلمة «فريضة» أو «واجب» في هذا الحديث هو ما يريده علماء الشريعة من معنى هذين المصطلحين؛ فهم يريدون بهما أن العمل الواجب أو المفروض هو كل عمل يثاب فاعله (يأخذ الثواب) ويعاقب تاركه، وأما هنا فيعني في نص الحديث أنه - أي العلم - مطلوب؛ والطلب المقصود قد يكون فرضًا وقد يكون مندوبًا (سنة أو مستحبًا أيضًا)، والبحث في النصوص الأخرى يرشدنا إلى هذا المقصود، وهو كما سبق أن شرحناه.

٧- دراسة كتاب الله - سبحانه - :

أخي المسلم، إذا كان رأس الحكمة معرفة الله، فإن رأس العلم دراسة كتاب الله؛ إذ لا يمكن لنا أن نتوصل إلى معرفة الله إلا بدراسة كتاب الله، فهو كما قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته، وإن مأدبة الله القرآن»؛ فالآدب: هو المضيف، والمأدبة : هي الضيافة، أي ما يقدم إلى الضيف من الطعام، فالمقصود في قول ابن مسعود - رضي الله عنه - أن الله قد ضيف عباده بالكلام الذي أنزله إليهم في كتابه، فهو غذاء قلوبهم وقوتها، وأننا ننتفع بكلام الله ونحتاج إليه أكثر من انتفاع أجسامنا بالغذاء، وحاجتها إليه.

وكتاب الله حين ندرسه كما طلب النبي ﷺ في الوصية، فإن ذلك يستدعي دراسة سنة نبيه ﷺ، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ

﴿ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧]، فهذا الذي آتانا إياه الرسول ﷺ أو نهانا عنه هو ما جاء مرويًا عنه بالسنة النبوية، وهو ما يشرح ما ورد في كتاب الله سبحانه من معان عامة أو مطلقة أو يبين لنا ما يحتاج إلى بيان بأقوال أو أفعال؛ إذ إن فعل النبي ﷺ كقوله في بيان الشريعة التي جاءت من رب العالمين. ولهذا كله أوصانا النبي ﷺ بدراسة كتاب الله.

٨- ثمرات دراسة كتاب الله - تعالى -:

أخي المسلم، إن ثمرات دراسة كتاب الله قد بينها النبي ﷺ في هذه الوصية بما يدفع طلبة العلم الشرعي إلى الأمام ويحثهم على مدارسة كتاب الله، وبما يجعل الإنسان المسلم أينما كان يحرص على دراسة كتاب الله، وعبارة «يتدارسونه بينهم» تعني التفقه بكتاب الله وتعلم أحكامه ولا تعني أننا نعكف على قراءة كتاب الله كما يتصور بعض المسلمين الذين ينكبون على قراءة القرآن وتعلم علم القراءات القرآنية فقط. نعم، نحن ننال الثواب بقراءة القرآن لأننا نكسب الثواب بكل حرف فيه حين نقرأه، فكل حرف بحسنة والحسنة بعشرة أمثالها، ولكن هذا نوع من الثواب وليس هو الثواب الذي يأخذه الإنسان بدراسة القرآن، فلا شك أن ثواب الدراسة عظيم جدًا.

ولابد من شرح نقطة مهمة يغفل عنها كثير من المسلمين، وهي أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان].

وهجر القرآن ليس هجرًا لقراءته، وإنما الهجر أنواع منها:

أ - عدم الاستماع إلى القرآن حين يتلوه القارئ.

الألوكة
www.alukah.net

ب- ترك حفظ القرآن وتعلمه.

ج- ترك الإيمان به والتصديق به.

د- ترك تدبره وتفهمه والتفكر في آياته ومعانيها.

هـ - ترك العمل به وامتثال أوامره وترك اجتناب ما زجر عن ارتكابه وفعله.

و- الاهتمام بغيره، كالشعر، والأقوال، والغناء، واللهو، والكلام، بحيث يعكف الإنسان عليها ولا يقرأ القرآن ولا يتذكر ما فيه.

وفي نص الوصية من ثمرات دراسة القرآن ما يلي:

غشيان الرحمة: وهو ما ورد في قوله ﷺ: «وغشيتهم الرحمة»، ومعنى ذلك أن الرحمة تحيط بالمجتمعين الذين يدرسون القرآن إحاطة تامة، وفعل «غشي» - ومضارعه «يغشى» - لا يستعمل عند العرب إلا للدلالة على الإحاطة بالشيء من جميع أجزائه، فأية نعمة هي هذه الغشية! وأية كرامة هي من الله للمسلم حين يحرص على هذا العمل!.

نزول السكينة: السكينة هي الطمأنينة والوقار، وهي نعمة كبرى لدى الإنسان، فنحن نحيا في هذه الحياة وقد امتلأت أنفسنا بالتوترات، وأحاطت بنا المزعجات الكثيرة، وكثير منا يدخل الغضب قلبه فيمأه فلا يستطيع أن يفكر تفكيرًا واعيًا، وهذا كله يزول بالإقبال على كتاب الله على النحو الذي وصفه النبي ﷺ، أليست هذه نعمة كبرى عاجلة لا آجلة من نعم الله؟! هذا في الدنيا فكيف هو ثواب الآخرة؟!

إحاطة الملائكة بدارس القرآن: وهذا معنى قوله ﷺ: «وحفتهم

الملائكة»، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ [الزمر: ٧٥]، أي أن الملائكة قد أحدقوا بعرش ربهم وأحاطوا به وأطافوا بجوانبه، فالمراد بالنسبة إلى دارسي القرآن أنهم كأن الملائكة قريبون منهم قربًا شديدًا حتى كأنهم لم يتركوا في مجلس دراسة القرآن أي فرجة أو ثغرة ينفذ منها الشيطان إلى ذلك المجلس.

ذكر الله - تعالى - لدراسي القرآن: وهذا معنى قوله ﷺ في هذه الوصية: «وذكرهم الله فيمن عنده»، والذين عند الله إنما هم الملائكة الكرام والأنبياء عليهم رضوان الله وسلامه، أي أن الله يباهي بعبادة هؤلاء الذين يدرسون القرآن من عنده من الملائكة والأنبياء عليهم السلام.

٩- العلم يقتضي العمل:

أخي المسلم، هذه الوصية مقترنة بوصايا أخرى من النبي ﷺ توضيح لنا أن العلم لابد أن يصاحبه عمل وإلا فإن الإنسان العالم يصيبه عقاب شديد في الآخرة، والأجر الصحيح الكامل لا يأخذه الإنسان على التعلم فقط، وإنما بالعلم والعمل، وقد ضرب الله لنا مثلاً ببني إسرائيل لنعتبر، فقد ترك رهبانهم وأحبارهم العمل بما في كتاب الله فلم يطبقوا ما في كتاب الله، وجاءت نصوص في شرح هذا الأمر الذي هو أن العلم يقتضي العمل، وسنذكر فيما يلي بعض النصوص المهمة التي تحتاج إليها لشرح مضمون هذه الوصية من هذا الجانب وتأكيده.

نصوص وأخبار في اقتضاء العلمِ العملَ:

من النصوص ما هو نصوص القرآن الكريم، ومنها ما جاء في السنة النبوية، ومنها أخبار عن الصحابة - رضي الله عنهم - تشرح هذا الأمر،

ومنها ما هو قصص ومرويات عن بني إسرائيل، وإليكم بعض النصوص:

أ- نص من القرآن:

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، ومعنى قوله - عز وجل -: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، أنه يطلب منهم أن يكونوا متعلمين للعلم يتعلمونه، وأن يكونوا معلمين للناس، وأن يكونوا عاملين، فالرباني عالم معلم عاملٌ بما عمل.

ب- نص من الحديث النبوي:

عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به[(١)]»[(٢)].

---

(١) الغيث: المطر الذي يأتي عند حاجة الناس إليه. طائفة: قطعة (من الأرض). الكلأ: نبات الأرض الرطب واليابس. العشب: النبات الرطب. أجادب: جمع «أجدب»، وهي الأرض التي لا تشرب الماء ولا تنبت. قيعان: جمع «قاع»، وهي الأرض المستوية الملساء. فذلك: أي النوع الأول الذي ذكره النبي ﷺ. فقه: صار فقيهًا يفهم شرع الله. من لم يرفع بذلك رأسًا: أي أنه شديد التكبر بحيث يبتعد من العلم والتعلم.

(٢) رواه مسلم.

في هذا النص يوضح لنا النبي ﷺ أنه جاء بالدين الذي يشبه الغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، فحالة الناس قبل أن يبعث النبي ﷺ كانت كذلك، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذلك علوم الدين تحيي القلب الميت. وأما السامعون الذي استمعوا له فضرب النبي ﷺ لهم مثلين، وفي ضمن كل مثل مثلان أيضًا:

فأما المثل الأول فالشطر الأول منه، هو مثل العالم المعلم الذي هو بمنزلة الأرض الطيبة التي شربت فانتفعت وانبتت فنفعت غيرها، وأما الشطر الثاني منه، فهو مثل العالم الجامع للعلم الذي عكف على العلم في زمانه غير أنه لم يعمل بنوافله ولم يتفقه فيما جمع من ذلك العلم، غير أنه أداة أو نقله إلى غيره، فهذا بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به.

وأما المثل الثاني: فالشطر الأول يتضمن أن من دخل في الدين ولم يسمع العلم أو سمعه فلم يعمل به ولم يعلمه فهو كالأرض السباخ التي لا تنبت زرعًا، وهذا الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «من لم يرفع بذلك رأسا»، والمراد: أنه - أي: ذلك الرجل - أعرض عن علم الدين فلم ينتفع به لنفسه ولم ينفع الآخرين.

وأما الشطر الثاني من هذا المثل الثاني، فهو الذي لم يدخل في الدين أصلاً بل بلغه الدين فكفر به، فهذا مثله كالأرض الصماء الملساء المستوية التي يمر عليها الماء فلا تنتفع به، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا النوع بقوله: «ولم يقبل هدى الله الذي جئت به».

ج - نص آخر من الحديث النبوي:

قال رسول الله ﷺ: «إنكم قد أصبحتم في زمان، كثير فقهاؤه قليل

الألوكة
www.alukah.net

خطباؤه، كثير معطوه، قليل سؤاله، العمل فيه خير من العلم، وسيأتي زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه، وكثير سؤاله[١]، قليل معطوه، العلم فيه خير من العمل»[٢].

ففي هذا الحديث يوضح لنا النبي ﷺ كيف أن عصر الصحابة الذين خاطبهم بهذا الحديث - رضي الله عنهم - هو عصر فيه خطباء قلائل، وليس فيه كثير من السائلين الذين يسألون الناس سواءً أكانوا متسولين أم غير متسولين، كما أن المتصدقين الذين يتصدقون هم كثيرون سواءً أكانت الصدقة فرضًا أم كانت نافلة (سنة أو مندوبة أو مستحبه)، والعلماء فيه كثيرون، ولكن العمل فيه أيضًا كثير، وأما الزمان الذي سيأتي كما حدث عنه النبي ﷺ فهو الزمان الذي يقل فيه العلماء الفقهاء، ويكون بعكس زمان الصحابة.

أخي المسلم، إن كثرة الخطباء تعني هنا كثرة الكلام في العلم دون عمل، كما أن كثرة المتصدقين الذين يعطون السائلين تعني كثرة العمل، ويقل الفقهاء العلماء بالدين حين يكثر الخطباء.

د- نص ثالث من الحديث النبوي:

وأيضًا قال النبي ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخطباء من أمتك

(١) سؤاله: هم السائلون الذين يسألون الناس أن يعطوهم المال، معطوه: الذين يعطوه السائلين.

(٢) رواه الطبراني في الكبير، وفيه عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي، وهو ثقة إلا أنه قيل فيه: يروي عن الضعفاء، وهذا من روايته عن صدقة بن خالد، وهو من رجال الصحيح.

يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟»[١].

فالنبي ﷺ هنا يحدثنا عن الخطباء الذين يقولون ما لا يفعلون، وهذا مطابق لقول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]، فالآية الأولى يخاطب الله فيها بني إسرائيل الذين حرفوا الكتاب الذي هو التوارة وردوا ما أنزل الله إليهم من أوامر ونواهٍ وعصوا نبيهم واعتدوا على الأنبياء فقتلوهم، وفعلوا الكثير، ثم فوق هذا يأمرون الآخرين بالبر الذي هو الأمر الحسن من أمور شريعتهم، غير أنهم لا يطبقون هذا الذي يتكلمون به على أنفسهم فلا يعملون به، فكان قولهم مناقضًا لفعلهم وكان عملهم بلا عمل.

والآية الثانية فيها خطاب الله تعالى للبشر جميعًا من الذين آمنوا موضحًا لهم أن بعضهم يقولون ما لا يفعلون، وأن هذا الفعل يمقته الله أشد المقت، والمقت: هو البغض الشديد.

والنبي ﷺ في الحديث كذلك يحدثنا عن جزاء الخطباء الذين يقولون ما لا يفعلون، وهو جزاء قاسٍ وعظيم لو تأملنا فيه، فهذا الخطيب الذي يأمر الناس بالإحسان ثم لا يطبق ذلك على نفسه سوف ينال جزاءً القرض لشفتيه بمقراض وأي مقراض؟! إنه مقراض من نار جهنم، يعني أنه سيعذب بالنار ثم تقرض شفتاه في النار، إنه عذاب أليم وشديد.

إن المقراض مقص رباني هنا مصنوع من النار أو مستعار من النار،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩١).

الألوكة
www.alukah.net

أعاذنا الله من هذه الحال.

أخي المسلم الشاب، ربما تفرح كثيرًا إذا كنت تدرس علوم الدين فوضعت على رأسك عمامة ولبست جبةً ثم صعدت على درجات المنبر فارتقيته تخطب في الناس وتذكرهم، فإذا كنت من أهل الدين والتقوى فتذكر نعمة الله عليك بهذا العلم، وتذكر أن تنصح الناس بما تقوم به أنت نفسك، وإلا فراجع نفسك وألزم شعار أهل التقوى والإيمان، وتذكر هذا الذي جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

هـ - قول لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه - :

وقد صح عن الصحابي الجليل معاذ بن جبل - رضي الله عنه - أنه قال: «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا[1]»، فهذا الذي قاله سيدنا معاذ - رضي الله عنه - هو ما فهمه من نصوص الشرع وما يعلمه من النصوص الشرعية المنقولة عن النبي ﷺ، وهو ما تدل عليه النصوص التي جاءت في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ كما تقدم.

(١) تعلموا (الثانية): أي تتعلموا؛ حذفت تاؤها الأولى. يأجركم: يعطيكم الثواب والأجر.

الوصية الخامسة: في الصدق والامتناع من الكذب

نص الوصية:

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»(١).

مفردات الوصية:

ليكذب: أي أنه يكثر الكذب، ومثله فعل «يصدق» هنا، فهما يدلان على معنى الدوام والاستمرار لا كما يدل عليه الفعل المضارع عادة.

يكتب عند الله: أي أن ذلك الذي فعله من الصدق أو الكذب يكتب في اللوح المحفوظ أو في صحف الملائكة.

صديقًا: صيغة تدل على معنى كثرة الصدق.

كذابًا: أي كثير الكذب.

البر: هو كل خير مما أمر به الشرع.

الفجور: هو عدم الاستتار من فعل المنكرات والميل على الفساد.

ما يفهم من الوصية:

يطلب النبي ﷺ من المسلمين أن يلتزموا بالصدق وأن يمتنعوا

(١) رواه البخاري في كتابه «الأدب المفرد» برقم (٣٨٦). وهو حديث صحيح.

من الكذب، ويوضح لهم أن صاحب الصدق يصدقه الناس ويشهدون له بالصدق لأنه صادق لا يتكلم إلا بالصدق أمام الناس، ثم يكتب هذا الرجل «صديقًا» عند الله في الصحف التي تكتب فيها الملائكة أعمال العباد أو في اللوح المحفوظ لبيان أن ذلك العبد له خلق الصدق وأنه بعيد من خلق الكذب، وكذلك فإن الكاذب حين يظل يكذب أمام الناس يشهد له الناس بالكذب حتى يكتب عند الله أنه «كذاب» تعريفًا بأنه بعيد كل البعد من الصدق، فالناس شهداء في الأرض كما أن الله يسجل على العبد أعماله وما يشهد به الناس له أو عليه.

ويبين لنا النبي ﷺ أن الصدق لا يرشد العبد إلا إلى أعمال الصلاح التي يوفقه الله لعملها، وأما الكاذب فينحو منحى الفجور، وكلما زاد كذبه زاد فجوره، وربما خرج إلى أبواب الكفر بهذا الكذب الذي يكذبه ويجري على لسانه إذ يتورط الكذاب في الكذب ولا يكاد يخرج من هذه الورطة.

١ - الكذب هو مخالفة الواقع:

أخي المسلم، إن الكذب لا يكون كذبًا إلا إذا قام صاحبه بإخبارنا خبرًا يخالف الواقع، ولكن ما هو هذا الواقع؟

ثمة واقع خارجي نحس به مستقلاً عن عقولنا، تكون فيه الأشياء حولنا نحس بها بحواسنا، وثمة واقع عقلي في عقولنا بحيث نتصور من خلاله أفكارًا وأحداثًا وآراءً ومعلومات من هنا وهناك.

وإن الخبر لا يكون كذبًا إلا في حالة واحدة: هي أن يخالف المرء الواقع الخارجي المحسوس ثم الواقع العقلي، فقد يرى شخص شخصًا آخر - هو زيد من الناس - في محطة قطار فيقول: إنه رآه في الساعة الفلانية عند الظهر

في المحطة، ثم يتضح للشخص أنه رأى شخصًا آخر يشبه زيدًا أشد مشابهة حتى يكاد أخاه التوءم، فهذا ليس كذبًا، وإذا حلف الشخص أنه رأى زيدًا فليست يمينه كاذبة، وهو صادق في الظاهر لأنه لم يخالف الواقع العقلي الذي فسر له أن ذلك الشخص الذي رآه هو زيد في الحقيقة وليس شخص آخر يشبه زيدًا، وهو إنما خالف الواقع العقلي فقط، وهذا ما نسميه «الوهم» و «الخطأ» وأمثال ذلك، ولم يخالف أيضًا الواقع الخارجي المحسوس الذي فيه شخص يتحدث عنه له كل مواصفات «زيد» هذا.

وأما الكاذب فهو مثلاً يخبرنا بأن زيدًا كان في المحطة في تلك الساعة علمًا بأن زيدًا لم يكن في ذلك المكان كما أخبرنا الشخص الكاذب، فهذا مخالف للواقع بطرفيه: الخارجي والعقلي، وهذا كذب بقصد ونية سابقة للكذب.

فإذًا، يشترط فيه أن يكون إخبارًا عن الواقع بخلاف ما هو واقع (حاصل)، وهو يشترط فيه أن يكون عن قصد ونية مسبقين.

٢- الكذب له درجات:

والكذب له درجات متعددة، فثمة كذب هو أشد أنواع الكذب، وهو كذب على الله وعلى رسوله ﷺ، فهذا كذب صاحبه في النار قطعًا بما حدثنا عنه النبي ﷺ: «من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[١].

وثمة كذب أخف من هذا ولكنه كذب عظيم أيضًا، وهو كذب يؤدي إلى أضرار جسيمة وعظيمة خطيرة، كالكذب الذي يؤدي إلى حرب وقتال، والكذب الذي يؤدي إلى القتل، والكذب الذي يسبب هلاك الجيش، وما

(١) يتبوأ: يعتلي فيجلس (على المقعد).

الألوكة
www.alukah.net

شاكل ذلك من الأفعال.

ولكن الكذب كذب، وهو سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا في أعين الناس إلا أنه عند الله كذب، وهو يستحق صاحبه به النار كما أخبرنا النبي ﷺ في نص هذه الوصية.

٣- تحديد الشرع للكذب:

أخي المسلم، إن الشرع الحنيف هو الجهة الوحيدة التي تحدد معاني الأشياء التي أمر بها الله ورسوله أو نهى عنها الله ورسوله ﷺ، ونحن بشر ضعفاء ليست عقولنا قادرة على تحديد المعاني أو على وصف فعل ما بأنه حسن أو قبيح، فإن الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، ولا يجوز لنا أن نلجأ إلى عقولنا في هذا التحديد؛ إذ لو كان عقلنا يستطيع التحديد أو الحكم على الأشياء والأفعال بأنها حسنة أو قبيحة لما كان ثمة داعٍ إلى التشريع ولترك الله سبحانه لنا أن نشرع بأنفسنا دون حاجة إلى نبي أو قرآن.

ومن هنا جاء الشرع وبين لنا أن الكذب هو ما عده الشرع كذبًا؛ ولذلك فقد جاءت روايات تفيد أن ثمة أمورًا ليست كذبًا على الرغم من أنها تدخل في الكذب ومعناه بحسب دلالة الكلمة لغة وشرعًا في الأصل اللغوي وأصل معنى الكذب في نص هذه الوصية.

فقد قال النبي ﷺ: «لا يصلح الكذب في جد ولا هزلٍ ولا أن يعد أحدكم ولده شيئًا ثم لا ينجز له»[١]، فهذا يعني أن الكذب يستوي فيه الجد والهزل، ولا يصح للأب أن يعد ابنه ثم لا يفي بها وعده من جلب شيء له أو

---

(١) لا ينجز له: لا ينفّذُ له.

تحقيق مطلب له، فهو داخل في معنى الكذب أيضًا.

وقال رسول الله ﷺ: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيقول خيرًا أو ينمي خيرًا»[١].

وقال أيضًا ﷺ: «لا يصلح الكذب إلا في ثلاث: كذب الرجل مع امرأته لترضى عنه، أو كذب في الحرب فإن الحرب خدعة، أو كذب في إصلاح بين الناس»، فأوضح النبي أن للرجل أن يكذب على زوجته إذا كان مثلاً لا يستطيع أن يجلب لها شيئًا من الثياب فيعدها بأنه سيجلب لها ثوبًا، وكذلك فإن الكذب في الحرب مباح، والكذب كذلك ليصلح الرجل أشخاصًا مختلفين، وليس الكذب لإصلاح الناس، فالكذب لإصلاح الناس هو غير هذا المعنى المراد والمقصود، وهو حرام، فإصلاح الناس يعني إفهامهم الحق ووعظهم فلا يجوز فيه الكذب، وأما الإصلاح بين الناس فهو بمعنى الشجار والخصومة التي تقوم بين الناس فينقل الشخص للطرفين كلامًا جميلاً يقوله كل طرف عن الآخر وإن لم يقولوه حقًا، فهذا كله لا يعد من الكذب الذي يعاقب عليه صاحبه.

---

(١) ينمي: يبلّغ الخبر.

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة الحادية عشر

مواقف وعبر
مع النبي ﷺ

الألوكة
www.alukah.net

الوقفة الحادية عشر
مواقف وعبر مع النبي ﷺ [١]

أولاً: من جود النبي ﷺ:

مر صفوان بن أمية بشعب مملوء إبلاً وغنمًا فأعجبه، فجعل ينظر إليه، فقال النبي ﷺ له:

أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب؟

قال صفوان: نعم يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ: هو لك بما فيه.

فقال صفوان: أشهد أنك رسول الله، ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نفس نبي.

ثم رجع صفوان إلى قومه فقال: يا قومي اسلموا، فإن محمدًا يعطى عطاء من لا يخاف الفقر.[٢]

صلى الله وسلم وبارك على من فاضت يده بالجود والكرم، وصلى الله وسلم على من آتاه الله الحكمة في مداواة النفوس، فلكل نفس مدخل من حيث تحب وترغب النفس، فبعض الناس يأتي طائعًا بالعطاء كما رأيناه من صفوان، الموقف، وبعض الناس يأتي طائعًا بإظهار قدره ومكانته، لحبه

---

(١) من كتاب: مواقف وعبر- د/ محمد محمد داود- دار المنار(القاهرة) ١٤٢٥هـ (بتصرف يسير).

(٢) أخرجه النسائي في البيوع (ب٧٧)، أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٣).

للفخر، كما في أبي سفيان، فقال النبي ﷺ ساعة فتح مكة: «ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»(١).

وعطاء النبي ﷺ كان ثقة في ربه بأن يخلف ما هو خير، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩].

كما كان ينفق ﷺ أفضل ما عنده، لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وكان إنفاقه ﷺ من أجل الدعوة إلى الله تعالى وليس من أجل تحقيق شهرة بين الناس أو رغبة في ثنائهم، بل كان عطاؤه لله تعالى.

والمواقف الدالة على جوده وكرمه ﷺ كثيرة ومشهورة، لقد بلغ به ﷺ الكرم أنه كان يتحيي أن يرد سائله خالي اليدين معتذرًا بالفاقة، جاءه رجل فسأله فقال: ما عندي شيء، ولكن ابتع عليَّ فإذا جاءنا شيء قضيته، فقال عمر: يا رسول الله، قد أعطيته فما كلفك الله ما لا تقدر. فكره ﷺ قول عمر فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم رسول الله ﷺ وعرف من وجهه البشر بقول الأنصاري، ثم قال ﷺ: «بهذا أمرت»(٢).

عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية أنه قال: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ.

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد (ب/ ٣١،٨٤،٨٦)، وأبو داود (الخراج ب٢٥).

(٢) الشفا للقاضي عياض (١/ ٢٣٣)، إتحاف السادة المتقين للزبيدي (١/ ٢٣٤).

الألوكة
www.alukah.net

روى الترمذي أن النبي ﷺ حمل إليه تسعون ألف درهم ووضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

وعن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال: سأل ناس من الأنصار رسول الله ﷺ فأعطاهم ما سألوه، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه حتى نفد ما عنده قال: ما يكون عندي فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحد عطاء هو خير له وأوسع من الصبر»[(١)].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ يكل صدقته إلى غير نفسه حتى يكون هو الذي يضعها في يد السائل[(٢)].

وعن أبي ربيعة قال: خصلتان كان لا يكلهما رسول الله ﷺ لأحد: الوضوء من الليل حين يقوم، والسائل يقوم ﷺ فيعطيه بنفسه[(٣)].

عن عبد الله الهوزني قال: لقيت بلالاً فقلت: يا بلال حدثني كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ؟ قال: ما كان له شيء، وكنت أنا الذي ألي ذلك منه - أي أنا المتولي أمر ماله ﷺ - منذ بعثه الله تعالى حتى توفي، وكان - عليه السلام - إذا أتاه الإنسان مسلمًا فرآه عاريًا يأمرني فانطلق أستقرض فأشترى له البردة فأكسوه وأطعمه[(٤)].

وفي الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري (٢/ ١٥١)، ومسلم في الزكاة (١٢٤).

(٢) رواه ابن ماجه (ج٢/ ٩٦).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٢).

(٤) سنن أبي داود في الخراج (ب/ ٣٥).

أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة(١).

ثانيًا: توقير النبي ﷺ:

جهز عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - ماء الوضوء لرسول الله ﷺ حين هم رسول الله ﷺ بصلاة الليل فأشار النبي ﷺ إلى ابن عباس أن يقف بجواره، فوقف ابن عباس خلف رسول الله ﷺ.

فلما انتهت الصلاة، قال له النبي ﷺ: «ما منعك أن تقف بجانبي؟».

فقال: يا رسول الله أنت أجلُّ وأعزُّ من أن أوازيك.

فدعا له النبي ﷺ: «اللهم آته الحكمة»(٢).

هذا الموقف العظيم بين سيدنا رسول الله ﷺ والصحابي الغلام عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - يفيض بالقيم التربوية الهادية:

القيمة التربوية الأولى: هذا الأدب الجم من ابن عباس - رضي الله عنهما - توقيرًا وإجلالاً لسيدنا رسول الله ﷺ، وهذا أدب إيماني أرشدنا القرآن الكريم إليه، قال الله تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٩].

ولقد أمر الله المؤمنين بالتزام الأدب بين يدي رسول الله ﷺ، وفي مجلسه وفي حضوره، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٣،٥/ ٣٣)، ومسلم في الفضائل (٥٠،٤٨).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٥٩) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٥).

الألوكة
www.alukah.net

صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

القيمة التربوية الثانية: مكافأة أهل المعروف، ولو بالدعاء لهم؛ فنجد سيدنا رسول الله ﷺ يكافئ ابن عباس بمكافأتين على حسن أدبه:

الأولى: تكريمه تكريمًا معنويًا إيمانيًا بدعوته إلى الصلاة بجوار الرسول ﷺ.

الثانية: الدعاء له، حيث دعا له النبي ﷺ دعوة مباركة، وهي: «اللهم آته الحكمة».

القيمة التربوية الثالثة: وهي تخص العلماء وأهل التربية: أن يقربوا إليهم النبهاء من طلبة العلم، فقد قرب النبي ﷺ إليه عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - لما رأى فيه خيرًا وذكاءً، فكان النبي ﷺ يجعله رديفًا له في السفر (أي يركب خلف رسول الله ﷺ)، وكان يدعوه للصلاة خلفه في قيام الليل، وكان يرشده ويربيه على الهدى الإيماني المبارك، من ذلك قوله له: « يا غلام: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك...»(١).

وكانت الثمرة لهذا القرب وهذه العناية المحمدية بهذا الغلام أن بلغ عبد الله بن عباس ألفًا وستمائة حديث أثبتها البخاري ومسلم رغم أن عمره عند وفاة النبي ﷺ كان ثلاث عشرة سنة، وأصبح هذا الفتى برعاية رسول الله ﷺ له مرجعًا للأمة في علوم القرآن والإفتاء واللغة والعقيدة.

---

(١) أخرجه الترمذي في «صفة القيامة» باب: «لم يسم» (٤/ ٦٦٧/ح ٢٥١٦). وأحمد في المسند (١/ ٢٩٣، ٣٠٣).

ثالثًا: راهب وامرأة:

عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «تعبد عابدُ من بني إسرائيل، فعبد الله في صومعته ستين عامًا، فأمطرت الأرض فاخضرت، فأشرف الراهب من صومعته فقال: «لو نزلت فذكرت الله فازددت خيرًا»، فنزل ومعه رغيف أو رغيفان، فبينما هو في الأرض لقيته امرأة، فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها، ثم أغمي عليه، فنزل الغدير يستحم، فجاء سائل، فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين أو الرغيف، ثم مات. فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته، ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له»(١).

هذا عابد أمضى العمر في خلوة صومعته يتعبد لربه، كيف سقط؟! وكيف نجح إبليس في إغوائه؟!

لم يكن إبليس أن يوسوس للعابد بفعل معصية، فهذا مدخل فاشل لا يؤتى ثماره مع العابد.

ولكن إبليس احتال عليه بحيلة، لقد زين له أن ينزل إلى الأرض الخضراء - بين النباتات - لينعم بالتأمل في آيات الله في النبات، فالتفكر في آيات الله وخلقه، عمل صالح.

وإبليس يقصد - من وراء ذلك - أن يقربه من موضع الفتنة حيث النساء، فتواصل مع امرأة لعوب، وانتهى معها إلى الفاحشة، وهكذا سقط العابد في فخ إبليس بأسهل حيلة.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه رقم (٨٢٠) بموارد الظمآن.

الألوكة
www.alukah.net

وهكذا يسلك الشيطان مع الإنسان سبل الإغواء بتدرج، قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ثم نزل العابد الماء ليستحم، فجاءه سائل فأومأ إليه العابد أن يأخذ ما عنده من خبز (رغيفًا أو رغيفين) ثم مات العابد!! فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته.

ثم وضع الرغيف أو الرغيفين مع حسناته، فرجحت كفة الحسنات لما وضع فيها ثواب الرغيف، لقد ضاعف الله ثواب الرغيف وأنقذ به العابد من النار.

ومن هنا نتعلم ألا نحتقر من الأعمال الصالحة شيئًا، فلعل هذا العمل القليل هو المتمم لكفة الحسنات، وبه تكون النجاة.

كما نتعلم من الموقف أن نسأل الله حسن الخاتمة، فهذا عابد فتن بعد ستين سنة من العبادة والطاعة.

كما نتعلم خطورة باب النساء في الفتنة، وقد أخرج مسلم في صحيحه، قول النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»(١).

وفي الحديث النبوي أيضًا: قال ﷺ: «اتقوا الدنيا والنساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت النساء»(٢).

والمعنى أن المرأة حين تكون داعية للغرائز والشهوات، متبرجة في سلوكها ومظهرها، فإن خطرها عظيم.

في حين أن المرأة حين تكون داعية إيمان في سلوكها ومظهرها فإن الله ينفع بها.

---

(١) رواه مسلم ١٧/ ٤٥

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٩٨)

رابعًا: حبيبي يا رسول الله:

دخل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على رسول الله ﷺ فوجده نائمًا على الحصير ورأى أثر الحصير في جنبه الشريف ﷺ.

فقال له: يا رسول الله، ألا نبسط تحتك ألين منه؟

فقال ﷺ: مالي والدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا مثل راكب سار في يوم صائف، فقال (من القيلولة) تحت شجرة ثم راح وتركها(١).

صلاةً وسلامًا عليك يا سيدي يا حبيبي يا رسول، كنت أزهد الناس، وكان فقرك اختيارًا وليس فقرًا اضطراريًا؛ لأنك كنت تنفق كل ما يأتي لك من مال، وكنت تكره أن يبيت في بيتك شيء من مال الدنيا.

فُتحت عليك الفتوح، وانهمرت بين يديك الأموال، وأنت يا سيدي يا حبيبي يا رسول الله معرض عن الدنيا كل الإعراض.

وقد عرض الله عليك بطحاء مكة ذهبًا فقلت: لا يا رب، ولكن أجوع يومًا وأشبع يومًا، فإذا شبعت حمدتك وشكرتك، وإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك(٢).

وكان ﷺ يقنع باليسير من الدنيا ويقول: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا(٣).

وكان ﷺ لا يدخر شيئًا لنفسه، وما جاء أنه أدخر فهو إنما كان لأهله،

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢١٣).

(٢) أخلاق النبوة (٢٦٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٨١،٧٣٠).

الألوكة
www.alukah.net

وما شبع ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعًا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا[(١)].

وما أكل خبزًا منخولاً منذ بعثه الله إلى أن قبض[(٢)].

وكان يمر به الشهر والشهران وما يوقد في بيته نار، إنما هو التمر والماء[(٣)] وجاءته فاطمة بكسرة خبز فقال: ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ قالت: قُرْصٌ خَبَزْتُهُ، فلم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة، فقال: أما إنه أول طعام دخل فم أبيكِ منذ ثلاثة أيام[(٤)].

وقد قبض ﷺ ودرعه مرهونة عند رجل يهودي على ثلاثين صاعًا من شعير أخذها رزقًا لعياله.

يقول جابر: مكث رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يحفرون الخندق ثلاثًا لم يذوقوا طعامًا، فقالوا : يا رسول الله، إن ههنا كدية من الجبل (أي: صخرة كبيرة)، فقال رسول الله ﷺ: رشوها بالماء، وفي الحديث قال جابر: فحانت مني التفاتة، فإذا رسول الله ﷺ قد شد على بطنه حجرًا[(٥)].

وتقول السيدة عائشة: خرج رسول الله ﷺ ولم يملأ بطنه في يوم من طعامين. كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الشعير، وإذا شبع من الشعير لم يشبع من التمر[(٦)].

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٥٧،٢٣٥٨).

(٢) مسند أحمد، مسند الأنصار (٢٣٢٨٥).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٧١،٨٦).

(٤) رواه الطبراني (١/ ٢٣٢)، وطبقات بن سعد (١:٢:١١٤).

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٠).

(٦) الشمائل المحمدية للترمذي (٦٧).

ويقول عتبة بن عزوان: لقد رأيتني وإني لسابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق السمر حتى تقرحت أشداقنا(١).

وتقول السيدة عائشة: لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين(٢).

ويقول أنس: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفًا مرققًا حتى لحق بالله - عز وجل - ولا رأى شاةً سميطًا بعينه حتى لحق بالله - عز وجل - .

والرغيف المرقق، الملين، والسميط، هو الذي أزيل شعره بالماء الساخن وشوى بجلده.

(١) السمر: هو شجر عظيم له شوك، والحديث رواه مسلم في الزهد والرقائق (٥٢٦٩).

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٥٢٨٣).

الوقفة الثانية عشر

كتب تحدثت عن السيرة النبوية ننصحك بقراءتها

www.alukah.net

الوقفة الثانية عشر
كتب تحدثت عن السيرة النبوية ننصحك بقراءتها

زاد المعاد في هدي خير العباد

المؤلف: ابن قيم الجوزية.

كتاب نفيس قل نظيره، بل هو فريد في ميدانه، جمع فيه المصنف ما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم من قول، أو فعل، أو تقرير.

فالكتاب موضوعه حياة النبي ﷺ بكل ما تحتويه هذه اللفظة من معنى، لكن المصنف استخرج من هذه السيرة العطرة فقهًا تارة، وحلالاً وحرامًا تارة، وآدابًا تارة، وتوحيدًا تارة، وتوجيهات وتعليمات تارة أخرى.

وطريقة المصنف واضحة كل الوضوح، ومنهجه بين لا خفاء فيه ولا لبس، فقد سلك طريقة المحدثين في التصحيح، والتضعيف، ثم استنبط مسائل الفقه من الروايات الراجحة، تاركًا الضعيف، وإن كان قد أخذ به جمع من الأعلام، فهو يسير مع الدليل حيث سار، وقد أودع في كتابه هذا من المسائل الدقيقة، والنكت العميقة التي ـ نادرًا ـ ما توجد في كتاب واحد.

صحيح السيرة النبوية

- المؤلف: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - رحمه الله.

• التصنيف : كتب السيرة النبوية.

ولد الشيخ الألباني رحمه الله في عام (١٣٣٢هـ)، في مدينة أشقودرة عاصمة ألبانيا يومئذ، ومن نعم الله تعالى عليه أن جعل نشأته في أحضان أسرة متواضعة متدينة يغلب عليها الديني العلمي، فقد تخرج والده الحاج نوح نجاتي الألباني في المعاهد الشرعية بعاصمة الخلافة العثمانية الأستانة التي تُعرف اليوم بإسطنبول، ورجع إلى بلاده في خدمة العلم وتعليم الناس ما تلقاه حتى صار من كبار مشايخ ألبانيا ومرجعًا للمسلمين بها، ثم هاجر إلى بلاد الشام بعد ذلك.

• نبذة عن الكتاب: أورد المؤلف في هذا الكتاب ما صحّ من سيرة رسول الله ﷺ وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه، فكان هذا الكتاب ولا يزال من أصح الكتب التي تحدث عن السيرة النبوية؛ لتوفيق الله - عز وجل - ، ثم لاعتماد المؤلف على الصحيح من السيرة.

الألوكة
www.alukah.net

عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير

- المؤلف: ابن سيد الناس - رحمه الله - .

هو محمد بن محمد بن محمد اليعمري، فتح الدين أبو الفتح الإشبيلي، المعروف بابن سيد الناس، محدث حافظ مؤرخ فقيه أندلسي الأصل.

ولد في القاهرة عام (٦٧١هـ)، ورحل في الطلب إلى الإسكندرية والشام والحجاز. قال الذهبي: (ولعل مشايخه يقاربون الألف).

وكتابه (عيون الأثر) شيق من أجمل كتب السيرة النبوية التي تعرض سيرة الرسول بأسلوب ميسر، كما تناول غزوات الرسول وشمائل الرسول ﷺ.

السيرة النبوية الصحيحة

- المؤلف: د. أكرم العمري.

يعد هذا الكتاب من أروع الكتب التي تحدثت عن سيرة الرسول ﷺ، وذلك يرجع إلى اعتماد المؤلف - وفقه الله - على المصادر الصحيحة، وعناية بها. فهو محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة.

يقع الكتاب في مجلدين، ونشر بأكثر من لغة، كما توصي به مجمعات تحقيق السنة العالمية.

هل كان محمد ﷺ رحيمًا؟

- المؤلف: محمد حسام الدين الخطيب.

- رابطة العالم الإسلامي - المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته.

- الطبعة الثانية: ١٤٣١هـ.

- عدد الصفحات: (٢٢٠) صفحة.

- مقاس الكتاب: (١٧×٢٤)سم.

كتاب يتحدث عن جوانب الرحمة في سيرة النبي ﷺ، وهو عبارة عن حوار حصل بين المؤلف وجار نصراني له، وسجل المؤلف ما دار في هذا الحوار من أسئلة وأجوبة، فخرج الكتاب بصورة مشرقة أضاءت جوانب الرحمة النبوية حتى يشعر كل من قرأ الكتاب بنشوة لالتزام هذا الينبوع النبوي المليء بالرحمة.

يقع الكتاب في (٢٢٠) صفحة، وهو حائز على جائزة في مسابقة للتعريف بنبي الرحمة ﷺ.

الألوكة
www.alukah.net

الخاتمة

أخي المسلم!!

هل تعلم أنه: ما من مسلم يصلي ويسلم على النبي ﷺ إلا ويرد الله على النبي ﷺ روحه، حتى يرد السلام على من سلم عليه، في أي مكان كان، وعلى أي حال كان؟!

وهذا ما أخبرنا به النبي ﷺ حينما قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام»[١].

فأنت حينما تقول: «ﷺ»، يأتي ملك، فيذهب إلى النبي ﷺ ويخبره بأنك تسلم عليه.

نعم.. هكذا يجب أن تكون علاقة المسلم بنبيه ﷺ علاقة قوية ومتينة.

فالنبي ﷺ يقول: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام»[٢].

فأكثروا من الصلاة والسلام على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

وا حرصوا على تطبيق سنته، والعمل بما جاء بها، ونشر ذلك فالدال على الخير كفاعله.

«وصل اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين».

---

(١) سنن النسائي، كتاب السهو، حديث رقم: (١٢٦٥).

(٢) سنن أبي داود، كتاب المناسك، حديث رقم: (١٧٤٥).

الألوكة
www.alukah.net

أفكار

مقترحات

ملاحظات

للاقتراحات والملاحظات

الرجاء التواصل مع المؤلف عبر العناوين التالية:

المملكة العربية السعودية - منطقة تبوك

+ ٩ ٦ ٦ ٥ ٠ ٣ ٢ ٤ ٥ ٥ ١ ٩

abdulaziz9955@hotmail.com

ص.ب 104 تيماء 71941

facebook.com/abdulaziz9955

twitter.com/abdulaziz9955

Abdulaziz995566

والحمد لله رب العالمين

الألوكة

www.alukah.net

الموسوعة الثقافية المدرسية
لطلاب المرحلة الثانوية

التعريف: هي موسوعة ثقافية موجهة للأبناء من عمر (١٦) سنة إلى (١٨) سنة.

الفكرة: تقديم موسوعة ثقافية شاملة لتلك الفئة العمرية تزودهم بشتى حقول المعرفة.

الأهداف:

- إعداد جيل من الأبناء يحمل قدرًا كبيرًا من العلم والثقافة تمكنه من تطوير نفسه وتطوير مجتمعه من حوله.
- تقوية صلة الطالب بربه من خلال سرد القصص والعبر.
- تعريف الطالب بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بأسلوب سلس، وطرح مرن.
- تقديم نماذج من سير الصحابة والتابعين ليتعرف عليها الطلاب.
- عرض لقصص تاريخية، يتعرف الطلاب من خلالها على أسرار العظمة الحقيقية.
- تطوير الذات من خلال طرح عدد من المهارات التي يستطيع الطلاب التدرب عليها.
- شغل وقت الطالب بحزمة من الأنشطة المتنوعة والتي تعطي الطالب الكثير من المعلومات والمهارات مع المتعة والسرور.
- تم رصد مئات من الكلمات التي جمعت سحر البيان، وبراعة الإتقان، لتؤثر في نفوس الطلاب؛ فتحسن سلوكهم، وتقوم أخطائهم، وترشدهم إلى ما فيه خير، وتنهاهم عما فيه شر.
- المسرحيات والمشاهد تُعد من الأنشطة البارزة والمهمة بل والمؤثرة في هذا العصر .. ولذا؛ قدمنا لطلابنا نماذج جاهزة، جمعت التجديد، والفائدة، والمتعة.
- عرفنا الطالب والمعلم بجماعات النشاط وكيفية استغلالها الاستغلال الأمثل.
- بذلنا الجهد الكبير لتقديم العديد من البرامج الجاهزة لكل المناسبات السنوية من أسابيع توعوية، وغيرها.
- هذه الموسوعة هي صديق وفيّ، يبحث عن طالب ناجح، ومعلم مخلص، ومدير نشيط، ليكونا معًا صداقة حميمة، وعلاقة طيبة، على حقول من العلم والمعرفة والثقافة والنشاط.

محتويات الموسوعة:

١- الأفكار الذهبية في الإذاعة المدرسية.
٢- الكافي لكل أسبوع ثقافي.
٣- منبع البرامج المتخصصة.
٤- العين الثاقبة في البرامج الناجحة.
٥- الروضة السندسية في الفقرات الثقافية (١).
٦- الروضة السندسية في الفقرات الثقافية (١).
٧- منبر الأمان لنفائس الكلمات.
٨- ماذا تعرف عن قدوتك محمد؟ صلى الله عليه وآله وسلم.
٩- المورد الأمين لمناقب الصحابة والتابعين.
١٠- المتجدد في النشاط المدرسي.
١١- الدستور الشاهد في المسرحيات والمشاهد.
١٢- مراجع الموسوعات الثقافية المدرسية.
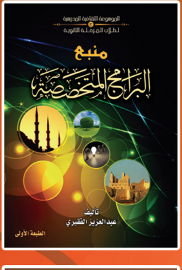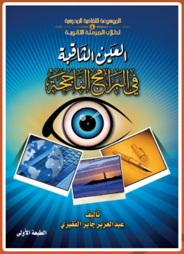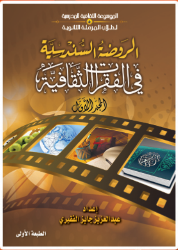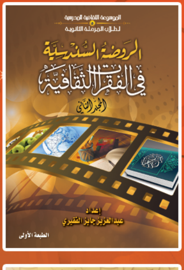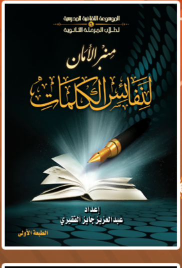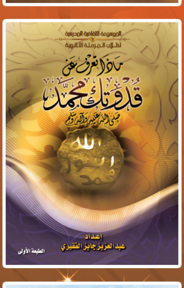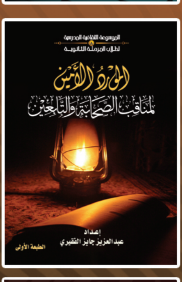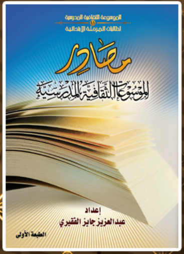
نحيط علمًا: بأن هذه الموسوعة ليست حكرًا على المدرسة؛ بل هي للبيت، والمسجد، والمكتبة، والمراكز الصيفية، وسائر الملتقيات الثقافية.